# حوليات الريف

مجلة مغربية تاريخية ثقافية شاملة

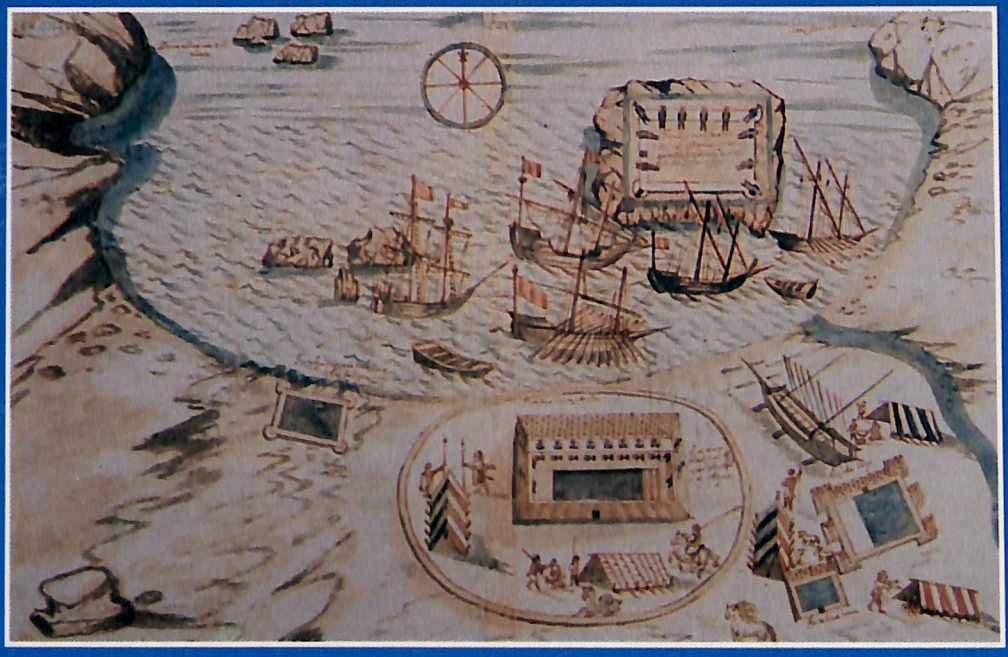

## ملف العدد :

- المدن البحرية بالمغرب : منطقة الريف
- القرصنة البحرية والمسألة المعدنية : وجهان لأسطورة واحدة
- نصوص وشهادات جديدة من الريف تنشر لأول مرة

## دراسات :

- الأمازيغ : اللغة والأصول
- حفريات في ذاكرة تطوان

العدد الثاني السنة الثانية 1999/1420 30 درهما

# حوليات الريـــف

# حوليات الريف

مجلة مغربية تاريخية ثقافية شاملة

العدد الثاني | السنة الثانية | 1999/1420


- المدير المسؤول : حسن الجرموني
- رئيس التحرير : محمد أونيى
- هيئة التحرير : جمال أمزيان
  عبد الحميد الرايس
  حسن حوريكي


تصفيف وإخراج : جمال أمزيان

عنوان المراسلة : صندوق البريد رقم 263 ، الحسيمة ، المغرب

☎ 09 - 982250 / فاكس: 09 - 980584

- الأفكار الواردة في المقالات لا تلزم سوى أصحابها.
- المواضيع المرسلة إلى المجلة لا ترد سواء نشرت أم لم تنشر.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية فقط .

ملف الصحافة : 2 /1997 الإيداع القانوني : 6 /1998

لوحة الغلاف : رسم لاحتلال حجرة نكور سنة 1673

وثيقة مكننا إياها الأستاذ حسين بوزينب (كلية الآداب – الرباط)

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

# فهرس

افتتاحية.....7

## ﴿ ملف العدد ﴾

المدن البحرية بالمغرب : منطقة الريف : إيلي دو لابريمودي
ترجمة د. عز الدين الخطابي .....11

القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ (1856-1898) :
د. محمد أونيي..... 39

الحملة المخزنية على بقيوة 1898 :
ذ. عبد الرحمان الطيبي..... 61

مسألة المعادن في الريف والتهافت الأجنبي :
ذ. عبد الحميد الرايس.....73

البحر الأبيض المتوسط، فضاء التواصل والاختلاف : إدغار موران
ترجمة ذ.عبد المجيد السخيري.....105

## ﴿ دراسات ﴾

الأمازيغ : اللغة والأصول : دافيد منتغمري هارت
ترجمة ذ.عبد المجيد عزوزي.....114

الهجرة من الريف الشرقي نحو الجزائر :
ذ. علال زروالي.....127

حفريات معرفية في ذاكرة الشمال المغربي :
ذ. أحمد إحدوتن..... 139

## ﴿ قراءات ﴾

قراءة في كتاب : *إمارة بني صالح في بلاد نكور* ، تأليف د. أحمد الطاهري
د. محمد أونيي..... 153

**شخصيات وأعلام** : دَادِي بن مسعود
د. محمد أونيي..... 171

**وثائق ونصوص** ..... 176

**إصدارات** ..... 206

# افتتاحيـة

شكل موضوع البحر، عبر التاريخ، مجالا للاتصال والتبادل بين مختلف الحضارات. وبالنظر إلى موقعه الجغرافي على الواجهة المتوسطية للمغرب، فإن الريف لم يكن بمنأى عن هـذا التـأثير المتبادل. لكن، وبسبب اختلال موازين القوى بين ضفتي الحوض المتوسطي لصالح أوربا الرأسمالية، أصبح الساحل الريفي، على غرار باقي السواحل المغربية، تحت تهديد أطمـاع القـوى الأوربيـة المتنافسة.

فابتداء من أواسط القرن التاسع عشر، أصبح موضوع البحر، وما يرتبط بـه مـن حركـة الملاحة وشؤون التجارة في السواحل المغربية بالريف، على رأس القضايا المُتـداول بشـأنها بيـن المسؤولين المغاربة من جهة، وأعضاء السلك الديبلوماسي المعتمد سابقا بمدينة طنجة من جهة ثانية.

ولا أدل على أهمية هذا الموضوع، من كثرة المراسلات التي تبادلـها، بصـدده، الطرفـان المذكوران. وكذا خطورة الأحداث التي ترتبت عن نزاعاته، بعضها اتخذ بُعدا دوليا.

على أن التاريخ البحري للمنطقة الريفية كملف متشعب، شائك، بقي لحد اليوم غامضا. لـذا، فإن اختيار موضوع « **الريف والبحر الأبيض المتوسط** » كمحور لهذا العـدد الثـاني مـن مجلـة **حوليات الريف** لم يكن من باب الصدفة، أو لمجرد تتبع الأحداث التاريخية التي جرت في سواحلنا الشمالية، كهدف في حد ذاته، بل قصد فهم واستيعاب أصول وحيثيات كثير من الظواهر والقضايـا المطروحة حاليا في المنطقة المعنية، والتي – أي تلك القضايا – في معظمها شديدة الارتباط بعـالم البحر، إن اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا. فبدون هذه المرجعية التاريخية، وبدون أيضا، الرغبة فـي إعادة كتابة هذا الماضي بروح نقدية، فإن هذه القضايا ستظل ولا شك غير مفهومة.

هكذا، تضمن محور العدد ترجمة عربية لدراسة قديمة، لكنها هامة، رغم ما قد يشوبها مـن خلفية استعمارية، والتي نشرها صاحبها بالفرنسية سنة 1872 في " المجلة الإفريقية " تحـت عنـوان " **المدن البحرية المغربية : منطقة الريف** ".

ويروم المقال الثاني إعادة النظر في سيرورة ما تسميه الأدبيات الكولونياليـة ب " **القرصنـة الريفية** "خلال مرحلة 1856–1898، وذلك باستجلاء الأوجه المختلفة لهذا النوع من النشاط البحـري، حتى يتسنى بعد ذلك، التمييز بين الأسطوري والواقعي في هذه النازلة، والتي كانت بمثابة حصـان طروادة ركبته القوى الاستعمارية لتوسيع مجال نفوذها في شمال المغرب.

وفي ذات المنحى، اهتم مقال " **الحملة المخزنية على بقيوة سنة 1898** " بـإبراز المراحـل الأساسية لهذا الحدث الذي شهدته المنطقة في أواخر القرن الماضي، ويتعلق الأمر بتجريد المخـزن لحَرْكَة سنة 1898 ضد القبيلة التي نُسبت إليها الأعمال " القرصانية " ضد السفن الأجنبية.

ومن جهة أخرى، تطرقت مقاربة " **مسألة المعادن في الريـــف** " فـــي مرحلـــة مـــا قبـــل الاستعمار، لأصول وعواقب هذه القضية التي لفتت، بدورها، أنظار رجال الأعمال الأوربيين الذيـــن سارعوا إلى شد رحال المغامرة إلى " إلْدُورَادُو الريف ".

وإغناء لهذا الملف، جاء باب " **نصوص ووثائق** " بحقائق وإيضاحات جديدة، لتنير جوانـــب غامضة من التاريخ البحري، سواء على الصعيد المحلي، أو الوطني والمتوسطي. ويتعلـــق الأمـــر بالخصوص – إلى جانب مستندات وقرائن أخرى – بعيِّنة من " وثائق " الرواية الشفوية تكتسي أهمية دالة، لا لكونها عبارة عن شهادات غير منشورة، أدلى بها لمن دوَّنها، نخبة من الرجال الذين خاضوا غمار حرب الريف التحريرية (1921- 1925)، فحسب، وإنما أيضا لكونها غنية بتفاصيل نادرة تكشف عن أهمية البحر في الحياة اليومية للذين عاشوا إبان تلك الفترة.

غير أن البحر الأبيض المتوسط، لم يكن دائما مجالا للتوتر والمواجهة، وإنما أيضـــا فضـــاء للتسامح والاختلاف. زيادة على كونه مجالا حيويا للساكنة المحلية، ومن ثم يشـــكل أحـــد مصـــادر الأمن الغذائي لبلادنا، وعنصرا أساسيا في تنميتها.

وتجدر الإشارة إلى أن مجلة حوليات الريف، بتخصيصها لملف أولي حول حقل شاسع، غنـــي وديناميكي كموضوع " **الريف والبحر** ..."، لا تزعم أنها قد تمكنت من الإجابة على جميـــع الأســـئلة التاريخية ،الاقتصادية والثقافية وغيرها، التي تطرح أو يمكن أن تطرح في هذا الباب، وإنما حـــاولت أن تتوقف عند بعض الجزر البارزة هنا وهناك، لَلْفتِ الانتباه إلى ما يتصـــف بـــه هـــذا المجـــال، كواجهة متوسطية للمغرب، من عمق حضاري – تاريخي، وما يزخر به من ثروات مادية ورمزيـــة، تحتاج إلى من يغوص وراءها على أكثر من مستوى وتخصص، قصد استجلائها وإبرازها إلى سطح الواقع.

وبموازاة مع ملف العدد، فإن مساهمات باب " **دراسات** "، وبالأخص مقالات القسم الأجنبـــي، وإن اختلفت من حيث المنظور والاهتمام، فإنها تتناول مجالات هامة وتتقاطع حول منطقتنا، مؤكـــدة على أهمية الإرث التاريخي الذي طبع هذه الجهة. كما تذكر ببعض تحـــولات بنياتـــها الاقتصاديـــة، مسار نموها الحضري، الظروف الاجتماعية لسكانها وحركيتهم، سيما هجرة اليد العاملة بين الأمـــس ( الجزائر ) واليوم ( أوربا الغربية )، وأخيرا خصوصيتها الثقافية.

وفي الختام، لا ندع الفرصة تمر، في هذه الافتتاحية، دون أن نشكر القـــراء الكـــرام، وكـــل الذين راسلونا، وبعثوا إلينا بمساهماتهم، سواء نشرت أم أجلت للأعداد المقبلـــة، وكـــذا تشـــجيعاتهم واقتراحاتهم، والتي كانت بمثابة خير معين لتذليل الصعاب.

والله ولي التوفيق.

**هيئة التحرير**

# ملـف العـدد

## الريف والبحر الأبيض المتوسط

- المـــدن البحريـــــة بالمغـــــرب .
- القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ.
- الحملة المخزنية على بقيوة سنـــة 1898 .
- المســألة المعدنيــة بــالريف والتــهافت الأجنبي ( 1880 – 1912).
- البحــر الأبيــض المتوســط : فضــــاء الاختلاف والتواصل.

# المدن البحرية بالمغرب

## تجارة، ملاحة وجغرافيا مقارنة *

تأليف : إيلي دو لابريمودي
ترجمة : د. عز الدين الخطابي
مراجعة تاريخية : هيئة تحرير المجلة

### الفصل الأول : منطقة الريف

#### المقطع I

كان نهر ملوية في عهد الرومان، يشكل على مستوى جزئه الأسفل، الحدود بين الموريطانيتين : القيصرية Césarienne والطنجية Tingitane [1]. ولا زالت هذه الحدود القديمة، المعترف بها من طرف العثمانيين حتى الفترة الأخيرة من هيمنتهم، تشكل إلى يومنا هذه، التخوم الفاصلة بين الجزائر والإمبراطورية المغربية، وقد تم إقرارها سياسيا بمعاهدة 18 مارس 1845 [*].

#### المقطع II

بعد تجاوز مصب نهر ملوية باتجاه الشاطئ نحو الغرب، نكتشف أولا رأس كبدانة Quibdana المذكور من طرف طوفينيو Tofiño [2]، وهو اسم لقبيلة بربرية مجاورة تدعى كبدانة. ويرسم هذا الرأس على كل الخرائط البحرية للعصور الوسطى، لكن دون أن يعين له اسما ما. كما أن نفس الخرائط تشير إلى وجود أماكن لإنتاج الملح، بعيدة عن المكان الأول، دون تحديدها بدقة.

---

* إيلي دي لامبريمودي، " *المدن البحرية بالمغرب، تجارة، ملاحة وجغرافيا مقارنة : منطقة الريف*"، المجلة الإفريقية، عدد رقم 16، 1872 ، ص.ص. 105-135.

**Elie de la PRIMAUDIE**, «Les *villes maritimes du Maroc »,* Revue Africaine, N°.16, 1872, pp.105-135.

---

[1] - Mulucha amnis nunc gentium olim regnorum quoque terminus Bocchi Yugurtaeque (P. Mela, L. I. C.5 ). Maloua flumen dirinit Mauritanias duas ( *Itin. Anto.* P.12 ).

[*] – لم يكن نهر ملوية هو المقصود في هذه المدة، وإنما واد تافنة. ( هيئة تحرير المجلة ).

[2] - *Derrotero de las Costas de España y de su correspondiente de Africa*, 1787.

وتتموقع هذه البحيرات الطبيعية التي تبدو مساحتها شاسعة، على بعد 18 إلى 20 كيلومترا شرق مليلية، كما تتصل بالبحر بواسطة قناة. وقد تشكلت سبخة كرط Sebkha de Ghâret [3] مثلما تشكلت سبخات آرزيو Arzeu ووهران. فهي تشبه بحيرة كبيرة أثناء فصل الشتاء، ولكنها تجف بفعل حرارة الصيف، بحيث يمكن للجمال، ولباقي الدواب، أن تعبرها دون أن تبلل قوائمها.

وعندما تهطل الأمطار الأولى في شهر أكتوبر، تكتسي أجزاء عديدة من السبخة بالعشب، وفي القعر تتكون طبقات من الملح البلوري. بعد هذه البحيرات، ينعرج الشاطئ ويبدأ بالصعود باتجاه الشمال، حيث نصل إلى مليلية التي تم ذكرها من طرف جميع رسامي الخرائط القدامى : ففي الخريطة البحرية لفسكونتي Visconti، والأطلس القشتالي لفرير Ferrer، تم تسجيلها تحت اسم Mellela. أما في خريطة مكتبة بنيلي Pinelli، فقد كتبت تحت اسم Cavo Melila، وتوجد في الخرائط الطرقية الأخرى باسم Mellila. لكن لا أحد من هؤلاء أشار إلى النهر الصغير الذي يجري بشرق المدينة، والمدعو من طرف الإسبانيين بوادي الذهب Rio de oro. والإشارة الوحيدة نجدها بخريطة بتيستا أنييزي Battista Agnesi، التي ترجع إلى فترة حديثة العهد [سنة 1524].

لقد كانت مليلية في العصر الوسيط، مركزا تجاريا ذا أهمية. وكان بربر المناطق الداخلية يجلبون إليها الصوف والجلود غير المدبوغة، والعسل والشمع والفواكه اليابسة والسلال، ويحصلون من التجار الأوربيين، مقابل ذلك، على الأثواب والأقمشة والأدوات المعدنية والأسلحة.

ويوجد العسل بغزارة في هذه المنطقة، وهو ذو جودة عالية، ويعتقد أن اسم مليلية قد اشتق من كلمة عسل Miel الذي يشكل المادة الأكثر أهمية على مستوى تجارة التصدير، وكان مطلوبا، على الخصوص، من طرف تجار مالقة Malaga وقرطاجنة Carthagène الذين كانوا يجنون من هاته التجارة أرباحا كبيرة.

كما أن مناجم الحديد الموجودة بالجبال المجاورة، توفر لسكان مليلية مادة ثمينة بالنسبة لتجارتهم الخارجية. وإذا ما صدقنا ما قاله ليون الإفريقي ومارمول Marmol، فقد كان خليج مليلية مكانا لصيد المحار المحتوي على اللآلئ. وبخصوص التجار الذين كانوا يتاجرون بمليلية، يتحدث البكري عن عادة فريدة من نوعها، حيث يقول بأنه مباشرة بعد وصول تاجر أجنبي إلى الميناء، يقوم السكان بسحب القرعة فيما بينهم، ومن يسعفه الحظ يتكفل بإدارة أعمال هذا التاجر الذي لا يمكنه أن

---

[3] – يدعوها مادوز **MADUZ** ب Laguna de puerto neuvo، وذلك في السجلات الإحصائية المرفوقة بخريطة فرانس كويو Franç. Cœllo وعنوانها : *Mapa de las possessiones de Africa*, 1850، وسيضيف بأنها ردمت جزئيا سنة 1755 بسبب زلزال أرضي.

يشتري أو يبيع أي شيء بدون استشارة مضيفه. وسيكون هذا الأخير مُلزَما بالدفاع عن مصالح التاجر المعني، ولأجل ذلك، فهو يتلقى أجرا وهدايا كتغطية لمصاريف الإقامة. من جهة أخرى، فقد كان تجار البندقية Venise يترددون على أسواق مليلية التي كانت تعتبر إحدى نقط التوقف البارزة في مسار الأسطول التجاري المتجه صوب السواحل الإفريقية.

## المقطع III

في شهر شتنبر من سنة 1497 احتلت مليلية من طرف دوق دي مدينا سيدونيا Le Duc de Medina Sedonia. وكانت المدينة شبه خالية، نتيجة اتفاق سرّي بين ملوك فاس وتلمسان، الذين تنازعوا لمدة طويلة من أجل امتلاكها. ولقد تمكن الدوق الذي وصل صدفة إلى المدينة، من السيطرة عليها دون أية مقاومة تذكر(*). حيث أعاد بناء الأسوار التي تهاوت، مع تضييق مساحة السياج. وشيد قلعة فوق الصخرة المطلة على الساحة الموجودة بالشمال الشرقي، ثم قفل راجعا إلى مالقة بعد أن ترك وراءه حامية متوفرة على كل ما هو ضروري للدفاع عن القلعة.

ورغم تعرضها لهجمات متتالية وشرسة من طرف المغاربة، فإن مليلية ظلت منذ تلك الفترة، تحت سيطرة إسبانيا. وفي سنة 1563، استنهض أحد الأولياء – المعترف له بالولاية بالمنطقة – عددا كبيرا من القبائل، مؤكدا بأنه إذا ما وافق رجال هذه القبائل على مرافقته باتجاه أسوار مليلية، فإنه سيُخضع المدينة والنصارى [ المحتلين ] لسلطانه، حيث ستفتح أبواب الساحة من تلقاء ذاتها، وسيستغرق الجنود في النوم دون أن يتمكنوا من إطلاق قذيفة مدفع أو بندقية حتى. وقد صدقه البربر [ الريفيون ] وحدّدوا موعدا للقيام بالمحاولة. غير أن حاكم مليلية دون بِدْرُو دي فِنِيكَاس Don Pedro de Venegas الذي كان قد أُبلغ من طرف أحد جواسيسه بخبر هذه المحاولة، سيتخذ كل الإجراءات لاستقبالهم، مُعِدّا لهم العدة اللازمة.

وفي اليوم الموعود، تقدم المغاربة Maures الذين كان عددهم يتراوح ما بين 10 آلاف و 12 ألفا أمام المدينة، يسبقهم الولي الذي كان يقوم بإشارات يدوية، مستحضرا بصوت عال، اسم الله واسم

(*) – يرى د. حسن الفكيكي أن سكان مليلية، الذين طال انتظارهم وصول المساعدة الوطاسية من فاس، اضطروا في نهاية المطاف إلى مغادرة مدينتهم، وهدمها وحرق ما بها. ولما وصل المدد المخزني «**استكمل عملية الهدم والحرق، محاولة منه لتثبيط عزائم الإسبان على الاستقرار من جهة، وعقابا في نفس الوقت للسكان المتخاذلين عن الدفاع**.» انظر : حسن الفكيكي، *المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية ( 1697-859م )*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، 1997، ص.72. ( هيئة تحرير المجلة ).

النبي. فجأة، وبدون سابق إنذار، انفتحت الأبواب، وشُلّت الحركة داخل المدينة، وظل الحراس بدون حراك على الأسوار، وبنادقهم على أكتافهم.

وهكذا، سيعبر الريفيون الأبواب بدون تردد، مقتنعين بالقدرات الخارقة للولي، حيث كان السكون الشامل يسود الأزقة، ولم يكن هناك أثر لأي جندي. وتبادل الوافدون التهانئ بسقوط المدينة، لكن فرحتهم لم تدم. فبإشارة من فِينِيكَاسْ Venegas، خرج الإسبانيون من كل الجهات، وأطلقوا النار على المغاربة، مما أدى إلى قتل عدد كبير من بينهم. أما المتبقين منهم، فلم يفكروا سوى في الهرب، وقد كان الولي نفسه من ضمن الفارين بأقصى سرعة. وكان من الممكن أن تثني هذه المحاولة الفاشلة عزم الريفيين، إلا أن ذلك لم يزعزع الثقة العمياء لهؤلاء السذج في وليهم. فقد أخبرهم هذا الأخير، بأنه لولا إعلانهم عن الانتصار بمجرد دخولهم إلى المدينة، ولولا إيقاظهم للنصارى، لكانت المدينة قد سقطت بأيديهم. وزعم أيضا، بأنه أصيب أثناء المعركة بطلقات نارية من بنادق الأعداء لا تزال آثارها قائمة، ولكنه سلم رغم ذلك. وباختصار، فإن الولي بذل جهده الاقناعي حتى اقتنع أنصاره بضرورة الرجوع مرة أخرى إلى مليلية.

غير أن دُونْ بِدْرُو دي فِينِيكَاسْ كان على أهبة لملاقاتهم، لأنه أُخبِر بمجيئهم مرة أخرى. ومثل المرة السابقة، سيجد الريفيون بمعية الولي أبواب المدينة مفتوحة، وسيدخلونها بهدوء، ممتنعين عن الصراخ، بل وحتى عن الكلام، عملا بتوصية الولي.

وكان عدد المهاجمين قد بلغ ست مائة شخص، حينما سقط وراءهم حاجز حديدي كان حاكم المدينة قد أقامه في فترة حديثة العهد. وفي نفس الوقت خرج الجنود من كل المنازل، وأغاروا على المغاربة بالرماح والبنادق. ولم يركن أي أحد إلى الفرار هذه المرة، فقد تمكن الجنود من قتل أو أسر كل المهاجمين. أما أولئك الذين ظلوا خارج المدينة، ومن بينهم الولي، فإنهم سارعوا بالعودة إلى جبالهم عندما رأوا أبواب المدينة تغلق، وسمعوا طبول المعركة تُدَقّ. غادروا المكان وقد خاب أملهم – بدون شك – في وليهم. ومنذ تلك اللحظة لم يسمع أي خبر عن ذلك الولي المشؤوم[4].

## المقطع IV

وعلى مدى قرن من الزمان، ظلت قلعة مليلية في منأى عن هجمات المغاربة. وقد حاول المولى إسماعيل الاستيلاء عليها سنة 1687. ويقول المؤرخون الإسبان بأن الشريف عزّز قواته

(4) - **Marmol; Ferras.**

بمهندسين فرنسيين كُلِّفوا بقيادة عمليات الحصار، لكنه فشل في مهمته رغم ذلك؛ إذ مكن الدفاع القوي لدُونْ فْرَانْسِيسْكُو مُورِينُو Don Francisco MORENO من الإبقاء على المدينة بيد الإسبان.

سبع سنوات بعد ذلك، ظهر المغاربة على أبواب المدينة من جديد. ورغم أن هجومهم كان أكثر جدية هذه المرة، إلا أن المؤرخين لم يأتوا على ذكره إلا نادرا. فقد استمر الحصار الذي بدأ سنة 1694، حتى نهاية القرن السابع عشر، مع بعض التقطعات بين الفينة والأخرى. وتقدم رسالتان موقعتان من طرف حاكم مليلية Don Domingo de Canal y Solvedila، مؤرختان بتاريخ 1 ماي و20 غشت 1697، بعض التفاصيل الهامة حول الموضوع، حيث كان الموقع المحاصر بدقة من طرف المغاربة على وشك السقوط بين أيديهم. وإليكم هاتان الوثيقتان الأصليتان [5]:

**« أخبر سعادتكم، بأنه في أيام 27، 28 و29 من الشهر المنصرم (أبريل 1697)، تقدم أمام ساحة المدينة جمهور غفير من المغاربة يصل عددهم، حسب تقديري، إلى 10 آلاف أو 12 ألف شخص. وفي 30 أبريل على الساعة الحادية عشر ليلا، ظهروا بأعداد كبيرة في وضعية الهجوم، وتقدم حوالي أربعة آلاف مقاتل باتجاه الحصن الذي يخضع الآن للتشييد. وقد قاموا بسبع هجمات، قمنا بصدها جميعا، كما أنهم وضعوا السلالم أيضا على الأسوار، لكننا نزعناها منهم.**

**بعد ذلك حاول المهاجمون ملء الحفرة التي تفصل فيما بيننا. ورغم أنني بادرت بنجدة رجالنا، يساعدني في ذلك نقيب المشاة دُونْ دْيِيغُو دِي بِيرِيَا Don Diego de PEREA وستون من رجاله، إلا أنني لم أتمكن من صد الهجوم إلا عند الساعة الثالثة صباحا، حيث أجبرت على التراجع برجالي أربع مرات.**

**أخيرا، وبفضل نيران جنود المشاة والمدفعية التي كانت تنطلق من فوق أسوار المدينة، خفت الهجمات من ذلك الجانب، وتمكنت من القيام بمحاولة جديدة تكللت بالنجاح؛ إثر ذلك قمت بطرد المهاجمين من الحفرة. وقد دام الهجوم خمس ساعات، ويمكنني أن أؤكد لسعادتكم أن أسلحة صاحب الجلالة كانت نافعة بشكل جيد.**

**وفيما يتعلق بي شخصيا، فإنني كما سبق أن قلت لسعادتكم، أفتقر إلى الرجال، إذ لا أتوفر الآن إلا على 250 رجلا على أهبة القتال. كما أننا نفتقر إلى ذخيرة الحرب، إذ نتوفر، بالكاد، على ما يكفينا لإطلاق النار مدة عشرة أيام. ونحتاج أيضا للمؤونة، فمنذ مدة لم نتناول طعاما ساخنا لعدم توفرنا على الحطب اللازم لطهي الطعام. وقد قدمت عدة مرات**

---

[5] – *خزانة الكتابة العامة للحكومة*، الأرشيفات الإسبانية، عدد 3، C.IV. وقد نشر بيربْروغر **Berbrugger** هاتين الرسالتين بالمجلة الإفريقية، عدد 53، شتنبر 1865.

**شكاوي في الموضوع إلى سلطات مالقة، وإلى المونيين، لكنني لم أتلق أي رد من جانبهم. وأخشى وقوع مآسي كبيرة إذا لم يتم تدارك الأمر في الوقت المناسب. ومع ذلك يمكن لسعادتكم أن تتأكدوا بأنه إذا كنا سنفقد المدينة، فإن المقبرة ستشكل قبل ذلك مقبرة لي ولكل رجال الحامية.»**

أما الرسالة الثانية الموجهة إلى نفس الشخصية، فقد صيغت كما يلي :

**« إن المغاربة يحافظون على مواقعهم الهجومية، وإن كانوا يحافظون على ذلك لأقل من نصف القوات التي كانت لديهم في الشهر الماضي. ورغم ذلك فإن ما تبقى لديهم كاف لإزعاجنا. وقد قاموا الآن بعملية اختراق هجومية من الأعلى، وشيدوا من الخلف برجا طينيا على شكل مكعب، لكن تشييده تم بطريقة غير منتظمة. ونعتقد بأنهم يرومون من خلال عملهم هذا، مضايقة التحصين الذي نقوم به. وإذا ما اقتصروا على ذلك فقط فإن الأمر لن يشكل عرقلة بالنسبة لنا، ومع ذلك فإننا نحاول إزعاجهم بنيران مدفعيتنا حينما نهم بشروعهم في العمل مرة أخرى، وإن كنا لا نستطيع منعهم من الاشتغال بهذا القدر أو ذاك أثناء الليل.**

**ولقد دخلت أربع قوارب إلى الميناء، منها قاربان محملان بالمؤونة، وقارب ثالث مليء بالكِلس وبذخيرة الحرب، ورابع محمل بالخشب. وجاء وصولها في حينه، لأننا كنا سنموت جوعا لو تأخرت هذه القوارب يومين على الأكثر، إذ كنا متواجدين بأقصى طرف المدينة.»**

## المقطع V

في سنة 1776، أرسل السلطان سيدي محمد، وبدون أي إعلان للحرب على إسبانيا، جيشا مكونا من 30 ألف رجل لمحاصرة مليلية، مدعيا بأنه إذا كان في حالة سلم بحري مع الملك شارل الثالث، فإن الأمر لم يكن كذلك برّا. وقد أنفق الشريف أموالا باهضة لإنجاح هذه المهمة، حيث كانت المدفعية المجهزة بشكل جيد، تحت قيادة مهندسين إنجليز تم استقدامهم من جبل طارق. ورغم ذلك فقد انهزمت جيوشه، إذ أن الجنرال شِرلوكْ Sherlock الذي قدم من مدريد بتعزيزات عسكرية، دافع عن المدينة باستماتة.

وكانتقام من هذا الاعتداء غير المُبَرّر، بادرت الحكومة الإسبانية بحصار كل الموانئ المغربية. ويحكى أن السلطان سيدي محمد، وفي محاولة منه لإزالة التأثير السيئ على نفسية شعبه، والناتج عن انسحاب جيشه، وحربه مع الإسبان، أشاع بأنه قد اتفق مع الملك شارل بأن يتخلى له هذا

الأخير عن مليلية، مباشرة بعد تحكمه في الرغبة السيئة للرهبان وباقي رجال الدين بمختلف المناطق، تلك الرغبة الرافضة لفكرة التنازل عن هذه المدينة.

## المقطع VI

تقع مليلية على شبه جزيرة متصلة بالقارة [ الإفريقية ] بواسطة برزخ من الصخور طوله أربعون مترا، وعرضه واحد وثلاثون مترا. وقد اشتهرت المدينة بمناعتها؛ فهي متعذرة البلوغ من الشمال بسبب المنحدر الصخري الذي تستند عليه في جزء منها، ويحميها من جهة الشرق حاجز سمكه ثلاثة أقدام ويتوفر في وسطه على برج ذي شكل بيضوي. ومن الجنوب يحميها حاجز آخر أسطواني الشكل يدعى Las Cabras، وأخيرا يوجد على الجبهة المتجهة صوب الغرب، باب إلى جانب برج S. Jago الكبير. وتتصل المدينة عبر هذه الجهة بالتحصينات الخارجية، وذلك بواسطة طريق محمية. ويُحَفُّ هذا البرزخ، على مدى طوله، بالخنادق.

أما حامية مليلية فتتكون من كتيبة تتضمن ثمان مائة رجل، ويقودها ضابط برتبة عقيد. ويقدر عدد المساجين Los presidirios بأربع إلى خمس مائة رجل. وعلى مدى شهور السنة تتصل مليلية بمالقة بواسطة مركبة بخارية. وبالجنوب الشرقي، على مسافة قريبة وعلى مرمى مدافع الحصون، يوجد ميناء مليلية، وهو ميناء صغير لا يمكنه أن يستقبل سوى المراكب الصغيرة وبعض السفن ذات الحمولة الضعيفة. وترسو السفن الكبرى عادة بالشرق، على بعد فرسخ عن القصر وبحوالي 20 إلى 50 باعا. لكن يجب أن تكون هذه السفن مستعدة دوما للإقلاع كلما هبت الرياح البحرية.

ويخبرنا كاتب مجهول لوثيقة غير منشورة متعلقة بالمسالك البحرية ومؤرخة بسنة 1669 [6] بأن ميناء مليلية يوجد في موقع جيد إلى حد ما رغم أن حوضه لا يتوفر على قعر، لكن الرسو بداخله يظل ملائما. ويوجد بالمدخل، على الجانب الأيمن، انحدار سببه رأس الميناء نفسه. ولا ترتبط مليلية بأي شكل من أشكال التواصل مع داخل البلاد، كما أن الجنود الذين يحرسونها لا يغادرون أبدا سياجاتها الضيقة. وقد تم الحفاظ بصرامة على هذا النظام من الثبات والعزلة التامة المطبق من طرف الحكومة الإسبانية على ثغورها بالشاطئ الإفريقي.

[6] - *Portulan de la Méditerranée*, 1669, M. de la bibliothèque nationale, F. R. 741.

لقد خف الحصار عن الإسبانيين بعض الشيء منذ حربهم الأخيرة بالمغرب، لكن إذا كان السجن قد اتسع شيئا ما، فإنه يظل مع ذلك سجنا [7]. وكما يقول بيربْرّوغر Berbrugger [8] : « **توجد الحامية هناك قبالة المغاربة في وضعية شبيهة بوضعية الإنجليز بجبل طارق. ولعل الفارق هنا يتمثل في تلك الاختلافات الدقيقة التي تميز السلوكات الدولية للبلدان المتحضرة عن سلوكات الشعوب المتبربرة** [barbares]. **وتلك على أية حال، هي النتيجة الحتمية لكل احتلال محدود** [جغرافيا].»

## المقطع VII

نُحِتت مليلية في مسالك أنطونان Antonin ب Russader Colonia، وذكرها بْلينْ Pline تحت اسم Rusadir oppidum [9]. وكانت في عهد الرومان تعتبر المكان الوحيد للتجارة في هذه النواحي المجهولة تقريبا.

## المقطع VIII

خلف مليلية، يستمر الشاطئ الصخري الشديد الانحدار، في الصعود نحو الشمال حتى رأس الدير Ras ed-deïr أو Russadir promontorium كما ورد في مسالك أنطونان، ورأس المذرات الثلاث Tres-Focras كما نعته الإسبان [10].

وتشير كل الوثائق البحرية القديمة إلى هذه النتوءات البارزة التي تسد غربا الخليج الواسع حيث يصب نهر ملوية.

إن خريطة بيزَان Pisane تدعوه Tarf ofolco، لكن الخرائط البحرية الإيطالية الأخرى، وكذلك الأطلس الكطلاني catalan، تنعته تحت باسم Cavo de tres Forchs. ويشير دليل الخرائط البحرية لسنة 1669 « **بأن مرتفع المذرات الثلاث يتضمن ثلاث قمم من جهة الشرق، متفاوتة العلو،**

---

[7] – يقر الفصل السادس من معاهدة 26 أبريل 1860 الموقعة مع إمبراطور المغرب، بأنه « **سيتم تنصيب قائد على رأس قوة نظامية، على حدود الأراضي المحايدة التي ألحقت بثغور سبتة ومليلية، وذلك بغرض تجنب وقوع هجمات القبائل**». ويؤكد نفس الفصل بأنه من واجب الحراس المغاربة المتواجدين بأمر الإمبراطور، على مواقع الحسيمة [حجرة نكور]، والبنيُونْ Peñon [حجرة بادس]، أن يظلوا بأماكنهم على جانب البحر.

[8] - *Revue Africaine*, n° 35, p.370.

[9] – توجد تحت اسم Russœdiron بألواح بطليموس.

[10]- Cabo d'Entre folcos dans Marmol.

**وتشكل مثلثا يسمح وضعه بمرور السفن الكبيرة»**. ولا تضيف الهيدروغرافيا الحديثة أي جديد لهذا الوصف.

وحسب تقرير رُونُو Renou، فإن الأمر يتعلق برأس بَلْعَان Râs Balân الذي وصفه الإدريسي : «**من المحتمل جدا**، يقول رونو، **وحسب ما يبدو لي، أن رأس بلعان هو المسمى ب** Tres forcas **من طرف الإسبان، علما بأن الإدريسي لا يموقعه إلا على بعد اثني عشر ميلا** (18 كيلومترا) **من المزمة** M'zemma. **وبما أن هذا الجغرافي لا يذكر أي رأس آخر، فإنه يبدو لي من الصعب الاعتقاد بأنه أهمل موقعا بأهمية رأس المذرات الثلاث، وأنه رسم رأس بلعان كنقطة متوغلة داخل البحر. وأظن أن تأكيد التطابق بين هذين الرأسين بالرجوع إلى مثل هذه التحديدات، أفضل من تأكيده عن طريق مسافة تشير كل الاحتمالات إلى عدم صحتها**» [11].

ويطلق البكري اسم طرف هرك Tarf Herek على نفس الرأس، مؤكدا بإمكان السفن الصغيرة الاحتماء تحت أجرافه ولو كان الفصل شتاء.

أما ابن خلدون، فيخبرنا بأن القبائل التي كانت تقطن هذا الجزء من الساحل الممتد من ملوية إلى واد بُوغِرْ Buguir ( ولعله وادي البقر )، كانوا يعرفون من طرف بربر الداخل تحت اسم أهل رأس هرك.

## المقطع IX

بعد تجاوز رأس المذرات الثلاث، نتغلغل داخل الحفرة الكبيرة التي شكلها هذا الأخير بالشرق، وشكلها رأس سبتة أو رأس Monte del Acho بالغرب، وهو ما يمثل كل الشاطئ المتوسطي للمغرب.

أول الأمر نجد الكدية Al cudia التي تذكرها الخرائط القديمة، والتي يصعب جدا تحديد موقعها. والملاحظ أن بُودانْ Baudin نفسه، والذي عرض في كتابه "ملاح البحر الأبيض المتوسط " أسماء كل الأحواض والشواطئ والرؤوس التي يمكن مصادفتها غرب رأس المذرات الثلاث، لا يذكر هذا المكان [12].

---

[11] - *Description géographique de l'empire du Maroc*, p.323.

[12] - Tramontana, Pajaros, Pino, Quemadas, Huertas, Pueloto, Geort, Castillo, Zera, Tuque, Illiquin, Rio quirat, Abdun, Nuftis, etc...

يقول بُودَانْ : « **خلف الرأس ترتفع البلاد من خلال هضاب متباعدة، أما على الساحل فلا نرى سوى شاطئا عاريا، تنتشر عبره بعض الثلجان من الرمل أو الأمكنة المنزبة** ».

وتعني Al Cudia باللغة العربية، الأرض أو القدرة على الحكم [13]. وفي تصورنا، فإن المؤلف المجهول لخريطة مكتبة بنِيلي Pinelli وهو نفسه من ألّف Arcadia de tres forcat، يعتبر الشخص الوحيد الذي فهم مدلول هذه الكلمة. وعلى ما يبدو، فإن لفظة Al Cudia لم تكن، سواء في الأطلس الكطلاني أو في الخرائط الإيطالية، تنطبق على حوض أو خليج أو رأس ما، ولكن على إقليم كرط Ghâret برمته، وهو الإقليم الواقع بين ملوية ونهر نكور. ونحن نجد هذه التسمية لدى مُوِّيتْ Mouette، كما نجدها بخريطة بْرَايْت وَيْتْ Braithwaite. إن الموقع المحدد للكدية Al Cudia من طرف الوثائق الهيدروغرافية للقرون الوسطى، يتطابق تقريبا مع الموقع الذي تشغله زِيرا Zera في خريطة فَنْسَنْدُون دي مولان Vincendon Demoulin بتاريخ 1855.

## المقطع X

يشير كل من الأطلس الكطلاني لفِريرْ Ferrer، وبعض الخرائط البحرية الإيطالية، بعد ذلك إلى طرف كرط Tarf quirat ( Tarf Kert ) ورأس تْرَامَنْتَانَا Tramountana أو رأس ريح الشمال كما يدعوه الإسبان، وإلى Sestiaria Akra المذكور من طرف بطليموس [14]. ويستمد طَرَفْ كَرْطْ اسمه من نهر صغير محاذ له. كما نجد عند مصب هذا النهر خليجا صغيرا دعاه النقيب غُوتْيي Gautier بـ Cala quiert [15]. وهو يحمل نفس اسم الرأس الوارد في الـ Derrotero لطُوفينيو Tofiño. ويمكن لمراكب المنطقة اللجوء إليه للاحتماء من الرياح الشمالية الشرقية، حيث ترسو على مسافة اثني عشر باعا من العمق.

بالمقابل، فإن خريطة فِسْكُونْتِي Visconti ، وخريطة مكتبة بنِيلي Pinelli لا تشيران إلى طرف كرط هذا.

## المقطع XI

وهناك خليجان صغيران آخران، تمت الإشارة إليهما من طرف بُودَانْ Baudin قرب رأس المذرات الثلاث، وهما خليج نُوفْتِسْ Nuftis (Fetis)، وخليج تِمُمْسَانْ أو تِمْنَاسِمْ Temumsan

---

[13] – تدعى أركاديا Arcadia في التقويمات القديمة. وقد تعني Al Cudia الكدية أو الربوة (المترجم).

[14] – تدعى Pointe Negri من طرف فنسندون دي مولان Vincendon Dumoulin.

[15] – الخريطة الهيدروغرافية للبحر البيض المتوسط، 1820.

(Temenasim)، كما سماه في مسلكه البحري حول الساحل الشمالي للمغرب. أما خليج نوفتيس (Nuftis) فلم يأت على ذكره (*).

إن ميناء تمسامان، يقول البكري، يقع على نهر Boguer [ وادي البقر ] (**)، على بعد عشرين ميلا شرق نكور. وهو بمثابة مرفأ لا يفتح إلا في الصيف، وحتى في هذا الفصل، يكون الرسو به غير آمن. وقبالته، على الساحل الإسباني، يوجد ميناء ألميريا Almeria.

## المقطع XII

إن رأس كيلاتيس Quilatis أو Caladas، أو رأس القصب Promontorium Cannarum المذكور في مسالك أنطونان لاحقا، قد تم رسمه على كل الخرائط القديمة التي أعطته اسم طرف كرط tarf Gharet [16]، وهي تسمية مصدرها عربي بدون شك.

وتشير الهيدروغرافيا الحديثة إلى وجود شريط من الصخور بالشمال الغربي من الرأس يمتد على مسافة ميل. ونعتقد بأنه من الأفضل أن نموقع هنا، هذا الشريط المكون من صخور محاذية للبحر، والذي كان الرومان يطلقون عليه اسم Taenia Longa، بدل أن نموقعه أبعد من ذلك، باتجاه الغرب، كما فعل مانيرت Mannert.

ويشكل رأس كيلاتيس الطرف الشرقي لخليج المزمة أو الحسيمة [ Al Hucemas ] كما يكتبها الإسبان، وهو الخليج الذي يحدد بودان عمقه بحوالي فرسخ. وتعتبر الأراضي من جهتي الخليج وعرة ولا نبات فيها، إلا أنها تنحدر باتجاه الوسط وتنتهي في السفح بسهل جميل وبنهرين [17] تعتبر شواطئهما متعة للناظرين. ويمكن الرسو بالخليج بكل طمأنينة إذا ما كانت الرياح تهب من البر، ذلك أن القعر جيد ويصل عمقه في كل الجهات إلى خمس أو ست أمتار. لكن إذا ما هبت الرياح البحرية، فيجدر على سبيل الاحتياط الابتعاد بسرعة، إذ من الممكن ألا نقدر على مقاومة عنف البحر. وهناك

---

(*) – أشار البكري إلى أدار أوفتيس الواقع بتمسامان، (المترجم).

(**) – لعله يقصد وادي البقر، أو اغزار اكندوز، أحد روافد واد أمقران بقبيلة تمسامان والذي أورده البكري.

(16) – يشير رونو Renou إلى أن لفظة طرف تتضمن عدة معاني في اللغة العربية، لكنها تنطبق على الكاب أو الرأس في الغالب، ونجد اللفظة مستخدمة بالساحل الإسباني. ويبدو أن اسم Trafalgar، وبالرغم من مختلف الاشتقاقات التي اقترحت بصدده، هو بدون جدل، طرف الغار الذي نقله الإسبان حسب طريقتهم المعهودة وحولوه إلى Tarfalgar.

(17) – واد نكور ونهر عيش Aïch [غيس].

رأس قليل الارتفاع يدعى Morro Nuevo أو رأس El Cancil [ قنت الزيت ] أشارت إليه الخرائط البحرية للقرون الوسطى دون تسميته، وهو الرأس الذي يشكل خليج المزمة جهة الغرب.

## المقطع XIII

وبين الرأسين، نكتشف ست جزر صغيرة تدعى Albouzaines كما ورد في دليل الخرائط البحرية لسنة 1669 [18]، أو Sex insulae بالنسبة للرومانيين. وفوق إحدى هذه الصخور، وعلى بعد ميلين من Morro Nuevo يظهر السياج المحصن للحسيمة [ حجرة نكور] والذي يرجع أصله إلى سنة 1673.

وقبل بضع سنوات من هذا التاريخ، حصلت شركة فرنسية من المولى رشيد عاهل المغرب، على رخصة تأسيس منشأة تجارية بالساحل الريفي، واختارت خليج المزمة لإقامة مخازنها. ولسوء الحظ، فإن العملية ستتكشف بشكل مبكر مما دفع بالإسبان إلى المناورة بفعالية، واستتبع ذلك سحب الرخصة الممنوحة للتجار الفرنسيين. ولقطع الطريق أمام كل محاولة جديدة، أمر القصر بمدريد باحتلال إحدى جزر الخليج [19].

لا يتعدى محيط الصخرة التي تجثم الحسيمة [ Al Hucemas أو حجرة نكور] فوقها الكيلومترين، ويصعب بلوغها من جهتي الشمال والشرق. أما بالغرب، فقد تم وضع بطاريتي مدفع تطلان على الشاطئ وعلى القرى المجاورة إلى حدود نهر نكور. أما بالجنوب حيث يوجد مرفأ لسفن النقل، فهناك ثلاثة شوارع تتوفر على جدارين تم تلبيسهما بمواد متينة للبناء. وبداخل الساحة، يوجد قصر محصن بأربع أبراج ذات شكل أسطواني. وتضم الحامية 120 رجلا بمعية 100 من المساجين أو Presidiarios [20].

ويُجمع الماء المستهلك من طرف السكان، جزئيا في فصل الأمطار. كما يُجلب جزئيا من الساحل الإسباني، ويحتفظ به داخل ثلاث خزانات كبيرة تم تشييدها قديما. ويكتسب الماء في أيام قليلة، حسب ما يقال، كل الخصائص الجيدة المميزة للماء الشروب.

---

[18] – يقول الدليل : « **يمكن للسفن أن ترسو وسط الجزر** ».

[19] - **Roland Fréjus**, *Relation d'un voyage en Afrique*, 1670.

لقد ادعى الإسبان بأن هذه الجزيرة تعود إليهم، لأن الشريف عبد الله تخلى لهم عنها سنة 1560 لمنع أتراك الجزائر من الاستقرار بها. وحسب تقرير مَاديز Madez فإن الإسبان تسلموها بتاريخ 28 غشت 1673.

[20] - **Fr. Cœllo** et **Madoz**, *Mapa de los possessiones de Africa*, 1850.

ولا تتوفر Al Hucemas [ حجرة نكور] على أي شكل من أشكال التواصل مع المناطق المجاورة. فهي بمثابة سجن، سواء بالنسبة للجنود المكلفين بحراستها، أو بالنسبة للأشخاص المبعدين إليها.

وتوجد المدينة العربية التي أعطت اسمها لخليج المزمة على بعد خمسة أميال من البحر بجوار نهر نكور، الذي سماه بْلِينْ Pline ب : Flumen Land ، والذي كانت السفن في عهده تجتازه صعودا [21].

وقد ذكرت المدينة من طرف كل واضعي الخرائط القدامى، لكن بَاتِيسْتَا أنيري Batista Agneri هو الوحيد الذي أشار إلى وجود النهر.

وفي القرون الوسطى، تحدث الجغرافيون العرب عن المزمة [*]، باعتبارها مدينة غنية يرتادها التجار القاطنون بالجهة الأخرى من بحر الروم، كما أقروا بتوفر متاجرها على كل الأشياء الضرورية للعيش. وتتمثل السلع الأساسية لتجارة التصدير في الصوف والحبوب (الشعير والقمح).

وخلف رأس El Cancil [ قنت الزيت ] [**] يتغير مظهر الساحل ويرتفع، ولا يقدم نفس التسنُّنات الضيقة والعميقة، حيث يبدو وكأنه شُقَّ ليكون شديد الانحدار.

وفي منتصف الطريق بين المزمة وبادس Bâdis، يشير الإدريسي إلى وجود بُوزْكُور Bouzekour دون تعيين لموقعها. وهذه النقطة الواردة في الخرائط البحرية القديمة تحت اسم Busencor، سيُعاد تحديدها تحت اسم Bousikou [***] في خريطة حوض البحر الأبيض المتوسط

---

[21] - Flumen Land, ipsorum navigiorum capax.

أطلق عليه بطليموس اسم تَلُودَا Thaluda. ويفصل واد نكور منطقة كرط عن منطقة الريف. وهذا الاسم الأخير الذي كان لا ينطبق في القرن العاشر إلا على المنطقة الجبلية الواقعة بين واد نكور وتطوان، أصبح يشمل كل الجزء الممتد على الساحل الإفريقي من هذه المدينة إلى ملوية. ولفظة " الريف " بربرية، وتستعمل للإشارة إلى كل المنطقة المجانبة للبحر. وقد لاحظ رُونو Renou بأن الكلمة مشابهة تقريبا، على مستوى الصوت والدلالة، للكلمتين الفرنسيتين : Rive, Rivage، وللكلمة اللاتينية " Ripa ".

(*) – يبدو أن الأمر قد اختلط على الكاتب، فمدينة نكور هي التي كانت تقع على نهر نكور على بعد 5 أميال من الشط. في حين أن مرسى المزمة أو مدينة المزمة، فكانت على الساحل المقابل لصخرة نكور. (هيئة تحرير المجلة)

(**) – يطلق اسم قنت الزيت قديما على موضع ميناء مدينة الحسيمة الحالية التي تبعد عن حجرة نكور Peñon de Al Hucemas بحوالي 10 كلم بحريا. (هيئة تحرير المجلة)

(***) – ما زال هذا الاسم يطلق على أحد مداشر ساحل بقوية، على بعد بضع كيلومترات غرب مدينة الحسيمة. (هيئة تحرير المجلة)

لسنة 1843. ففي هذا الموقع، نجد رأسا بمعية خليج، إلا أن هذا الأخير يشكل خطرا على السفن بما في ذلك المراكب الصغيرة.

## المقطع XIV

على مسافة بعيدة شيئا ما، يظهر رأس بابا Baba أو رأس تمنصور Tamensour [ رَأْسْ تَمْزُورْتْ ] (*)المتشكل من مرتفعات ترابية، مليئة بالمنعرجات الشديدة الانحدار.

وبعد تجاوز هذا الرأس نكتشف جزيرة Peñon [ حجرة بادس ] البعيدة بمسافة نصف فرسخ عن هذا الأخير. وفي أسفل الخليج نجد مدينة بادس Bâdis الصغيرة، أو Velez de la Gomera كما يسميها الإسبان.

لقد كانت بادس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر محطة تجارية مشهورة، وكانت تعتبر بمثابة ميناء فاس على البحر البيض المتوسط. وبالفعل، فإنها كانت أقرب نقطة نزول بالنسبة لمنطقة الريف برمتها. ويخبرنا لِيُونْ الإفريقي بأن تجار البندقية قد زاروا بادس. وكان الأسطول التجاري الذي يؤمن التواصل مع السواحل الإفريقية يرسو مرة كل سنتين وراء Peñon [حجرة بادس ]، حيث يتم الإعلان عن قدومه مسبقا. وفي اليوم المحدد، كان أهالي القبائل العربية يهرعون إلى بادس للقيام بالمبادلات التجارية مع التجار المسيحيين. ويتحدث البكري وأبي الفداء عن أسواق بادس المزودة بالتموينات بشكل جيد ودائم : « **هذه المدينة المشهورة من بين كل مدن منطقة غمارة** » [22] والتي أحصي بها أكثر من مائة منزل في مِلك اليهود.

---

(*) – لعل الكاتب يقصد الرأس البحري المسمى محليا " أَرَّاسْ – نْ – تَمْزُورْتْ "، ربما تشبيها له بضفيرة، كأنها تتدلى من أعلى المرتفع الجبلي، حيث ما زالت توجد بقايا أسوار الطاحونة الهوائية، وآثار المطامير الحجرية التي يربو عددها عن العشرين، كما وقفنا على ذلك، ميدانيا، أثناء إحدى رحلاتنا إلى عين المكان. (هيئة التحرير).

[22] – " غمارة " هو الاسم الذي كان يطلق في القرون الوسطى على أقاليم الريف، وكرط التي كان يقطنها " غمارة ". وتمثل هذه الأخيرة واحدة من بين العائلات الخمس الكبرى والأصلية المشكلة للأمة البربرية. « **إن بلاد غمارة، يقول ابن خلدون، تمتد طولا على مدى خمسة أيام مشيا، من نهر ملوية حتى طنجة، وعرضا على مدى خمسة أيام كذلك، من البحر إلى السهول المجاورة لنهر ورغة. وباتباعنا لهذه الوجهة، نلتقي تباعا، مجموعة من السلاسل الجبلية العالية المشكلة لحواجز مرتفعة على مدى ساحل البحر والتي لا يمكن للطيور أن تبلغ قممها. وبين هذه القمم، تتفتح ممرات تحتوي على مراعي وأراضي مزروعة وأماكن ظليلة شبيهة بالبساتين** »

*Histoire des Berbères*, T.II, p.134

لقد رسمت بادس على كل الخرائط البحرية القديمة، بل إن بَاتِيستَا أَنْيِيزِي رسم النهر الصغير الذي يجري أسفل الخليج. وحسب غْرَابِرْغْ Grâberg وفْرِدِيكْ لاكَرْوَا F. Lacroix وغُودَارْ Godard، فإن المدينة العربية قد حلت محل بَارْيِيتِينَا Parietina القديمة. ويبدو لنا هذا الترادف محتملا.

## المقطع XV

يروي سْوَاريثْ مُونتانِسْ Surez Montanes بأن ملك البرتغال عمل سنة 1499 على تشييد حصن بمكان يدعى القلعة Kala، على مسافة صغيرة غرب بادس، وذلك بغرض مراقبة حركات قراصنة هذه المدينة وكبح جماحهم. ونظرا لصعوبة تموين هذا المركز، وهو الأمر الذي سيتم الاعتراف به مباشرة، سيأمر بتفكيك ما تم بناؤه، وستنسحب الحامية التي كانت تحتل القصر إلى مدينة سبتة [23].

وفي سنة 1508، غادر الكونت بِدْرُو نفارو Pedro Navaro، أميرال الأسطول البحري الإسباني، مالقة لمطاردة بعض السفن القادمة من بادس، والتي ظهرت أمام السواحل الأندلسية. وقد هاجمها واستولى على ثلاثة منها، ولاحق السفن المتبقية حتى دخلت ميناءها.

وللتخلص نهائيا من هؤلاء القرصان الجرئين، قرر بناء قلعة على البِنْيُونْ Peñon [ صخرة بادس ] قبالة مدينة بادس، وذلك للسيطرة على هذه الأخيرة كلية.

يقول مَارْمُولْ : « **بعد أن أخذ الإذن من الملك فرديناند الكاثوليكي، شيد على الجزيرة برجا من الكلس والرمل، وأحاطه بوسائل دفاعية، ووضع فوقه خمسة مدافع ثقيلة. كما كان الأمر معمولا به آنذاك، ونصب ثلاثين جنديا تحت قيادة ضابط يدعى فِيالوبوس** VillaLobos، **وزودهم بالمؤن والذخائر الضرورية** ».

وقد حاول سكان بادس استرجاع البِنْيُونْ Peñon الذي أدى احتلاله من طرف الإسبان إلى جعل مسألة رسو السفن مستحيلة، ولم يعد يسمح بتشييد السفن الشراعية والمراكب التي تجوب البحر الأبيض المتوسط.

ومهما يكن، فإن الحامية لم تكن تجد أدنى غضاضة في إطلاق نيران مدفعيتها على المدينة، حينما كان يحصل التباطؤ في إمدادها بالمؤن التي تحتاجها. وقد طلب المولى المنصور، حاكم بادس،

---

[23] - *En el año de 1499, hisieron los portugueses un castillo o torreon en un sitio cercano de Velez de la Gomera que los Moros de aquella costa nombran Calaa, el qual dexaron despues en el año de 1504.*

*Historia de Africa*, p.708. *Manuscrits de la bibliothèque du secrétariat général du gouvernement*, C. VII, n°.1.

مساعدة ملك فاس. وبالفعل، أرسل هذا الأخير ألفين من جنود المشاة مدعمين بالمدفعية، وحاصر البِنْيُونْ Peñon، وقصفه بالمدافع من المرتفعين المجاورين وهما : رأس بابا ورأس أُرْيُو غُومِيرَانُو Arroyo Gomerano. غير أن الإسبانيين قاوموا الحصار بشدة، وقتلوا عددا كبيرا من الجنود، بما فيهم الجنود الخمسة المكلفين بالمدفعية، مما دفع المنصور إلى التخلي عن مشروعه.

وقد كان حظ الحاكم أفضل، سنوات فيما بعد. حيث لجأ إلى الحيلة، مدركا بأنه من المستحيل الاستيلاء على البِنْيُون peñon بالقوة. «**كان القائد الإسباني يتوفر على نقيصتين، إن لم تستوجبا الشجب بنفس الدرجة، فقد كانت نتائجهما، دوما تقريبا، على نفس الدرجة من السوء : لقد كان يعشق المال والنساء**». فقد كان الحاكم على علم ببخل فِيَّالُوبُوسْ VillaLobos، لذا فإنه سيبعث إليه بمغربيين يزعمان بأن لديهما معرفة بتحويل المعادن وصنع نقود مزيفة. وبعد معاينته لتجربة أولى تكللت بالنجاح، قبِل القائد استضافتهما، وهيأ لهما جناحا في مسكنه، حيث شرع الرجلان بالاشتغال على التو. وتم الاتفاق على أن يروجا النقود المزيفة بالبلد، على أساس أن تقتسم الأرباح مع القائد.

وتحت ذريعة صرف النقود، كان المغربيان يتجهان إلى بادس، ويرويان للحاكم كل ما يجري بالقلعة. وقد استمر الأمر على هذا الحال مدة شهر دون أن يحصل أي تقدم، إلى أن منحت خيانة جندي إسباني سبق لفِيَّالُوبُوسْ أن أغوى زوجته، لكل من المنصور وعميليه، الفرصة التي طال انتظارها. هكذا سيحصل الاتفاق مع الجندي الذي كان ينتظر على أحر من الجمر مناسبة الانتقام من الإهانة الموجهة إليه. وكان الجندي قد أحس بالمشروع الخفي لصانعي النقود المزيفة، فوعد الحاكم، الذي كان بدوره على علم بالمؤامرة، بتقديم يد المساعدة للمتآمرين.

وفي إحدى الليالي، وبعد أن نجح الجندي في إبعاد زملائه، تمكن المغربيان اللذان كانا يتجولان مع فِيَّالُوبُوسْ على سطح القلعة، من قتل هذا الأخير. ومباشرة بعد نزولهما من السطح، أقاما الحواجز على باب القصر الذي تخزن به المؤن، وأشعلا نارا هائلة لإعلام المنصور. وكان هذا الأخير على أهبة الهجوم، حيث بادر بالاستيلاء على البِنْيُون peñon [ حجرة بادس ] دون أية مقاومة تذكر من طرف الجنود الذين قتلوا عن آخرهم. وقد وقع الحادث بتاريخ 10 دجنبر 1521 [24].

بعد ثلاث سنوات من الحادث، قام الإسبان بمحاولة لاسترجاع حجرة بادس. فقد أعلم مدفعي مسيحي ظل أسيرا بالقلعة، وربما كان هو نفس الجندي الذي ساعد الحاكم على الاستيلاء عليها، أعلم سرا الماركيز دي مُنْدِخَارْ marquis de Mondejar النقيب العام لمملكة غرناطة، بالقدوم ليلا إلى

---

[24] - **Marmol, Suarez, Montanes, Minana.**

المدينة على متن بعض السفن، واعدا إياه بتوجيه فوهات المدافع إلى أعلى بحيث لن يشعر المهاجمون بأي إزعاج، وسيتمكنون من السطو على القصر بعد تسلق الأسوار، وهناك سينتظرون المساعدة القادمة من المدينة.

وقد طاف الماركيز دي مندخار بأسطوله بجوار بادس، منتظرا الليل للاقتراب من الخليج. لكن خبر دنُوّه من الساحل كان قد شاع بالمدينة، حيث سارع المغاربة بتقوية خطوط المواجهة بحامية الجزيرة، وهو ما أدى إلى إلغاء الهجوم المبيَّت.

وفي سنة 1554، حصل الباشا صلاح رايس Reïs الذي أعاد ملك فاس أبا حَسُّون [الوطاسي] إلى عرشه، على حجرة بادس التي تنازل له عنها هذا الأخير اعترافا بالجميل. وقد احتفظ بها الجزائريون مدة عشر سنوات. وفي سنة 1563، حاول الإسبان استرجاع هذا المركز الهام، لكن محاولتهم باءت بالفشل. وكان تأثير هذا الفشل حادا في الأوساط الإسبانية، وهو ما دفع الملك فيليب الثاني، وبفعل توسلات ممالك أراغون Aragon وفلانسيا Valence وكطالونيا Catalogne، إلى محاصرة وكْرِ القراصنة هذا مرة ثانية، هذا الوكر الذي كان سببا في إفلاس التجارة الإسبانية. وسيحشد أسطولا مكونا من تسعين سفينة شراعية وحربية، وكلف بقيادته د. غارسيا دي طوليدو D. Garcia de Tolède، ممثل الملك بصقلية.

وبمجرد شيوع أول خبر عن هذا التعزيز العسكري، سارع الأتراك بتحصين كل المواقع التي يحتلونها على الساحل [ المغربي ]، حيث سيرتفع عدد الرجال الموجودين بحامية حجرة بادس من 50، كما اقتضت العادة إلى 150 رجلا.

وبتاريخ 2 شتنبر 1564، سار الجنود، مباشرة بعد نزولهم من السفن قرب برج القلعة، باتجاه مدينة بادس التي تم الاستيلاء عليها دون مقاومة، لأن كل سكانها هربوا إلى الجبال، حاملين معهم كل ما هو نفيس. وعلى الفور جُهّزت المدفعية على الأرض ووُضعت عدة بطاريات لقصف حجرة بادس.

في البداية، أظهر الأتراك رباطة جأش في عملية الدفاع، لكن المدفعية المسيحية التي هدمت جزءا هاما من الأسوار، وفككت ثلاث قطع من آلياتهم، جعلتهم يفقدون كل أمل في إمكانية حماية أنفسهم مدة أطول، وهو ما اضطرهم إلى التخلي ليلا عن الحجرة .

وفي اليوم الموالي، أي بتاريخ 6 شتنبر، استولى الإسبان على هذا الموقع الذي فتحت أبوابه من طرف بعض الجنود الذين لم يتمكنوا من الهرب مع رفاقهم. ومنذ تلك الفترة، وإلى حد الآن، ظلت هذه القلعة تحت سيطرة الإسبان، رغم أنهم لا يجنون أية فائدة من هذه السيطرة. أما مدينة

بادس، فإنها اليوم مهجورة، وهي التي لعبت كما رأينا، دورا تجاريا هاما في القرنين الخامس والسادس عشر.

## المقطع XVI

تنفصل صخرة بادس ( peñon ) الشديدة الانحدار والتي تحيط بها مياه البحر من كل جهة، عن campo del Moro المقابل لها على البر، وذلك بواسطة مضيق يبلغ اتساعه حوالي أربع مائة متر. وفي الطرف الأقصى من الممر، توجد قلعة صغيرة شيدت على رصيف صخري تربطه بالجزيرة الأساسية قنطرة طبيعية، لم تنل منها يد الإسبان، وعلى سطح القلعة توجد بضعة مدافع. إن مدينة البنيون peñon [حجرة بادس] كما يسميها الإسبان، والمبنية على شكل مدرج، لا تتوفر إلا على زقاقين يمكن الصعود إليهما بواسطة طريق ضيقة، تسمح بمرور شخص واحد فقط.

وبولوجنا باب البْرَادِيرُو El Bradero المزودة بحاجز حديدي قوي والمحمية من جهة شارع تْرِينِدَادْ Trinidad، نجد مخازن الأسلحة والمؤونة بموقعي سَانْ فْرَانْسِيسْكُو وسَانْ أنْطُونْيُو المعزولين. ويستخدم هذا الموقع الأخير لأولئك الذين صدرت في حقهم الأحكام. أما الحفرة المحيطة به، فتفصله عن حي جنود المدفعية الموجود بالأسفل، هذا الحي الذي لا يتم بلوغه إلا بواسطة جسر متحرك وباب من الحديد. بعد ذلك، تبرز ساحة صغيرة وكنيسة شيدت إكراما لحدث حمل العذراء، ثم شوارع سَانْ مِيغِيلْ وسَانْ خُولْيَانُو والمستشفى ومنزل الحاكم الذي يقع بأعلى مكان بحجرة بادس (peñon).

وتبعث كل المؤن من مالقة، لأن الpeñon ، مثله في ذلك مثل الحسيمة [Peñon de Al Hucemas] لا يتوفر على منابع، ولا تكفي مياه الأمطار للاستهلاك المحلي. لذا كان من اللازم جلب المياه من إسبانيا عندما تجف الصهاريج.

وتضم الحامية ثلاث مائة رجل من بينهم مائتين وخمسين سجينا. أما السكان المدنيون، فإنهم غير متواجدين بهذا الموقع تقريبا.

## المقطع XVII

على بعد ستة أميال من بادس ( 10 كيلومترات )، نجد شرم يلِيشْ أو Ielles إرِيسْ Iris المذكور من طرف كل الوثائق المائية القديمة. وقد ذكره الأطلس الكطلاني والخرائط البحرية الجنْوية Genois تحت اسم Ellis. أما خريطة بِيزَا، فعينته تحت اسم إرِيسْ Eres [25].

---

[25] من المحتمل أن تكون يلِّيشْ Ielles هي التسمية العربية، وإرِيسْ Iris هي التسمية الإسبانية.

ولا يعتبر ميناء بادس آمنا، لأن السفن لا يمكن أن ترسو فيه لمدة طويلة. ومهما تنوعت الفصول، فبعد إنزال حمولتها، تعود غالبا إلى يليش Ielles. وهذه الأخيرة هي مجرد قرية بئيسة يقطنها بعض الصيادين، ولا تكتسي أهمية إلا بفضل مينائها، لأن الرسو فيها جيد والاحتماء ملائم.

وعلى مدخل الخليج، توجد جزيرة تدعى جزيرة بني بوفراس Beni bou Fras (*) وقد حدد رونو Renou موقع يليش خطأ، بين بادس والمزمة، مثله في ذلك مثل مارمول Marmol.

وراء يليش، يبدأ الساحل المنحدر باستمرار، في الصعود باتجاه الشمال. وقد أشار فِسْكُونْتي Visconti، وكذلك خريطة مكتبة بِنيلّي Pinelli، إلى وجود أماكن لتجميع الملح. غير أن الخريطة البحرية لفِرّيرْ Ferrer، وكذلك خريطة باتيستا، لا تشيران إليها. ذلك أن سبخة مُسْطاسة Sebkhat Mostasa تزود كل المنطقة الريفية بالملح، بما في ذلك منطقة طنجة. وتنتج الناحية المحيطة بمسطاسة أيضا، الشعير الذي يشتريه مغاربة تطوان، من أجل بيعه بعد ذلك للتجار الإسبانيين. وكانت مسطاسة أو بالأحرى Mechtaça مِشْطَاسَة في زمن البكري، عبارة عن قلعة استمدت اسمها من القبيلة البربرية التي كانت تقطنها. وقد وجد لها كل من غْرَابِرْغْ Grâberg وغُودَارْ Godard مرادفا في مدينة أكْرَاثْ Acrath القديمة المذكورة من طرف بطليموس.

بعد السبخة المذكورة من طرف فيسكونتي، تشير بعض الخرائط إلى وجود رأس أعطته اسم Saltessa أو Saltas. ويتطابق الموقع الذي حدد له مع موقع برج الصيادين [26] والمسمى بـ promontorium barbari في مسالك أنْطُونَانْ، وربَّما كان هو رأس أشجار الزيتون البرية Promontorium oleastrum الوارد في ألواح بطليموس.

وقد جاء في الدليل البحري لسنة 1669 ما يلي : «**في قصر الصيادين، هناك مقر للسفن الصغيرة مع وجود رياح شرقية**». ومن هذه النقطة إلى مصب نهر تطوان، لا نرى سوى شاطئا ممتدا، عاريا بدون أي مخبأ. ووراء الشريط الساحلي، تظهر الجبال العالية التي تبدو وكأنها تكبر تدريجيا كلما تم التوغل داخل البلاد.

## المقطع XVIII

بعد ذلك، يذكر لنا الأطلس الكطلاني وخريطة بَاتِيسْتَا أنْيِيزِي اسم arga أو تَارْغَا Terga، والذي لا يمكن أن يكون سوى قِصَرْ تازقا Ksar Taska المذكور من طرف الإدريسي رغم اختلاف

(*) – لعله يقصد بني بوفراح (المترجم).

(26) Torre y pueblo de los pescadores, de la carte de Tofiño.

التحديد الموقعي. فبَاتِيستَا يشير إلى وجود نهر صغير يسميه شِرْشْ Cherche قريبا من هذا الموقع، جهة الغرب « **حيث يمكن الاستحمام** » [27]. وهذا النهر غير مرسوم على الخريطة البحرية لفريز Ferrer. ويشير كل من ليون الإفريقي ومارمول إلى تارغا Targa التي كانت في زمنهما تعرف رواجا للسمك المملح. فالشلّوحْ [28] أو بربر الداخل، غالبا ما كانوا يلجأون إليها لتجديد تزودهم بالسمك : « **حسب بعض التأكيدات، كان الصيد بنواحي تارغا** Targa **من الوفرة** -يقول مارمول- **إلى الحد الذي كان يسمح فيه بتزويد نصف مملكة فاس بالسمك** ». أما فِيسْكُونْتِي فلم يكن يعرف تارغا، لكنه يشير إلى النهر المسمى Cherche، مثله في ذلك مثل أنْيِيزِي [29]، وهو واد قِرقَال Kerkäl الذي ذكره الإدريسي و Rio de Alamos الوارد بالخرائط الإسبانية [30]. وعلى مصب هذا النهر، أشار مَانِيرْتْ Mannert إلى خط الصخور الذي كان يسميه الرومان Tœnia Longer، لكنه كان مخطئا كما رأينا، وقد ارتكب فْرِيدِرِيكْ لاَكْرُوَا نفس الخطأ [31].

## المقطع XIX

يبدو أن تارغا كانت تكتسي بعض الأهمية في القرن السادس عشر لأن البرتغاليين قاموا بمحاولات عديدة للاستيلاء عليها أو لتدميرها. ففي سنة 1493 حشد دُونْ فِرْنَانْدْ دِي مِنْسِيسْ Don Fernand de Menses، حاكم سبتة، كل القوات التي كانت بحوزته، وذلك بعد علمه بأن تارغا غير محروسة بما فيه الكفاية. وتقدم بدون سابق إنذار أمام المدينة، حيث استولى عليها بشكل مفاجئ، وأوقع أكثر من ثلاث مائة شخص في الأسر، وأحرق خمسا وعشرين سفينة ما بين كبيرة وصغيرة بالميناء.

---

[27] – *الدليل البحري لسنة 1669*، وهذه التسمية البربرية لتارغا معروفة في بلاد البربر، وتعني النهر.

[28] – يشير اسم الشلوح في امبراطورية المغرب إلى السكان القاطنين بالجبال، واسم البربر إلى السكان الذين يعيشون بالسهول وتحت الخيام على طريقة العرب. وفي الجزائر وتونس يسمى السكان قبايل Kabaïls وجبالي Djebalis إي رجال القبائل والجبال.

[29] - Cercelly dans la carte pisane.

[30] – نعته **فنسدون دي مولان** بنهر تارسا Tarsa، غير أن اسم قرقال سيوجد مرة أخرى بخريطة النقيب **غوتيي** الهيدروغرافية. لكن الموقع الذي سيحدده هذا الأخير للنهر غير دقيق، فهو وضعه خطأ بين فليز Velez ومُسطاسة.

[31] – خريطة إفريقيا تحت الاحتلال الروماني والتي تم وضعها من طرف النقيب **نَاوْ دي شَامْبْلُوي** Nau de Champlouis سنة 1864 انطلاقا من أعمال **فريديريك لاكروا**.

وتضيف الأخبار التاريخية بأن نبأ هذا النصر السعيد، ساهم كثيرا في التخفيف من ألَم الملك د. خوَان D. Guan الناتج عن وفاة ابنه الوحيد الأمير د. ألفونسو D. Alfonso، إثر سقوطه من على صهوة جواده.

وفي سنة 1502، أرسل الملك إيمَانوِيلْ Emmanuel أسطوله باتجاه تارغا، مع أمر الاستيلاء على المدينة. لكن السكان وجنود الحامية دافعوا عنها بضراوة، مما أجبر البرتغاليين عن العدول عن مشروعهم.

وأخيرا، قام نفس الملك في سنة 1517، بتسليح قواته من جديد، مستخدما ستين سفينة حربية وعددا من جنود المدفعية والمشاة، وكلف د. دْييغُو دِي سْكُوِيرَا D. Diego de Squeyra بالاستيلاء على تارغا.

وكان هذا الأخير مطالبا بضم قواته إلى قوات د. بيدرو دي منسيس حاكم سبتة. وبالفعل، خرج الرجلان من هذه المدينة باتجاه تارغا، لكن أثناء الطريق إليها، وقع سوء تفاهم بينهما : حيث زعم سكويرا بأن قيادة الحملة أوكلت إليه، في حين رفض منسيس الاعتراف له بالقيادة. وبذلك عاد الجيش إلى سبتة دون أن يقوم بأي شيء يذكر.

ويخبرنا مارمول، الذي لم يتحدث عن هذه الحملات البرتغالية المتعددة، بأن د. ألفَارْ دِي بَازَانْ D. Alvar de Bazan قائد السفن الشراعية الإسبانية خرب سنة 1533 مدينة تارغا بأمر من الإمبراطور شارل الخامس Charles-Quint. وفي سنة 1568 حاول د. جْوَانْ النمسا D. Juan d'Autriche أيضا الاستيلاء عليها، لكنه لم ينجح في مهمته [32].

وكان الشريف عبد الله قد عزز التحصينات، سنوات من قبل « **هيئ ثم، بأعلى نقطة بالمدينة، من جهة الجنوب، بناء قصر يتضمن حامية جيدة بخمسين قطعة مدفع وأربع راجمات للحجر وست وأربعين بندقية بالكلاليب** ».

## المقطع XX

بين نهر الحور Peupliers ورأس تطوان، رسمت خرائط فنسندون دي مولان، ورونو، عدة أماكن عالية أو رؤوس. ولعل التضاريس الأكثر بروزا هي تلك التي تحمل اسم نقطة مَازَارِي

(32) ـ مصدر هذه المعلومة هو **سواريث منطانيس** Suarez Montanes ، لكنه سيرتكب خطأ، حينما سيضيف، بأن تارغا لم تخرب ولم يستول عليها المسيحيون. [Targa nunca ganado de cristianos ni saqueado dellos].

Mazari. ونعتقد بأن هذا الرأس هو نفسه الذي رسمته خرائط كل من فِسْكُونْتِي وفِرِيرْ بعد نهر Cherche وأعطته اسم نَتَاغُورَا Natagora أو Netagala [33].

وخلف الرأس يوجد حوض يمكن للسفن أن تحتمي به مؤقتا. وحسب غْرَابِرْغْ، فإن نقطة مازاري هي Aquila Minor المذكورة من طرف مسالك أنطونان [34].

## المقطع XXI

بعد ذلك نجد رأس Tarfonoli، وهو رأس تطاون المذكور من طرف الجغرافيين المعاصرين و Aquila Major الذي ذكره الرومان. وتشير الخرائط البحرية إلى الرأس وحده دون تحديد للمدينة ولمصب النهر. ولا يمكن تفسير هذا النسيان من طرف واضعي الخرائط في العصور الوسطى، إلا بكون تطوان لم تعد مركزا للتجارة في تلك المرحلة [35].

ويشكل نهر تطاون، وهو واد مَارْتِيلْ أو مَارْتِينْ [36] أو flumen Tamuda المذكور من طرف بُمْبونْيُوسْ مِيلاَ Pomponius Mela وبْلِينْ، خليجين صغيرين عند مصبه وهما : ميناء نيكرو Negro وميناء إيمو Emo. ولا يمكن للسفن الرُّسُو بهما إلا عندما تكون الرياح غربية. وهي الرياح التي تهب عادة على الساحل.

أما عندما تهب من جهة الشرق، فمن اللازم الإقلاع مباشرة، لأن هذه الرياح القوية تؤدي إلى هيجان بحري في الميناء، يجعل وضعية السفن به، صعبة وخطيرة، لأن قعره المكون أساسا من رمال متحركة، يتغير مع التموجات ولا يقدم أية مقاومة تذكر.

---

(33) – ذكره **بانيستا أنييزي** تحت اسم Notegal ، أما خريطة مكتبة بنيلّي فذكرته تحت اسم Netigara.

(34) – إن كل الساحل الممتد من نهر ملوية إلى سبتة، وكما يلاحظ **رونو** بحقّ، غير معروف تقريبا. كما أن الجغرافيا القديمة هي نفسها غير مؤكدة. وتقدم لنا المسالك البحرية لكل من **البكري** و**الإدريسي** بعض التحديدات. كما أننا نجد تحديدات أخرى في الخرائط البحرية القديمة، ولدى **مارمول**، لكنها غير متطابقة. وحتى الخرائط الحديثة نفسها تظل ناقصة. لذا نفهم كيف أن "عُدّة" بهذا النقص، لن تسمح في أحسن الأحوال إلا بموضَعة مختلف النقط على الساحل بطريقة تقريبية.

(35) – على طول الساحل، لم يكن التجار المسيحيون في القرنين 14 و15 يترددون إلا على أسواق سبتة. ولأن هذه المدينة أصبحت محتلة من طرف الإسبان، فإن تطوان ستحل محلها كمخزن بحري للتجارة مع الداخل.

(36) – وهو الاسم الذي أعطاه السكان لمبنى الديوانة، ويشيرون بهذا الاسم إلى النهر الذي يعرف أيضا بنهر الأنقليس Anguilles. وقد كان يدعى في زمن **البكري** نهر مْحَاقْسَة Mh'aksa أو واد رَاسْنْ Râcen. وحسب رواية **الإدريسي** فإن سكان تطوان كانوا مجاكسة. ولا يعرف **مارمول** أي من هذه الأسماء، ويتحدث عن النهر تحت اسم واد كُوسْ.

وبإمكان المراكب الصغيرة اختراق النهر والصعود حتى الديوانة على بعد ثلاث كيلومترات من مصبه حيث تشحن البضائع أو تفرغها.

ورغم أن منسوب مياه واد مارتيل يقل أحيانا، إلا أن حده لا ينزل أبدا عن مترين.

وهناك قلعة مربعة الشكل، مبنية بطريقة جيدة ومسلحة ب 12 قطعة مدفع، وضعت على قاعدة مرتفعة عن الأرض بأربعة أمتار لدرء خطر السطو عن طريق التسلق ولحماية مدخل النهر.

وتعتبر هذه النقطة كمرسى ممتاز يمكن اقتناء المؤونة به بثمن مناسب، كما نجد به أيضا الماء الشروب[37] . وقد توقف نِلْسُونْ Nelson سنة 1798 أكثر من شهر بخليج تطوان عندما تلقى الأمر بالاتجاه إلى مصر[38].

لقد شيدت مدينة تطوان الواقعة على بعد ست كيلومترات من البحر، على جانب من جوانب سلسلة الأطلس (*) الممدة بشكل متواز مع الساحل. ويقال بأنها قديمة جدا. لكن لا يعرف أي شيء عن تاريخها. كما يعتقد بأنها بنيت على أنقاض Jagath المذكورة من طرف بطليموس، والتي يجهل موقعها على أية حال.

وفي رواية لمارمول، فإن أسطول ملك قشتالة هنري الثالث، سيدمرها عن آخرها سنة 1400، وسيأسر كل سكانها، بحيث ستظل المدينة خالية من السكان على مدى تسعين سنة، حتى تاريخ طرد العرب من إسبانيا، حيث سيعيد الغرناطيون إعمارها. وبعد استقرارهم بها نهائيا، سينتشرون على الحدود مع سبتة والقصر وطنجة «**وسيناوشون البرتغاليين والإسبانيين بنجاح، في البر والبحر، حيث سيتم نتيجة ذلك إحصاء ثلاثة آلاف أسير مسيحي بتطوان**».

وفي سنة 1520، نصح حاكم سبتة، ملك البرتغال إيمانويل، ببناء قلعة على مصب النهر، باعتبارها أنجع وسيلة للحد من التدهور الناتج عن مناوشات الغرناطيين. وقد وافق الملك على هذا المشروع، وسلم ثمان سفن حربية بقيادة دون بِدْرُو دِي مَسْكَرِينَاسْ D. Pedro de Mascarenhas. ولدى وصول هذا الأخير إلى سبتة، توجه ناحية تطوان في مهمة استكشافية، حيث تمكن من ضبط المكان المناسب لبناء القلعة، ورجع إثر ذلك إلى لشبونة لتقديم تقرير للملك حول مهمته. ويبدو أن اهتمامات أخرى منعت الملك إيمانويل من متابعة المشروع، لأن مؤرخي تلك المرحلة لم يعيدوا الحديث عن هذا الموضوع.

---

(37) - *Annales maritimes*, 1844, T. I. – *Ann. Hydrogr.* T. 19.

(38) - **G. Jackson**, *an account of the empire of Morocco*, 1811.

(*) – لعله يقصد بسلسلة الأطلس، سلسلة جبال الريف. (هيئة تحرير المجلة).

بعد الاستيلاء على حجرة بادس، Peñon de Velez ، سنة 1564، اتجه دُونْ غَارْسْيَا دِي طُولِيدُو بأسطوله إلى مصب واد مارتين. لقد كان يبتغي التشويش على استقرار الغرناطيين بالميناء، مثله في ذلك مثل ملك البرتغال. وبما أن فصل الشتاء كان على الأبواب، فإنه اضطر للعودة إلى مالقة بخفي حنين. ولأن فيليب الثاني أعطى أوامره بتدمير ميناء تطوان بأي ثمن، فإن ألْفَارْ دِي بَازَانْ Alvar de Bazan سيرجع في السنة الموالية، وسيعمل على سد النهر، مستعينا بمراكب كبيرة وفرقاطتين، رغم محاولة القراصنة منعه من القيام بذلك. وكانت تلك المراكب مليئة بالأحجار وتم استقدامها من جبل طارق. غير أن نجاح العملية لم يدم طويلا. فبعد ذهاب الإسبانيين، تمكن السكان من سحب الفرقاطتين، وعمل التيار المائي فيما بعد على فتح ممر آخر من جهة الشمال : «**إذ باستعمال المجاديف من الجانبين، يقول مارمول، يمكن لسفينة شراعية المرور بسهولة**».

بعد استعادتهم لحرية التصرف في مينائهم، عاود الغرناطيون من جديد مناوشة سواحل البرتغال والأندلس. وقد كانوا يرفضون آنذاك، الاعتراف بسلطة ملك فاس والمغرب. لكنهم اضطروا سنة 1567 للخضوع إلى هذه السلطة، نتيجة خلافات وقعت بين سكان المدينة، مكنت الشريف عبد الله من إحكام السيطرة عليها. وعلى أية حال، فإن فقدان الحرية لم يكن سببا في إفلاس تطوان، بل على العكس من ذلك، رفع من شأنها.

ويخبرنا دَافِيتِي D'Avity بأن مدينة الموريسكيين Mudechares [37] المحاطة بأسوار منيعة والمتوفرة على قصر يطل عليها، كانت تشمل في السنوات الأولى من القرن السابع عشر على 800 من أحسن المنازل بإفريقيا، كما أن قراصنتها كانوا يخترقون البحر بشجاعة، إلى درجة الافتخار بقدرتهم على إحباط هجمات العالم المسيحي برمته. وكانت بحرية تطوان تتألف آنذاك من 15 إلى 20 سفينة شراعية تتضمن ما بين 8 إلى 12 مجدافا، بحيث أن خمس إلى ست سفن كانت تطوف كل شهر بمضيق جبل طارق.

وفي ذات الوقت الذي كان فيه سكان تطوان يخوضون حربا طاحنة ضد الإسبان والبرتغاليين، أعداءهم التقليديين، كانت أسواق مدينتهم مفتوحة أمام الدول الأوربية الأخرى. فقد كان الإنجليز والهولنديون والجِنْوِيُّون وتجار البندقية يقيمون معهم معاملات تجارية متواصلة. وكان ينظر إلى الهولنديين بالخصوص، نظرة تقدير بالبلاد، نظرا لحربهم ضد الإسبانيين في تلك الفترة. واليوم، لم يعد للقراصنة وجود بتطوان، وإذا ما حاول سكانها القيام بالجولات البحرية التي كانت لهم في

[37] – لقد كان لفظ Mudechares هو الاسم الذي أطلقه عرب إفريقيا على المغاربة الوافدين من مملكتي قشتالة و غرناطة. أما الوافدين من مملكة فلانسيا فكانوا يعرفون بTagartins.

السابق، فإن ذلك لن يكون في صالحهم. غير أن المدينة ظلت مركزا تجاريا أساسيا بالنسبة للأقاليم المتوسطية للإمبراطورية المغربية [38].

## المقطع XXI

سنستعير الوصف التالي لمدينة تطوان من مذكرة غير منشورة لنقيب أركان الجيش بُورسيل Pourcel، المكلف بمهمة في المغرب سنة 1845 [39]. وقد جاء فيها ما يلي :

**« تظهر تطوان على شكل مضلع غير متناسق الجنبات، ينتشر على مدى خمسة أمتار تقريبا. وهو محمي في كل جنباته بسور متوفر على شرفات وأبراج دائرية أو مربعة ناتئة. ويتراوح علو السور ما بين ثلاثة إلى أربعة أمتار، وعرضه لا يقل عن قدمين. وتوجد على مختلف الجوانب ثلاث قلع معززة باثني عشر إلى ثمانية عشرة مدفعا. وفي أعلى نقطة من المدينة باتجاه الغرب، تقوم القصبة بسياجها المتميز. كما أن البرج المشيد خارج الأسوار والذي يحمي البساتين من نفس الجهة، يتمم النظام الدفاعي للمدينة.**

**إن سكان المدينة يحافظون بعناية على هذه التحصينات، وذلك للاحتماء من جيرانهم، وللخاصية الجريئة المميزة للقبائل البربرية القاطنة بالجبال، التي تستند عليها المدينة. لكن هذه الوقاية الفعالة ضد الجبليين المغاربة، تظل غير كافية أمام القوى الأوربية المدعمة بالمدافع. فبوضع بعض قطع المدفعية على الهضبة المطلة على القصبة من الغرب، يمكن إسكات نيران المدفعية والاستيلاء عليها بسهولة. وتعتبر تطوان إحدى أهم المدن التجارية بالمغرب، ويرجع ذلك إلى موقعها قبالة جبل طارق، وإلى سكانها الوديعين، المجدين، وإلى صناعتها وخصوبة أرضها. وأخيرا إلى مجاورتها لقبائل كثيرة محيطة بها من الشرق والجنوب والغرب. وهي بمثابة المخزن التجاري على البحر الأبيض المتوسط بالنسبة للمدن الداخلية الكبرى، كفاس ومكناس ومراكش. ويحتكر فيها الإنجليز، بشكل ما، تجارة التصدير، فقد كانت هي البوابة الرئيسية التي يصرفون عبرها منتوجاتهم بالداخل** [40].

---

[38] – أو الغرب. « **فليست هناك**، يقول رونو، **تسمية محددة للمغرب بين الأهالي. أما في الجزائر فيدعى الغرب** El Gharb **الأقصى**».

[39] - *Archives du secrétariat général du gouvernement* , Politique, C. XX, n°.3 – Le capitaine Pourcel est aujourd'hui général de division.

[40] – كان القناصلة يستقرون بتطوان من قبل. وفي سنة 1770 أمرهم الشريف سيدي محمد بالإقامة بطنجة. ويرجع اتخاذ هذا القرار إلى موت موريسكية عجوز بسبب طلقة نار طائشة من بندقية إنجليزي. ولا تمثل القوى الأوربية اليوم في تطوان إلا من طرف ممثلين للقنصلية مختارين من طرف اليهود المحليين. وتحتفظ إنجلترا بمفردها بنائب قنصل إنجليزي.

**أما فرنسا فقد كانت ترسل إلى تطوان، الأجواخ والحديد والصلب والحرير، وكذلك الديباج أو النسيج المزركش بخيوط الذهب والفضة المستخدم من طرف اليهود، وبعض العقاقير أيضا. وتستورد إنجلترا الحبوب ( الشعير والقمح ) والصمغ والجلود المدبوغة والشمع والصوف المغسول والجلود المستحضرة، والأدوات الجلدية والحصائر والزرابي وبعض الغرائب المصنوعة بكل من فاس ومكناس وتطوان. وتقوم هذه الأخيرة أيضا، بتزويد حامية جبل طارق بالأبقار والأغنام والفواكه الجيدة. أما فرنسا فتستورد الصوف الذي يرشم بالشمع والشمع الأصفر والعلق والعسل والجلود المدبوغة واللوز والعنب.**

**وقد احتكر السلطان تجارة الحديد والدباغة والعلق الذي يصدر منه الشيء الكثير إلى أوربا، وبالخصوص إلى مرسيليا. وكان الاستغلال السنوي للدباغة والعلق يدر على الخزينة الإمبراطورية لوحده ست مائة ألف فرنك** [41].

**وتتميز أراضي تطوان بالخصوبة وبوفرة نباتها المشهور في كل أنحاء المغرب. وحول المدينة، حتى المنحدرات الأولى للجبل، لا تجد سوى البساتين الغناء وحدائق البرتقال الرائعة والفواكه من كل الأنواع. وتجري وسطها، تحت قباب من الخضرة، مياه وافرة وعذبة دوما. ويعتبر محصول الفواكه وافرا، بحيث يتم تصدير أكبر جزء منه إلى سبتة وجبل طارق. أما العنب فيشترى من طرف اليهود كي يصنعوا منه خمرا** [42]. **ويصنع بتطوان عدد لا بأس به من البنادق والخناجر المسماة ريفية، والنعال ومنتوجات الدوم والمنتجات الجلدية والأثاث المنزلي المصبوغ** [43] **والخزف الملون الذي يتمتع بسمعة طيبة في البلاد».**

وحسب النقيب بورسيل Pourcel، فإن عدد سكان تطوان يتراوح ما بين 30 إلى 35 ألف نسمة. ولكن هذا الرقم غير دقيق، إذ أن عددهم لا يتجاوز ما بين 15 إلى 20 ألف نسمة على أكثر تقدير. بل إن رونو يحدده في 12 ألف نسمة فقط، مؤلفين من مغاربة عرب وبربر وإسرائليين. وهؤلاء يشكلون ثلث ساكنة المدينة.

---

(41) – تتراوح قيمة المعاملات التجارية بتطوان في مجموعها ما بين خمسة إلى ستة ملايين فرنكا.

(42) – حسب رواية ليون الإفريقي ومارمول، فإن بربر جبال الريف، كانوا يشربون الخمرة بكثرة «**تلك الخمرة البيضاء الصافية**»، بل إن بعض الأولياء أنفسهم كانوا يشربونها خفية إلى حد الثمالة.

(43) – « **كان صانعو الأثاث المنزلي بتطوان، يتميزون ببراعتهم في تشكيل وصباغة الرفوف والمشاجب والطاولات الواطئة والمطعمة المستعملة لتناول الشاي. فقد كانوا يثبتون على الخشب أوراقا مذهبة ويزينونه بألوان براقة لا تتغير. وتشكل أرابيسكات وتقويسات وأحجام هذا الأثاث، تماثلا تاما مع أحسن نماذج الهندسة الموريسكية**».

L. Godard, *Histoire et description du Maroc*, p. 199.

## المقطع XXIII

نعلم أن عدد اليهود كبير بإمبراطورية المغرب، رغم الاحتقار والمضايقات التي يتعرضون لها. فهم يقطنون أساسا بالمدن [44]، وينحدرون في غالبيتهم من الإسرائليين المطرودين من أوربا عبر مختلف مراحل القرون الوسطى. أما يهود تطوان وطنجة، فإنهم منحدرون من إسبانيا، ويسمون أنفسهم ذرية منفيي قشتالة (Guerouch Castilla)، بل إنهم يحيون كل سنة أياما للحداد في ذكرى الاضطهادات التي كان آباؤهم ضحية لها.

وكما يقول شَارْلْ دِيذِي Charles Didier : « **فإن اليهود في المغرب يتم التسامح معهم أكثر مما يتم قبولهم** »، لكنهم سيؤدون ثمن هذا التسامح بشكل باهض. ولأنهم يحتملون كشيء ضروري لكنه مزعج، فإن معاملتهم ستكون حسب ما تقتضيه هذه الضرورة وذلك الإزعاج. فهم يرزؤون تحت وطأة الضرائب، إذ لا يتم إلزامهم بأداء جزية سنوية هائلة فحسب، بل يجب عليهم تقديم مساهمات طارئة بخصوص كل ما يعملونه وكل ما يبيعونه. ويمنع عليهم لباس الأحنية « **باستثناء أولئك القريبين عادة من الملك ومن علية الناس** ». أما باقي اليهود فيلبسون نعالا من الأسل Jonc، يضطرون لنزعها عشرين مرة في اليوم، أثناء مرورهم أمام المسجد والزوايا ومنازل الأشراف. وإذا ما قصروا في هذا الواجب فلن يتم التقصير في ضربهم بالعصا. ويرتدي اليهود ألبسة سوداء، بنية أو بنفسجية، هي ألوان محتقرة من طرف المغاربة، كما لا يسمح لهم بارتداء الألبسة البيضاء. وعندما يغادرون منازلهم، فإنهم يرتدون جبة بدون أكمام « **شبيهة بجبة قدام الكنائس** »، وتستعمل هذه الجبة كمعطف يوضع عادة فوق سرتهم وسروالهم الشبيه بسروال الإسبانيين والذي يصل إلى منتصف الساقين.

وعادة ما تكون قبعتهم سوداء بزر صغير من فوق، وهي مختلفة عن قبعة المغاربة الحمراء (الطربوش) المرتفعة أكثر فوق الرأس والتي لا تتوفر على أي زر. ويغطى الرأس بمنديل من نفس لون القبعة وتربطه بهذه الأخيرة عقدة واحدة.

ولا يمكن لليهود مغادرة البلاد بدون إذن خاص من السلطان الشريف. كما لا يمكنهم حرث الأرض أو امتلاك قطع أرضية ومنازل خارج الحي الذي يقطنونه. ولا يمكنهم أيضا المزايدة في السوق على مغربي فيما يتعلق بالمواد الغذائية. ويجب عليهم حمل موتاهم إلى المقبرة جريا، وتلافي

---

[44] – توجد بعض القبائل اليهودية بجبال الأطلس، ويبدو أنها تعيش بدون مشاكل إلى جانب القبائل البربرية الأخرى التي لا تضطهدها، على عكس ما يحصل بالمدن من سوء معاملة اليهود.

ملاقاة موكب جنائزي مسلم. وعلى اليهودي ألا يقترب من مسلم يرتوي من منبع ماء، وإذا ما تجرأ بالجلوس إلى جانبه، فسيتعرض لعقاب شديد.

ولا يسمح لليهود بالقراءة والكتابة بالعربية، لأنهم غير جديرين بسماع القرآن المقدس. ويجب عليهم المشي على أقدامهم داخل المدينة، لكن بإمكانهم الركوب على الحمير والبغال حينما يذهبون إلى البادية. أما بالنسبة لاستعمال الفرس، فهو محرم عليهم بشكل قاطع، لأن هذا الحيوان أشرف منهم.

ويلزم اليهود بدفن جثث المجرمين وبشنق المغاربة المحكوم عليهم بالإعدام. ولأتفه الأسباب تجلد نساؤهم بالساحة العمومية من طرف العريفة، وهي عجوز مسلمة مختصة بهذه المهمة.

ويعسكرون في حي معزول وهو الملاح، أي الأرض المالحة والملعونة، حيث يحتجزون بداخله ليلا، وفي أيام الأعياد الإسلامية الدينية، ويخضعون لإمرة شيخ يهودي مكلف بالبت في القضايا العدلية، وتوزيع الضرائب والغرامات وتحصيلها. وهذا الشيخ المختار من طرف اليهود أنفسهم، يخضع لقائد معين من طرف الشريف.

# القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ (1856-1898) •

د. محمد أونيى

*«كانت الملوك العلويون ينظرون إلى الريف بعيون الإجلال من قديم، لكون الريف في نظرهم السياسي محل رباط المجاهدين المدافعين عن حمى الإيالة الشريفة من ناحيتيه حتى كان السلطان مولانا الحسن يؤدي من ذخائر الملك الذعائر التي يطلبها الإسبان من الريفيين فيما يوقعونه به برا وبحرا...»*

***محمد أزرقان، الظل الوريف (مخطوط)، ص.5***

من بين المواضيع الشائكة التي يصادفها الباحث في التاريخ البحري المغربي المعاصر ، قضية ما يسمى ب " القرصنة الريفية "، تلك القرصنة التي مر على آخر وقائعها قرابة قرن من الزمن. ومع ذلك فكل أحداثها وعللها لم يتم بعد إخراجها من دياجير الظلام والإبهام إلى دائرة الضوء والوضوح. بل الأكثر من ذلك ، يبدو أن هذه الظاهرة ظلت – في مجملها – يتنازعها خطابان رئيسيان :

– خطاب أجنبي يعتبر أن هذا النشاط البحري الذي ظهر في سواحل الريف المغربي ما هو إلا لصوصية بحرية سافرة ، كان يمارسها أناس "متوحشون" هدفهم النهب والفتك بالأجانب، وبالتالي فإن أصل البلاء كله يعود إلى المغاربة وحدهم.

– وخطاب أخر وطني إسلامي مزدوج، يعتبر التيار الأول منه أن المسألة هي مجرد أطروحة مزيفة قامت الإسطوغرافيا الكولونيالية بحبكها قصد تشويه حقيقة هذه الحركة البحرية التي هي في عمقها امتدادا للجهاد البحري الإسلامي ضد الغارات المسيحية، أما التيار الثاني من هذا الخطاب الوطني، الإسلامي، فيمكن أن نميز داخله أيضا بين موقفين، أولهما يرتبط ببعض الكتابات المغربية التقليدية التي تكاد تعيد إنتاج نفس الأوصاف والنعوت المفتراة على الريف والريفيين، شأنها في ذلك شأن الكتابات الاستعمارية، وثاني الموقفين، يمثله اتجاه تاريخي مغربي جديد من أبرز رواده الفقيد الدكتور جرمان عياش.

---

• نص المداخلة التي ألقيناها في ندوة علمية دولية نظمت بمدينة سلا أيام 30، 31 ماي، و1، 2 يونيو 1997 في موضوع " *الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي* ". وقد نشر هذا المقال في مجلة البحث العلمي عدد 45 السنة الإحدى والثلاثون، 1998، ص.ص 65-82. كما نشر بالفرنسية في مجلة Maroc – Europe ، عدد 11، 1998/1997، ص.ص 283-306.

أجل ، إن الحفريات المعرفية التي قام بها أصحاب الموقف الأخير ، كشفت عن حقائق سيظل يدين لها كل من يعيد مسألة " القرصنة الريفية ". ومع ذلك فتلك الحقائق والانتقادات لا تنطبق إلا على فترة محددة ، فضلا على أنها ترجع ، في نهاية المطاف، مسؤولية كل ما جرى في سواحل الريف أواخر القرن الماضي إلى الأوربيين أنفسهم، الأمر الذي يجعل هذا الموقف الأخير غير بعيد عن إطار تبادل التهم وتفنيد الدعاية الأجنبية بدعاية مضادة .

ومهما يكن تقييمنا لهذا الاتجاه، فإنه يجب أن نعترف بأنه وفر تراكما معرفيا أضحى يشكل، إلى جانب ما توفره المستندات والوثائق الوطنية والأجنبية، رصيدا مرجعيا لا يستهان به، يسمح لنا استثماره التمييز بين الأسطوري والواقعي في موضوع القرصنة الريفية. لذا نرى أنه من الأنسب فحص هذه القرصنة على مدى زمني يشمل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى يتسنى لنا الوقوف على أسبابها ومنعطفاتها، وبالتالي استجلاء الخلفيات التاريخية التي تحكمت في مسارها.

وانسجاما مع هذه الفرضية نقترح سنة 1856م كمحطة بارزة في صيرورة الجهاد البحري في السواحل المغربية الشمالية لأسباب شتى سنعود إلى أهمها بعد حين. أما اعتبار 1898 كنهاية لتاريخ " القرصنة الريفية " فلها أيضا مبرراتها وعلى رأسها جرد المخزن لحملة تأديبية ضد بَقِّيوَة التي تنسب إليها أعمال القرصنة الشهيرة.

## 1. التآمر الأجنبي ضد الجهاد البحري في الريف :

يجمع الدارسون، مغاربة وأجانب، على أن الأسطول الجهادي المغربي قد دخل في طور الاضمحلال والتلاشي منذ سنة 1855 [1]. وحينما اندلعت حرب تطوان بين المغرب وإسبانيا سنة 1859، كان هذا الأسطول معطلا تقريبا [2].

بيد أن الجهاد البحري " الشعبي" إن صح التعبير، قد تواصل بعد ذلك لمدة طويلة في ساحل الريف المغربي، وبدعم ضمني أو علني من السلطة المركزية أول الأمر. دعم بذلت، القوى الأوربية المتهافتة والمتنافسة على بلادنا أشد تنافس، كل ما في وسعها لإبعاده حينما مارست ضغوطات على المخزن ليتخلى عن مساعدة رعاياه المجاهدين واعتبارهم كقراصنة خارجين عن طاعته.

---

(1) - **عبد الإله الفاسي** ، *" إطلالة على النشاط البحري في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859)"* ، مجلة الثقافة المغربية، ع.5 ، يناير – فبراير 1992 ، ص. 12.

(2) - نفسه.

وفي هذا الإطار تبرز إنجلترا كبلد له اليد الطولى في سياسة فك الارتباط بين مجاهدي الريف والمخزن الشريف. ففي عام 1856 ، وبينما كان القنصل الإنجليزي السير "جون دراموند هاي " Sir John Drummond Hay منهمكا في إعداد مشروع الاتفاقية التجارية مع المغرب، كانت القوارب الجهادية بالريف لا تزال تقف حجر عثرة أمام السفن الأوربية، وتؤرق بشكل خاص الملاحة البريطانية. وذلك على الرغم من الشكايات المتكررة التي ما فتئت الدبلوماسية الإنجليزية ترفعها إلى مقام السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) تطالب فيها بإنزال العقاب بقبائل الريف، ودفع التعويضات عن الخسائر التي تلحقها بالسفن الأوربية المارة بسواحلها أو التي تضطر إلى التوقف بها.

ونظرا لاقتناع "هاي" بعدم جدوى اللجوء إلى استخدام القوة ضد الريفيين – كما أثبتت ذلك السفينة الحربية الإنجليزية "جَانُوس" عندما قامت سنة 1851 ب « **رحلة تأديبية على طول ساحل الريف** » [3] – ونظرا، كذلك، لسياسة التنصل وربح الوقت التي نهجها المولى عبد الرحمان إزاء المطالب البريطانية، فقد قرر "هاي" « **في أبريل عام 1856 القيام برحلة ليتحدث بنفسه مع زعماء قبائل القرصنة معتمدا في ذلك على إجادته للعربية العامية ومصطحبا معه الحاج عبد الله العمارتي أحد أصدقائه من أشراف الريف.** »[4]

يورد "هاي" في مذكراته [5] أنه تمكن فعلا من الاجتماع بكبار قلعية وبالأخص منهم زعماء (إمغارن) قبيلة آيث بوغافر المعنية بالأمر، وذلك بفضل وساطة المرابط محمد أحضري من قبيلة آيث سعيد المجاورة، وكذلك بفضل تفهم الحاكم العسكري لمليلية ومساعدته. كما يروي أنه لم يرجع من رحلته الشاقة إلى الريف الشرقي إلا بعد ما حصل « **من زعماء الريف على وعد بوقف أعمال القرصنة.** »[6]. ومع ذلك، فإن مجاهدي قلعية الذين تنعتهم الكتابات الأجنبية بالقراصنة، أبوا إلا أن يختتموا نشاطهم البحري بعملية جهادية أخيرة في ذلك العهد إذ « **ما لبثوا أن أوقعوا بالسفينة التجارية البريطانية "فَيْمَنْ" في 14 ماي عام 1856.** »[7]

---

(3) – **ب. ج. روجرز** ، *تاريخ العلاقات الإنجليزية – المغربية حتى عام 1900* ، ترجمة ودراسة وتعليق د. يونان لبيب رزق ، ط.1 ، 1981، الدار البيضاء، ص.214.

(4) – نفسه، ص.221 ؛ انظر كذلك :
L. A. **BROOKS**, *A Memoir of Sir John Drummond HAY*, London, 1896, p. 148.

(5) – نفسه ، ص. 147 وما يليها.

(6) – **روجرز**، *تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية*، م. س. ص.221.

(7) – نفسه.

وعندما عاودت بريطانيا احتجاجها ضد قوارب أهل الريف وطالبت من سلطانهم المولى عبد الرحمان بن هشام تقديم التعويضات عن الخسائر لحساب مُلاك سفينة "هيمن"، فإن السلطان الذي كان على وشك الموافقة على توقيع الاتفاقية التجارية مع بريطانيا، لم يكن بوده إلا أن يرسل، في شهر يونيو، حاكم طنجة سيدي محمد بن عبد الملك على رأس حملة عسكرية لتأديب أهالي قلعية، وأن يقدم، فضلا عن ذلك، تعويضات عن الخسائر الناجمة عن تعرضهم للسفينة المذكورة.[8]

على أن إنجلترا لم تكن الدولة الوحيدة التي خططت لإلغاء الجهاد البحري بالسواحل الريفية، بل ساهمت في هذا التآمر أيضا القوى المنافسة لها سواء قبل أو بعد 1856. ففرنسا مثلا، والتي كانت السباقة إلى إعلان حرب مباغتة على المغرب في معركة إيسلي (غشت 1844)، ستزداد علاقتها توترا مع المخزن بسبب الهجوم البحري الذي شنه أهالي قلعية عام 1855 على إحدى سفنها تدعى "Jeune Dieppoise" [9]. هذا الحدث البحري دفع القنصل الفرنسي بطنجة إلى أن يطلب من المخزن المغربي منع رواج " الفلايك الريفية " إلا بإذن خاص ممثل في جواز السفر في البحر. بيد أن السلطان المولى عبد الرحمان الذي كان لا يزال يشجع الجهاد البحري في الثغور الشمالية من البلاد قبل 1856 رفض الاقتراح المذكور رفضا باتا حيث أجاب النائب الفرنسي بما يلي :

**«...وما ذكرت في شأن فلايك أهل الريف، فإنا لا نحدث ما لم يكن في القديم ولا نبتدعه. كما لا نترك ما كان فيه ولا ندعه. فقلائكهم دائما إنما تسافر في سواحل البحر وتتردد فيما بين بلادهم ولا يتعدونها، ومن بلادهم إلى نطوان لا غير، ولا يخرجون من تحت رعايتنا فلا يحتاجون إلى باسْبُورْط لعدم احتياجهم إليه في الماضي.»**[10]

أما بخصوص إسبانيا التي كانت القبائل الريفية تقف لها بالمرصاد على طول الخط، فقد حاولت أن تستغل الموقف المُتَلَيِّن الذي أظهره المولى عبد الرحمان تجاه المطالب البريطانية، وذلك بالسعي إلى الحصول على امتيازات مماثلة، بل والتعنت في مواقفها الرامية إلى رفع الحصار المضروب على الجيوب التي تحتلها بشمال المغرب. وهكذا، ففي سنة 1857 ، حصلت حادثة بين أهل الريف والإسبان ترتب عنها خلاف عويص بسبب مشكلة الأسرى المحتجزين من كلا الطرفين. ولما رفعت القضية إلى بلاط المولى عبد الرحمان، بادر إلى المرابط السعيدي محمد

---

[8] – نفسه، ص.222 ؛ وكذلك الرسالة التي أوردها الكاتب الإسباني " الطبجي"، الاسم المستعار ل "مالدونلدو" :
**ET-TABYI**, *Retazos de Historia Marroquí* , Tetuan, 1955, p.165.

[9] – نفسه، ص.160.

[10] – رسالة أوردها د. عبد العزيز التمسماني خلوق، " *العلاقات المغربية الإسبانية في عهد المولى عبد الرحمان بن هشام، مشاكل " القرصنة " الريفية مثالا* "، الملحق الثقافي لجريدة العلم، السبت 25 جدنبر 1993، ص.4.

أحضري بتاريخ 12 دجنبر 1858، يخبره بأنه سيرد على الريف القائد علي بن عبد القادر قادما من طنجة على رأس قوات مخزنية، وحاملا معه رسالة موجهة إلى أعيان قلعية تخص بالأساس مسألة الأسرى المحتجزين، كما ينهي السلطان في خطابه إلى علم المرابط المذكور، أن اتفاقا بشأن هذه القضية قد أبرم بين الجانبين المغربي والإسباني. وعليه، يتعين على الإسبان إطلاق سراح الريفيين المحتجزين بمليلية، وكذا إرجاع قواربهم بحمولتها. كما يتوجب على المغاربة من جهة أخرى تحرير الإسبان المعتقلين وتسليمهم إلى مبعوث السلطان القائد علي الآنف الذكر[11].

بعد حرب تطوان، ستسعى إسبانيا إلى استغلال انتصارها كي تفرض مزيدا من الشروط القاسية على المغرب مستغلة المعاهدة التي أبرمتها معه يوم 26 أبريل 1860، ثم الاتفاقية الثانية بتاريخ 20 نوفمبر 1861. فلقد تمكنت من إجبار المخزن على الموافقة، ولأول مرة، على مراقبة تحرك القوارب الريفية، وهذا ما يمكن استخلاصه من الفصل الخامس والعشرين من هذه الاتفاقية الأخيرة حيث نقرأ فيه ما يلي:

**« اتفق الطرفان المتعاهدان - اجتنابا لكل مضرة يمكن وقوعها من تحرك هر للقوارب الريفية - على أن لا يقوم رياس تلك القوارب أو ملاكها بأي سفر إلا بعد أن يحصلوا على رخصة من حكام المواقع الإسبانية بالبحر المتوسط أو من القناصل الإسبانيين إذا كانوا يسكنون في موانئ يقيم بها أولئك القناصل. وتعطاهم وثائق السفر في البحر مجانا ويستعملونها كرخص لسفر مشروع.»**[12]

ولنا أن نتصور مدى الإهانة التي شعر بها المجاهدون الذين سيضطرون، بناء على البند السابق، إلى مهادنة الحكام الإسبانيين المحتلين لسبتة ومليلية ثم الجزر المغربية المتوسطية إن هم أرادوا الحصول على الرخصة الجديدة التي تسمح لهم بالإبحار والاتجار. كما يمكن لنا اعتباره مكسبا يسمح لهؤلاء الحكام بتحويل النشاط التجاري لقوارب الريف وفق ما يخدم مصالحهم الخاصة، ويعاكس مصالح منافسيهم الفرنسيين انطلاقا من الجزائر، والإنجليز من جبل طارق. هذا فضلا عن التدخل لعرقلة الجهاد البحري ، ثم القضاء عليه لاحقا بهذه الجهة بصفة نهائية.

---

(11) - ET-TABYI, *Retazos* ... op. cit. p. 165.

(12) - مجلة الوثائق، مديرية الوثائق المغربية، ع.4، 1977، الرباط، ص.169.

## 2. السياسة البحرية للمولى الحسن الأول في الريف (1873-1894):

إذا كان أبرز حدث شهده الريف في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859-1873) يتمثل في تأسيس ديوانة مغربية بمليلية عام 1867، واستئناف عملية تصدير المأكولات إلى الحصون المحتلة من طرف إسبانيا بعد توقفها عقب حرب تطوان، فإن خلفه المولى الحسن الأول (1873-1894) قد نهج استراتيجية إدارية وبحرية جديدة في الجهة الشمالية. فمنذ 1875 لم يعد إقليم الريف، بالمفهوم الحصري، تابعا إداريا لعامل عام يعين من طرف السلطة المركزية على الشمال المغربي برمته، وإنما أصبح خاضعا للقواد والعمال المحليين، مع تخصيص إدالة (دورية عسكرية) مغربية لمداومة الحراسة في النقطة الحدودية المماسة لمليلية. في حين أنيطت مهمة ضبط الأوضاع العامة في باقي المناطق إلى قواد وعمال القبائل المعينين لهذا الغرض، إذ « **وما نصب العمال إلا لضبط القواعد وإحكام أزمة إيالتهم عن الخروج عنها**»[13]، كما جاء في رسالة سلطانية إلى أحد القواد المحليين.

إن الخطة التي انتهجها المولى الحسن الأول على الواجهة المتوسطية المغربية تدخل أساسا في إطار مكافحة التهريب والتسرب الأجنبي، وما ينشأ عنهما من مشاكل وشكاوي. وتحقيقا لهذه الغاية حافظ السلطان على الطريقة المألوفة عند القبائل المحلية في حماية سواحلها من خطر قد يأتيها من جهة البحر، وخاصة من القواعد التي تحتلها إسبانيا على بعد رمية حجر من الساحل المغربي.

أما تزويد تلك القواعد بالمؤن، كما جاء في الشروط المتفق عليها، فلم يكن المخزن يسمح به إلا انطلاقا من مراكز معلومة وموضوعة تحت الحراسة المغربية، وهي ثلاثة : ديوانة مليلية، والديوانتين القبليتين إحداهما بساحل نكور المقابل للصخرة التي تحمل نفس التسمية أي حجرة نكور، ويسميها الإسبان Peñón de AlHucemas ؛ والثانية بساحل بادس المواجهة كذلك لحجرة بادس التي يطلقون عليها Peñón de Velez de la Gomara.

ومع ذلك، فهذه المكتسبات اعتبرتها إسبانيا غير كافية لتحقيق مشاريعها الاستعمارية. لذا، ومباشرة بعد مؤتمر مدريد 1880، بادرت إلى شن حملة شعواء ضد سياسة المخزن في سواحله الشمالية قصد إفشالها، وذلك عبر زعزعة ثقة السلطان في ممثليه المحليين أولا، ثم بث التفرقة والفتنة في صفوف سكان القبائل ثانيا.

---

(13) - رسالة من السلطان الحسن الأول إلى القائد محمد أقشيش، 24 ربيع الأول عام 1299هجرية / 1882م، أوردها عبد الرحمان أقشيش، *وثائق قبيلة بني سعيد : تحقيق ودراسة*. بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية 1979-1980، ص.45.

وعلى ضوء هذا التوجه، تقدم السفير الإسباني إلى المخزن سنة 1881 بشكاية يمكن أن نستشف بعض مضامينها من خلال جواب السلطان لنائبه بطنجة محمد بركاش:«... **وصل كتابك بأن باشدور إسبانيا أعاد الشكاية بما قدمت الإعلام به لحضرتنا الشريفة من أضرار أهل الريف بأهل بادس والنكور ومليلية. وذكر أن السبب في ذلك هو خديمنا القائد زيان الورياغلي (...) وذكرت أنه يطلب قائدا على تلك النواحي مع ما يكفيه من الجيش...**»[14]. ثم تضيف الرسالة السلطانية أن أهل الريف سبقوا أن بعثوا إلى المخزن بشكايتهم قبل ورود الشكاية الإسبانية، حيث ذكروا أن الحكام الإسبان هم المسؤولون عن كل ما يحدث من النزاعات والاضطراب في هذه الجهة المغربية وغيرها. ثم أضافوا أن هؤلاء الحكام يشجعون الأهالي على ممارسة التهريب، وبالأخص المنتمين إلى قبيلتي آيث يطفت وبقيوة. ولما حاول القائد زيان الورياغلي منعهم من ذلك، تضيف الرسالة، اتهمه حاكم مليلية بخرق الشروط والإخلال بحسن الجوار. ثم يتابع السلطان كلامه بتقديم الأدلة التي تبرر ساحة القائد المذكور.

وردا على الطلب الإسباني المتعلق بضبط الحراسة الساحلية، أكد السلطان أن أمرها موكول إلى الجماعات القبلية المحلية والتي تقوم بها خير قيام، بحيث يتناوب عليها أبناؤها وفق نظام دقيق ومعروف لديهم. تقول الرسالة بالحرف : « **وعن المسة بأن تلك القبائل يفرضونها على أعظامهم، كل عظم يأتي بما يذوبه منها ويمكث بها أياما هناكم، ثم ينصرف ويخلفه آخر. وعلى هذا عملهم فيها** ...»[15]

وفي ختام الرسالة أبدى السلطان موافقته على مطلب آخر من مطالب السفير الإسباني، ويتعلق الأمر بتعيين قائد عسكري كبير من جيش المخزن على الريف خلفا للقائد السالف، مع تعزيز نفوذه بما يكفيه من الجنود، مضيفا أنه قد أصدر أوامره إلى أحد قواده بالعرائش كي يوجه العسكر المرابط هناك إلى ناحية الريف حيث سيحل بقصبة جنادة القريبة من مليلية، في انتظار ما ستتوصل إليه لجنة التحقيق التي أوفدها السلطان إلى عين المكان [16].

وفي نفس الفترة، قامت فرنسا من جهتها بنهج سياسة توسعية جديدة في المغرب ما بين 1879 و1881. فقد سارع الوزير الفرنسي الجديد " أورديغا Ordega " – على حد قول البروفسور جان لويس ميج J. L. MIEGE[17] – إلى الرفع من عدد المحميين الفرنسيين في المغرب، والوكلاء

(14) – **محمد نهليل**، مجموعة *رسائل مخزنية* (Lettres chérifiennes) ، باريس، 1955، رسالة رقم L. V.

(15) – نفسه.

(16) – نفسه.

(17) – **Jean -Louis MIEGE**, *Le Maroc et l'Europe*, T. IV, Paris, 1961-63, p. 35.

التجاريين أمثال " شافانياك Le Comte de CHAVAGNAC "، الذي حاول النزول ببادس في مطلع سنة 1884، لكن "عسة " بادس التابعة للمغرب كانت له بالمرصاد حيث منعته من النزول إلى البر[18]. ولقد أشاد السلطان بشجاعة القبائل التي قامت بهذا المجهود وألح عليها في مواصلة الحراسة والتحلي باليقظة. كما استنفر بقية القواد والعمال في سائر القبائل الساحلية الريفية، ناصحا وموبخا المتهاونين منهم في القيام بواجب مكافحة التهريب ومنع المراكب من ارتياد الأماكن المحظورة[19]. ومع ذلك، فإن ظاهرة التهريب لم يتم استئصالها كلية، بل استمرت قائمة هنا وهناك. ومن بين الوثائق الكثيرة التي يمكن للمرء أن يدلي بها في هذا المضمار النموذج الآتي :

« **خديمنا القائد مبارك الذوبلاني وبعد. فقد بلغ لعلمنا الشريف أن أهل مرسى تقيت ومرسى بادس بإيالتك اشتغلوا بإخراج " الكطربنض " [التهريب] منها من غير نكير عليهم وعليه فنأمرك بالضرب على أيديهم وصرفهم عنه، وإجراء الأحكام عليهم فيه حتى ينزجروا وإلا كانت عهدته عليك** ...»[20].

أما عن الأسباب التي قلصت من فعالية الحراسة الساحلية التي اتبعتها السلطة المركزية في الشمال، فإن الوثائق التي يمكن أن تسعفنا للكشف عنها فلا تعوزنا كذلك، ومعاينتها تسمح لنا بتتبع الكيفية التي ظلت إسبانيا منذ 1881 تطالب بها المخزن كي يستبدل العناصر المحلية التي تقوم بدور الحراسة البحرية بعناصر من الجيش المغربي. ويبدو أن ذلك قد تحقق تدريجيا، إذ في البداية أمر السلطان الحسن الأول قواده بتنظيم تلك الحراسة دون المس بجوهرها. وكمثال على ذلك، كتب إلى

---

[18] – رسالة من الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش عام 1301هجرية / 1884م، كناش رقم 162، ص. 343 ، الخزانة الحسنية، الرباط.

[19] – جاء في رسالة من السلطان الحسن الأول إلى القائد محمد بن أحمد الكبداني ما يلي : «...**وبعد، فقد بلغ لشريف علمنا أن البابورات وردت من وهران حاملة للمسلمين الذين كانوا يخدمون بالواسطة** [عمال موسميين]، **ورامت إنزالهم بمراسي بني شيكر وبني بوكافر وبني سعيد فمنعتها العسة من ذلك، وطردتها فطلعت مع الساحل لنواحي بادس. وعليه فنأمرك أن تكون على بال منها وتجعل العسة الكافية القوية بمراسي إيالتك وتضبط أمرها**...»، شوال عام 1301 هجرية/1884م، كناش رقم 121، الخزانة الحسنية ، الرباط، ص.106.

كما كتب رسالة أخرى إلى ابن عمه محمد الأمراني ورد فيها : «**ابن عمنا محمد الأمراني وبعد، فإذا قضيت الغرض من القبائل الريفية فاهتم عملك بالتوجه للمراسي المبينة يمنته، وهي مرسى بادس ببلاد بقيوة وبني يطفت ومرسى الأبراج ببلاد بني بويفرم، مرسى الكش ببلاد بني وريغل، مرسى السيد العاج حسون ببلاد بقيوة، واختبر أمر عساتها**...»، الخزانة الحسنية، كناش 121، ص.187.

[20] – رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد مبارك الذوبلاني، 22 رجب عام 1303 هجرية، خ. ح. الرباط، كناش 162، ص.221.

قائده الحاج العربي الوليشكي بإلزام « **بقيوة وبني يطفت نصب أحد عشر رجلا منهم للعسة كل يوم وإبدالهم بآخرين وهكذا. فإذا به (...) أنهم لم ينصبوا إلا رجلين بخمسة عشر ريالا في الشهر.**»[21] أما في المرحلة الثانية، فقد وقع تعديل طفيف في مركزي الحراسة الساحلية بنكور وبادس، يتمثل في قيام المخزن بتعيين "مقدم" [رئيس] من العسكر على رأس كل واحد من هذين المركزين [22]. ثم صارت هيئة الحراسة بهما مكونة من العناصر القبلية ووحدات عسكرية معا [23]. وأخيرا أصبح دور الحراسة لا يقوم به سوى الجيش المغربي وحده دون غيره من السكان المحليين [24].

على أن المشكل المطروح في هذا الباب، ليس هو معرفة ما إذا كان المدنيون أو العسكريون من المغاربة هم الذين يقومون بالحراسة الساحلية، وإنما بيت القصيد يكمن – آنذاك – في مشكل التموين ودفع الرواتب الشهرية للمعنيين بالأمر. فالقبائل كانت تعتمد في الحراسة الساحلية على التموين الذاتي، وعلى الأعراف المحلية في المؤازرة والحس الوطني في الدفاع، الشيء الذي كان يسمح لها بالصمود. وعندما تدخل المخزن المركزي لتعزيز هذا الشعور وإعادة تنظيم حراستي بادس ونكور بتحديد رواتب شهرية للأفراد القائمين بها، عهدت مسؤولية دفعها إلى أمناء ديوانة مليلية. بيد أن هؤلاء عجزوا عن الالتزام بدفعها لهم لتأزم هذه الديوانة من جراء تجارة التهريب [25]. يضاف إلى ما ذكر فشل محاولة المخزن الرامية إلى ضبط القوارب الريفية التي تتردد على ميناء تطوان أو طنجة، وذلك عن طريق مطالبة رياسها بالإدلاء برخص الذهاب والإياب، التي عهد إلى عمال وأمناء المناطق المعنية، بتسليمها لهم.

ففي سنة 1882، كتب السلطان مولاي الحسن إلى القائد محمد أقشيش السعيدي (قبيلة آيث سعيد الريفية)، قائلا :

---

(21) – رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد العربي الوليشكي، 6 جمادى الثانية عام 1307 هجرية / 28 يناير 1890 ، كناش 162، خ. ح. الرباط، ص.33 .

(22) – رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى ابن عمه سيدي محمد الأمراني، م. س. كناش رقم 121.

(23) – رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد ابن علي الكسيمي، 12 ربيع الثاني 1307 هجرية / 1890، كناش 468، خ. ح. الرباط.

(24) – رسالة من القائد محمد أنفلوس إلى محمد بن محمد اللبادي، فاتح شوال 1314 هجرية / 5 مارس 1897، مخ. 1/93 ، الخزانة العامة ، تطوان.

(25) – مراسلة مخزنية إلى النائب محمد الطريس، 22 جمادى الثانية 1312 هجرية / 21 دجنبر 1894، مخ. 53/78، الخزانة العامة، تطوان.

« ...**فقد أخبر عامل تطوان بأن العادة المقررة ممن يرد لها من أهل الريف بحرا يصحب معه بطاقة من عامله بالتعريف به وبما رامه من أغراضه هنالك ليكون العامل على بال من الوارد منهم، وحين يريدون الإياب يعطيهم الأمناء بطاقات التسريح ضبطا للقواعد. ثم أنهم خرقوا العادة في ذلك وصاروا يأتون بدون بطاقة العامل**...» (25 مكرر)

## 3. صعوبات الحراسة البحرية وتفاقم مشاكل التهريب في عهد المولى عبد العزيز :

لم تتحسن حراسة السواحل الريفية في عهد السلطان المولى عبد العزيز، بل يبدو أنها زادت تدهورا. فقد وردت مراسلة مخزنية على النائب محمد الطريس جاء فيها أن « **العدد من العسكر السعيد المعين لعستي بادس والنكور معطل ولا يقوم بشيء، وقد أمرناك بتعيين غيره للقيام بذلك**...»[26] ورغم كل المحاولات التي بذلها المخزن لإصلاح حراسة هذين المركزين، فإنهما أصبحا في غضون 1897 شبه خاليين بحيث لم يبق فيهما من الجيش « **إلا شيء قليل**»[27].

على أنه لا ينبغي أن نفهم من هذا أن السكان المحليين قد خلدوا إلى الراحة، بل ظلت قوارب آيث ورياغل المحسوبة على حراسة نكور تعترض قوارب المهربين وبالأخص منهم الإسبان، كما حدث مثلا في صيف 1893. وانتقاما من الورياغليين قام حاكم حجرة نكور بإلقاء القبض على بعض إخوانهم الذين قصدوا تلك الحجرة للتجارة (التموين)، ثم أمر بنقلهم كرهائن إلى سجن مالقا ريثما يتم تسليم المتهمين الحقيقيين. ومن الطبيعي أن يحتج المغرب على هذا الاعتداء، ويأمر ممثليه المحليين بالقيام بالتحقيق في النازلة. وهكذا، وبعد مفاوضات دامت زهاء سنتين، قادها عن الطرف الإسباني كل من الوزير "مركيس ذي بطسطد فرناري" ثم خلفه الوزير " إمليو أوخيدا Emilio OJEDA "، وعن الطرف المغربي النائب محمد الطريس؛ فإن الحقائق التي توصل إليها المخزن قد أبانت عن مسؤولية المهربين الإسبان في هذا الحدث. ومع ذلك، فإن الوزير الإسباني غض الطرف عنها وحاول إنكارها مع أنها تفصح عن نفسها حتى من خلال تبريراته التي قدمها عندما قال :

---

(25 مكرر) – رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول إلى القائد محمد أقشيش، بتاريخ 24 ربيع الأول عام 1299 هجرية/1882، أوردها **أقشيش عبد الرحمان**، *وثائق قبيلة بني سعيد...*، م.س، ص.45.

(26) – رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، 26 شوال 1312 هجرية / 21 أبريل 1895، مح. 96/13. الخزانة العامة، تطوان.

(27) – رسالة من القائد محمد أنفلوس إلى محمد بن محمد اللبادي، م. س.

«... **لم يظهر خبر الكنطوبند غير أنه يصطاد الحوت فقط في الوقت الذي هجم عليه مركبا** [كذا] **آخر من آل الريف ووقع الضرب على ركاب المركب الاسبنيولي بالبارود وجرحوا مقدم عسة البحر والترجمان وبحري ومسلم** [من بقيوة] **كان راكبا معهم**»[28]. وختم الوزير الإسباني رسالته بضرورة دفع تعويض قدره 19519 بسيطة و71 سنتيما، مع قيام المخزن بمعاقبة المتهمين من المغاربة.

في نفس هذه الفترة، زعم الممثل الفرنسي كذلك أن قاربا فرنسيا قد نهب بساحل الريف مما ترتب عنه خسارة تقدر ب " 260 ريالا ". ومرة أخرى تكشف التحريات المغربية التي وردت على السلطة المركزية – على يد مولاي عرفة – من عين المكان أن هذه الحادثة « **لا أصل لها ولم يضع شيء لهم وأن هذه الفلوكة كانت حاملة من مليلية أشخاصا من المغاربة وأنزلتهم بمحل وقع النص على عدم النزول فيه بالكلية** ...»[29].

والأدهى من هذا، أن حركة التهريب لم تعد تقوم بها فقط المراكب القادمة من الجزائر أو مليلية، أو تلك التي تخرج من الحصون الصغرى، بل أصبحت تتردد على حصني بادس ونكور سفن كبيرة غالبا ما تبحر من جبل طارق، فتحول الحصنان إلى محطتين لإعادة توزيع السلع المهربة.

وبالنسبة للمخزن المغربي، فلم يكن في غفلة من هذه التجارة المحظورة. والدليل على ذلك هذه الوثيقة المخزنية الكاشفة عن مجمل الحقائق التي توصلنا إليها من هذا التحليل.

« **النائب سيدي الحاج محمد الطريس (...) نسمع من بعض التجار أن المراكب تحمل السلع من جبل طارق وتضعها بحجرة النكور وبادس وتحمل من الموسوقات كالبيض أو الثيران وغيرهما شتو (...) مع أن تأثير ذلك ظهر في الديوانة لقلة الداخل من المعشرات. والآن قد كشف لنا الغيب بسبب ورود بابور من جبل طارق حاملا للسلع اسمه طارق وضع بحجرة النكور خمسمائة صندوق من الجاز ومن فرود الكتان ما لا ينحصر (...) والعسة التي لنا ثمة لا تقدر على منع من أراد إخراج السلع للبر ...**»[30]

---

[28] – رسالة من الوزير الإسباني (مَرْكِيسْ ذِي بُطسْطَدْ فُرْنَايْ) إلى النائب محمد الطريس، 14 شتنبر 1893/ 3 ربيع الأول 1311 هجرية، مح. 90/36، الخزانة العامة، تطوان.

[29] – مراسلة مخزنية بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 1312 هجرية/1895م، مح. 26/13، الخزانة العامة، تطوان.

[30] – رسالة سلطانية إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 22 جمادى الثانية 1312 هجرية / 21 دجنبر 1894م، مح. 53/78، الخزانة العامة، تطوان ؛ **جرمان عياش**، *"المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (1850-1920)"*، ضمن كتاب : *دراسات في تاريخ المغرب*، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، SMER ، ط.1، 1986، ص. 210.

لهذه الأسباب وغيرها، قرر المخزن العزيزي في أكتوبر 1895 أن يخصص إحدى قطع أسطوله البحري الحربي للقيام بدور حراسة المياه المتوسطية من طنجة إلى مليلية قصد ضبط القوارب الريفية التي تحمل بضائع التهريب، وذلك بمنع رياسها من السفر بحرا إلا إذا كانوا مصحوبين برخصة السفر التي يتسلمونها من عمال قبائلهم أثناء الذهاب، ومن عامل تطوان أو طنجة أثناء الإياب. وزيادة على هذا، فإن السفينة المغربية ستقوم كذلك بتفتيش المراكب الأجنبية التي تصادفها بمياه الساحل الريفي [31].

---

[31] – كتب السلطان الحسن الأول إلى نائبه بطنجة محمد بن العربي الطريس أنه بعدما :

**« كثر التشكي على حضرتنا الشريفة من نواب الأجناس بما يقع من نهب مراكبهم بسواحل الريف (...)، اقتضى نظرنا الشريف (...)، واهتماما بهذا الأمر، أن نجعل البابور الحسني إن كان لا زال ثمة، أو التركي إن كان رجع من الطرفاية، عسة في البحر ورداكشطا يكون يطوف في الساحل بين طنجة ومليلية بقصد ترصد أهل الريف الذين يجدونهم في القوارب بالبحر وتفتيشهم ومعرفة ما هم حاملون له. فإن كانوا على غير استقامة أو بصدد نهب مراكب الأجناس أو معهم كطربانش ومتوجهين لمرسى أجنبية، فيجروا بهم القوارب بما فيها ويأتوا بهم إليك فالرجال يودعون بالسجن ثمه على يدك وبيد العامل. والقوارب والأمتعة يحوزها أمناء المرسى ويتركونها تحت يدهم محوطة. واطلع علمنا الشريف بعددها تفصيلا لنأمرك بما يكون فيها (...). ثم تكلم مع رئيس البابور المذكور (...) نعم من وجده من أهل القوارب المشار إليها واردا وبيده كتاب مفتوح من عامله ببيان تاريخ سفره وما هو حامل له من السلعة وبيان المحل الذي يقصده إما طنجة أو تطوان فيخلي سبيله في وروده، وفي رجوعه إن وجد عنده كتابا من عامل طنجة أو تطوان بمثل ما ذكر فيخلي سبيله أيضا. وأما إن وجده خاليا من المكاتب المشار إليها فيعاتبه ويوتبه بما فرر لكأعلاه. وقد أمرنا عمال أهل الريف بأن يكونوا يدفعون مكاتبهم بما ذكر لإخوانهم أصحاب القوارب المشار إليها كما أمرنا عاملي تطوان وطنجة بأن يكونوا يدفعون لهم مثلما أيضا عند رجوعهم لكن لا يتم ضبط ذلك وحسم مادة هذا الفساد إلا بتفتيش مراكب الأجناس التي يصادفها البابور المذكور حالة دورانه في السواحل. فإن وجد به شيئا من الكطربانش كالعدة الرومية وشبهها فيجره بما فيه ويأتي به إليك لتجري عليه أحكام من يوجد بيدهم الكطربانش، وإن كان خاليا منه فيخلي سبيله. فاكتب للنواب بذلك ليأذنوا في التفتيش على نحو ما ذكر، وعرفهم بأن هذا كله أجل ما يقع بمراكبهم، واهتماما بأمرها تبقى محفوظة آمنة، إن شاء الله فإن أصل كل علة من الكطربانش كما لا يخفى والسلام في ربيع الثاني عام 1313.»**

– مراسلة من السلطان المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، 18 ربيع الثاني 1313 هجرية / 8 أكتوبر 1895م، مح. 65/14 ، الخزانة العامة، تطوان.

تجدر الإشارة إلى أن ثمة غموض ناتج عن تشابه بين اسمي القطعتين البحريتين اللتين كانتا تتناوبان على حراسة السواحل الريفية. الأولى تدعى " التركي" تزن 465 طنا، وكانت أكثر ترددا على المنطقة، والثانية اسمها " التريكي" تزن 18 طنا. انظر :

ويظهر من بعض الوثائق أن هذا القرار الذي اتخذه السلطان المولى عبد العزيز كانت له أصداء إيجابية وسط السكان المحليين. فقد كتب السلطان إلى نائبه الطريس أن عامل " الْحَدَادَة " بمليلية وكذا عمال الريف، قد أخبروه بحصول « **الأمن والاطمئنان بساحل مليلية وما والاها برّا وبحرا بسبب المركب الذي قدمنا أمرنا الشريف بتوجيهه للطواف بذلك الساحل.**»[32]

لكن يبدو أن الرياح كانت تجري بما لا تشتهيه السفينة المغربية المذكورة، فبادر السلطان يسأل نائبه محمد الطريس عن أخبارها : «... **فقد كنا أصدرنا أمرنا الشريف بأن يكون بابور المخزن وَارْدَى كُوشْطَى** [خافرة] **بسواحل الريف ضبطا للحسة البحرية. فبَيِّن لنا ما كان من أمره والسلام.**»[33]

وجاء جواب النائب من طنجة بما لم يكن في الحسبان؛ لقد تأخر توجيه سفينة " التركي" إلى الساحل الريفي بسبب " الكَرَنْطِينَة " (الحجر الصحي)، وبعد ذلك كان من اللازم إرسال السفينة المذكورة إلى مدينة قادس الإسبانية قصد الإصلاح (المسح)، وحالما تعود ستتوجه إلى طرفاية بجنوب المغرب كي تعوض سفينة " الحسني" التي يتوجب إصلاحها بالخارج كذلك، ولن يرجع " التركي" إلى الريف إلا بعد رجوع " الحسني" إلى طرفاية [34].

يتضح مما سبق، أن الحراسة الساحلية التي سنها المخزن المركزي في السواحل الشمالية في الربع الأخير من القرن 19، قد صادفت عدة عراقيل وصعوبات ذاتية وموضوعية، وأن البضائع التي كانت تضيع من يد المهربين سعت الدول الأوربية إلى استرجاع قيمتها على حساب مالية الدولة المغربية بدعوى تعويض ما " ينهبه " الريفيون، مع أن أسباب ذلك والمبالغ المطلوبة – كما رأينا أعلاه – تشوبها كثير من الأكاذيب والمبالغة.

ومهما كان الأمر، فلا بد من الإقرار بأن العالم قد تلقى، في أواخر القرن الماضي، أخبار " القرصنة الريفية ". أخبار كانت تصل إلى الدوائر الحكومية، وإلى الرأي العام الدولي، وهي

---

**Leonard KAROW**, *Neuf années au service du Maroc (1900-1908)*, traduction et notes Monique MIEGE et Jean-Louis- MIEGE. Edition La Porte, Collection Mémoire du Maroc, Rabat, 1998, p.8, note n°3 ; pp. 9, 20, note n°4.

(32) – مراسلة من السلطان المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس، 15 رجب عام 1313 هجرية / 19 يناير 1896 ، مح. 139/14، الخزانة العامة، تطوان.

(33) – رسالة من المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، 9 شعبان عام 1313 هجرية / 4 فبراير 1896 ، مح. 139/14، الخزانة العامة، تطوان

(34) – رسالة من المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس، 25 شعبان عام 1313 هجرية / 20 فبراير 1896 ، مح. 142/14، الخزانة العامة، تطوان.

محرفة في معظمها، ومغلفة بغلاف أسطوري مهلهل حرك أقلام الساسة ورجال الصحافة، ودغدغ خيال الإثنوغرافيين أمثال موليراس A. MOULIERAS.

## 4. قراصنة بقيوة وأزمة المحتجزين:

من الملاحظ أن الدراسات التي تشير إلى " القرصنة الريفية " غالبا ما تغفل الأرضية المحلية التي كانت مسرحا للأحداث. ومن ثم يتم تغييب العناصر الداخلية التي من شأنها أن تساهم، إلى جانب العوامل الخارجية، في فهم هذه الظاهرة : " القرصنة الريفية ".

لقد سبق أن تطرقنا لخصوصية الواقع المحلي أثناء إعدادنا لأطروحة جامعية حول قبيلة بقيوة [35]. وسنقتصر على التذكير بالخطوط العريضة التي تفسر ابتلاء البقيويين بشؤون البحر.

بادئ ذي بدء، تجدر الإشارة إلى أن الموقع الجغرافي لبقيوة يجعلها تطل على البحر الأبيض المتوسط بساحل يبلغ طوله حوالي 47 كلم ، من بادس غربا إلى مشارف نكور شرقا. وهو ساحل كثير التقطع، ذو أجراف تنتهي مباشرة في البحر، توفر أحسن ملاذ للقوارب الصغيرة من العواصف وهيجان البحر، زيادة على سرعة الاختفاء عن الأنظار.

أما الوسط الطبيعي، فتغلب عليه التضاريس المرتفعة التي لا تسمح إلا بوجود مساحات ضيقة للزراعة تسودها في الغالب ملكيات فردية مجهرية لا تساعد على تحقيق تراكم في الثروة من شأنه أن يفرز فئة غنية مرتبطة بالأرض [36]. ومن ثم فقد شكل البحر مجالا حيويا خاصة بالنسبة للفرق الساحلية، لما يتيحه من ممارسة أنشطة تكميلية كالصيد، أو القيام بالتجارة الساحلية وخاصة التهريب التي صارت مصدرا أساسيا للثروة والربح السريع.

ولعل من بين الأسباب التي دفعت بتجار بقيوة إلى المغامرة في البحر والاتصال مباشرة بإسبان الحصون الصغرى الذين قدموا لهم المساعدة والتغطية السياسية، قيام آيث ورياغل باحتكار تجارة التموين مع جزيرة نكور، وآيث يطفت مع جزيرة بادس. على أن حركة التهريب لم تكن حكرا على بقيوة، بل انخرط فيها أفراد من آيث ورياغل. ولا نستبعد أن يكون الطرفان قد شاركا معا في هذه الحركة. الدليل على ذلك، أن وثيقة يعود تاريخها إلى 1885، تشير إلى سوء تفاهم حصل بين

---

[35] - **Mohamed OUNIA**, *Les Boqqouia, Contribution à l'étude de l'Histoire sociale du Rif pré-colonial (1860-1912)*, Université de Provence, Centre d'Aix, Aix-Marseille I, 1994, (Inédit).

[36] – انظر :

**Mohamed OUNIA**, «*Les structures agricoles dans le Rif pré-colonial : cas de Boqqouia,*», Revue Maroc-Europe, n°8, 1995, pp.23-50.

الجانبين ترتب عنه خلاف بلغت درجة خطورته أن حاكم جزيرة نكور نزل إلى البر للتفاوض مع القائد زيان حول هذا الخلاف [37]. لكن يبدو أن الأمور لم تزد مع مر الأيام إلا تعقيدا بين القبيلتين الريفيتين، أو بالأحرى بين الفرقتين المتجاورتين وهما فرقة آيت يوسف وعلي من آيث وریاغل، وفرقة إزمورن من بقيوة. هذه الحزازات كانت تغذيها، أيضا، التعارضات الانقسامية وأنساق الأحلاف واللفوف القبلية [38] التي ترسخت أكثر أثناء هجوم المحلة المخزنية على قبيلة بقيوة سنة 1898 ، فقد خيمت هذه المحلة في تراب فرقة آيت يوسف وعلي قبل قيامها باكتساح أرض جيرانها البقيويين.

بالإضافة إلى ما سبق، عرفت الزعامات المحلية تنافسا حول النفوذ والسلطة ترتب عنه اختلال التوازن بين الوحدات القبلية المحلية. فعكس زعماء آيث وریاغل الذين أدمجوا في الجهاز المخزني، فإن بقيوة كانت خاضعة لقواد أجانب عنها تباينت سياستهم حسب الظروف. ففي عهد السلطان المولى الحسن الأول، كانت سلطتهم أكثر انصياعا للأوامر المركزية، وأقل إثارة للمشاكل بين المخزن والسكان المحليين، خصوصا وأن بقيوة كانت، كغيرها من القبائل الريفية تشارك بجدية في حراسة السواحل، كما سلف الذكر، وتمتثل للواجبات المخزنية أثناء حلول المحلة بالمنطقة. فقد كتب السلطان المولى الحسن الأول مثلا إلى القائد العربي الوليشكي يخبره بما يلي :

«...**وصل كتابك بقدوم بني بطفت وبقيوة للمحلة السعيدة وقراءة كتابنا الشريف عليهم وجوابهم بالامتثال وبما اعتذروا به، وبالقدر** 2000 [ريال] **الذي دفعوه**...»[39]

وحتى في أشد فترات التوتر، كانت السلطة المركزية تتدخل بالتي هي أحسن لحسم أسباب القلاقل الناشئة عن علاقة بقيوة بالتجار الأوربيين. ففي صيف 1893 مثلا، قام أحد الشرفاء من زاوية سنادة بدور الوسيط بين بقيوة والسلطان الذي استقبله بحفاوة هو والوفد الريفي المرافق له. وبعد ذلك عفا السلطان على مساجين بقيوة، وعين على قبيلتهم قائدا جديدا هو علي بن منصور، وألزمهم بدفع

---

[37] – رسالة من محمد بن العربي بن المختار إلى القنصل البريطاني "جون دراموند هاي"، 17 جمادى الثانية عام 1302 هجرية / 3 أبريل 1885. أوردها **خالد بن الصغير**، *المغرب في الأرشيف البريطاني، مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن 1846-1886*، ولادة، 1992، ص.518.

[38] – انظر :

**David M. HART**, «*clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine* », R.G.M. n°8, 1965. p.31.

[39] – رسالة من السلطان الحسن الأول إلى القائد العربي الوليشكي، 9 رجب 1307 هجرية / أوائل مارس 1890 ، كناش 162، ص.37 ، الخزانة الحسنية، الرباط.

ضريبة سنوية قدرها ألف ريال، مع نهيهم عن الخوض مع الأجانب في الأمور التجارية، وعدم التعرض لأي مركب أجنبي يدفعه التيار إلى شاطئهم [40].

أما في عهد السلطان المولى عبد العزيز، فقد أصبحت الجماعات المحلية ببقيوة أكثر تطلعا إلى المشاركة في السلطة السياسية نظرا لبروز أعيان أثرياء وأقوياء [41]. لكن كونهم " فسادا " جعل مسألة إدماجهم في الجهاز المخزني أمرا مستحيلا لانتفاء عنصر " الشرعية ". هذا في الوقت الذي تعاظم فيه نفوذ القواد المجاورين أمثال القائد حم الوليشكي الذي شدد الخناق على بقيوة سنة 1897 ، وركن إلى اللفوف والأحلاف المحلية لتحريض باقي القبائل ضدها، بل لقد تورط فيما هو أخطر من ذلك حينما تجرأ على طلب المؤونة للجيش من الحاكم الإسباني لجزيرة نكور. إن هذه السياسة الارتجالية فشلت أمام قبيلة بقيوة التي رفضت الرضوخ لاستبداد حم الوليشكي، استبداد لم يرتضه حتى السلطان نفسه لما علم « **بما ارتكبه الحاج حم الوليشكي ببلاد الريف (...) وإلزامه تمسمان الحركة لبقيوة (...) وأنه زاد على ذلك وربط بين قبيلة بني وريا غل وتمسمان وجعل يخوض بما لا تحمد عاقبته، وأفضى به الحال إلى أن طلب المونة من حاكم النصارى الذين بجزيرة النكور...** »[42]

وهنا نود أن نقف برهة عند هذه النقطة الأخيرة التي ألمح إليها هذا النص، والمتعلقة بهذا التقارب غير العادي الذي حصل بين القائد الوليشكي وحاكم جزيرة نكور. ألا يمكن أن نستشف في هذا الدعم من الحاكم الإسباني المذكور نوعا من التواطؤ والتحريض لضرب بقيوة ؟ إن أحداثا جرت بالمنطقة قبل 1897 تؤكد فعلا أن العلاقة قد تدهورت بين الإسبان و" إيقوين " مما يؤشر على أن تحولا أساسيا قد تم بين الطرفين.

---

[40] **ET-TABYI**, *Retazos*....op. cit, pp.229-230.

[41] – كتب الصحافي الإسباني إنركي أركيس يصف مظاهر الثراء والترف لأحد أعيان بقيوة وهو سي دادي مسعود، يقول : « **الآن نستريح في هدوء في هذا المنزل الذي تتوفر فيه كل وسائل الرفاهية الممكنة. هنا في هذه القاعة الفسيحة يتجلى بذخ رجل مثر كبير، يريد أن يتفوق على غشونة الآخرين. سي دادي ينعم في لباسه وفراشه نعم التطوانيين. شخصيته ومنزله يكشفان عن رغبة في التفوق على الآخرين. وله أيضا في تطوان منزل كبير وزوجة تنتمي إلى أكبر العائلات** (...)، **استبدل اللباس الريفي بقفطان فاخر وسلهام أزرق** (...) **وفراش النوم المصنوع من القصب بالناموسية ذات التاج المذهب** (...) **يعبر عن أفكاره بالعربية الصافية دون أن ينسى لهجته الريفية** ...»، انظر، آمنه اللوه، "*حول استراتيجية النبأ عند المغاربة*"، مجلة البحث العلمي، ع.42، 95-1994، ص.ص. 149-150.

[42] – رسالة مخزنية إلى القائد البشير بن السناح الشركي، 6 رمضان عام 1313 هجرية / 1896 ، كناش رقم 432، ص.30، الخزانة الحسنية، الرباط.

ولعل أولى بوادر هذا التحول ترتبطت بالهجوم البحري الذي نفذه أهل بقيوة سنة 1889 ضد السفينة الإسبانية "Miguel y Teressa" بجون الحسيمة[43]. وانطلاقا من هذا التاريخ إلى غاية 1897، إن لم نقل إلى غاية 1913 [44]، وقعت حوالي 14 غارة بحرية ضد مختلف السفن الأوربية. ويبدو أن العمليات " القرصانية " قد تزايدت بشكل ملفت للنظر في عهد المولى عبد العزيز، لاسيما ما بين 1894 و 1897، بمعدل عمليتين تقريبا في كل سنة. أما عن التعويضات التي دفعها المخزن المغربي للدول الأوربية فقد كانت جد باهضة واستفادت منها على الخصوص إسبانيا، فرنسا ، بريطانيا، إيطاليا والبرتغال. لكن ما هي دوافع هذه " القرصنة الساحلية " ؟

يجيبنا جرمان عياش بما يلي :

**« فقد يدفع ثمن البضاعة مسبقا دون أن يقع تسليمها بتاتا، أو أن يتم العثور على أحد الريفيين مقتولا على العرشة، بعدما كان قد انطلق إلى الجزيرة حيا يرزق. فنظرا لانعدام أي ملاذ، كان يتعين حينئذ أن يصفي المرء بنفسه حساباته بالوسائل التي تسنح بها الفرصة. وأحسن وسيلة هي أن يقوم بأسر بعض رهائن مركب أوربي صغير، انحبس على مقربة من الشاطئ بسبب هدوء مطلق، ثم المساومة فيهم للحصول أخيرا على التعويضات.»**[45]

بل أكثر من التعويضات والمال، إنها مسألة الأسرى التي أضفت على " القرصنة " هالة سياسية دولية.

---

[43] - **Adolfo ARAGONES y De La Encarnación**, *Al Hucemas*, Toledo, 1910, p. 108.

[44] – في سنة 1913 انحبست سفينة حربية إسبانية تدعى "Concha" (كونشة) بساحل بقيوة، فحصلت مناوشات بين طاقمها وبين السكان المحليين، واضطرت سفينة إسبانية أخرى لتدميرها.(عن شاهد عيان).

من المفيد أن نشير في هذا المقام إلى الرسالة التي كتبها الفقيه عبد الكريم الخطابي (الأب) إلى الجنرال الإسباني " خوردانة " بمليلية سنة 1913، والتي تطرقت إلى هذه الحادثة البحرية. لكن، قبل أن نثبت هنا، مقتطفا من نص الوثيقة، ننبه إلى أنه ينبغي قراءتها في سياقها التاريخي كي نتفهم، بالتالي، الأسباب التي جعلت كاتبها – قبل القطيعة مع إسبانيا – لا يجد أي مناص في وصف إخوانه الريفيين من قبيلة بقوية المجاورة، بنعوت قدحية، وذلك، كما لا يخفى، ليوهم الإسبان بأنه عضو مخلص داخل حزب " أصدقاء إسبانيا "، وحريص على خدمة مصالحها، ومتأثر بالخطب التي تلم بها :

**« الحمد لله (...)، جناب السيد الكومندانتي كرنيل خوردانة بعد تقديم فائق احترامي لسعادتكم، أرفع إليكم مراسم العزاء في مصابكم الحادث بالمدفعية كونشا الذي كان من سوء حظه سقوطه في أيدي المتوحشين. وباسمي واسم إخواني جميعا أشاركم في مصابكم (...). والسلام يوم الثلاثاء 12 رجب عام 1331 هجرية.**

**قاضي قبيلة بني وريا غل عبد الكريم بن محمد الخطابي.»**

– Servicio Historico Militar (Melilla, Legajos II, p.6 ), Madrid, España.

[45] – انظر جرمان عياش، *دراسات في تاريخ المغرب*... م. س. ص.210.

إن أصول المشكلة تعود إلى سنة 1894 حين « **اتفق جماعة من الريفيين مع مهربين من مدينة مالقا على أن يشتروا لهم مكاحل بثمن 5000 ريال. فلم يوفوا بعهدهم ولم يردوا الثمن. فاغتاظ الريفيون وآلوا على أنفسهم منذ ذلك الحين أن ينهبوا ويأسروا كل مركب إسبانيي مر بقربهم ما لم ينصفوا.**»[46]

وما هي إلا حوالي سنة بعد ذلك، حتى أغارت بقيوة على باخرة إنجليزية تدعى " لابيرخين ذي لوس أنخلس " La Virgen de los Angeles . احتجت بريطانيا وطالبت بتعويض لدى المخزن الذي أمر بتوجيه السفينة الحربية المغربية إلى ذلك الساحل الذي وقعت فيه الحادثة. وهكذا ألقي القبض على سبعة أشخاص من فرقة إزمورن، اقتيدوا إلى طنجة حيث تمكن القبطان الإنجليزي من التعرف على اثنين منهم [47]، وتم سجنهما هناك.

وهكذا أخذت المشكلة طريقها نحو مزيد من التعقيد والتصعيد، خاصة بعدما أصبحت فرنسا طرفا في هذا النزاع. فوكيلها القنصلي بتطوان المسمى علال العبدي صار يتردد على ساحل بقيوة لتشجيع أعيانها على التهريب، والتخطيط لنقل بعض أتباعهم للخدمة الزراعية والعسكرية في الجزائر [48]. بل يمكن القول بأن " سي علال " هذا حاول إحياء مشروع " شافانياك"، أي التفكير في استغلال منجم جبل حمام الواقع بقلب آيث ورياغل، الأمر الذي سبب في البلبلة والصراع داخل القبيلة الورياغلية بين الطرف الذي جره العبدي إلى صفه، والطرف الذي رفض مشروعه وحمايته، بل وفضل اللجوء إلى حاكم جزيرة نكور طلبا لعونه قصد إفشال تدخل العبدي [49].

ولم يتردد الإسبان في توطيد علاقتهم مع آيث ورياغل وبالأخص منهم الفرق الساحلية (آيث خطاب السواحل) قصد إبعاد التدخل الفرنسي الذي اعتبرته إسبانيا تدخلا في منطقة نفوذها، بينما انحاز أعيان بقيوة إلى فرنسا. في هذا الإطار المتسم بالتنافس والسباق نحو كسب مناطق نفوذ بين الدولتين الإسبانية والفرنسية، برزت أزمة المحتجزين كورقة وظفها كل طرف لتحقيق أهدافه التوسعية ذهبت ضحية لها قبيلة بقيوة برمتها.

---

(46) - **مصطفى بوشعراء**، *التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن وثائقهم*، ج.1 ، 1991، ص.55.

(47) - رسالة من محمد بن أحمد الخضر إلى النائب محمد الطريس، 10 رجب 1313 هجرية / 27 دجنبر 1895، مح. 29/79، الخزانة العامة، تطوان.

(48) - **عبد العزيز التمسماني خلوق**، "*وثائق مغربية حول حركة التهريب بقبيلة بقيوة سنة 1898* "، مجلة دار النيابة، ع. 24/23، صيف/خريف 1989، ص.86.

(49) - انظر مقالنا **محمد أوني**، "*المجتمع الريفي قبل الحماية (1897- 1921): مقاربة تاريخية جديدة لمفهوم الرفوبليك*"، مجلة أمل، ع.8، 1996، ص. ص. 18- 19.

ففي أكتوبر 1896، تعرض 13 شخصا من بقيوة بفلائكهم للباخرة الفرنسية "Prosper Corue" التي دفعها التيار نحو شاطئهم، وكادوا يأسرون ركابها السبعة (رئيس و6 بحارة) لولا تدخل السفينة الإسبانية " إشبيلية " (Sevilla) لإغاثتهم. وأسفرت هذه المعركة الدامية بين الطرفين، بالإضافة إلى القتلى والجرحى، عن أسر القبطان الفرنسي (Joseph Aubé) من طرف بقيوة، بينما أسرت السفينة الإسبانية 13 مسلما قادتهم إلى جزيرة نكور (Peñón de Al Hucemas) [50]. وبعد 14 يوما، أطلق بقيوة سراح رئيس المركب الفرنسي « **الذي تشفع فيه الشريف المتوجه من طنجة** »[51]، أملا منهم في أن يتم إطلاق سراح إخوانهم، لكن دون جدوى. فإسبانيا رفضت إطلاق سراح المحتجزين بحجرة نكور [52]. وكان رد فعل بقيوة أن قاموا بأسر السفينة الشراعية الإيطالية " فيدوشيا " (Fiducia)، واحتجاز ثلاث رهائن : القائد، ونائبه من أصل يوناني وبحري فرنسي [53]. وبعد حوالي أسبوعين هاجم بقيوة في 30 غشت 1897 المركب البرتغالي "روسيطا " Rosita وأسروا ركابه الخمسة [54].

رفض بقيوة الإفراج عن رهائنهم ما لم يتم العفو على إخوانهم، سواء منهم المسجونين في طنجة أو المحتجزين بحجرة نكور. وقد حاولت الدول الأوربية المعنية وخاصة إيطاليا والبرتغال وفرنسا فدية الأسرى بالمال، بيد أنهم أجابوا إنما « **يريدون إخوانهم وليس المال** »[55].

ونظرا لتدهور الأوضاع الصحية للرهائن المحتجزين من طرف الريفيين، وخاصة عقب وفاة أحدهم من أصل فرنسي، قامت السفارة الفرنسية بطنجة بمساعي مضنية لدى المخزن كي يعفو عن

---

(50) - **Jerónimo BEKER**, *Historia de Marruecos*, Madrid, 1915, p. 408.

(51) – نسخة من كتاب (رسالة) حاكم مليلية إلى السيد الحاج محمد الطريس. أوردها، **مصطفى بوشعراء**، *التعريف*...، م. س. ص. 67.

(52) – برقية من النائب الأول للسفير الفرنسي بالمغرب السيد ريفو (A. RIFFAULT) بتاريخ 20 غشت 1897. أوردها **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص.85.

(53) – نفسه ، ص. ص. 55 ، 85.

(54) – نفسه، ص.56.

(55) – برقية من ريفو بتاريخ 10 أكتوبر 1897. أوردها **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص.92.

رعاياه الريفيين من مساجين طنجة [56]، كما عينت علال العبدي للتدخل لدى قبيلة بقيوة باسم وموافقة الوزير الإسباني كي يتم إطلاق سراح المحتجزين الموجودين لديهم [57].

وفي هذا الإطار كتب النائب الإسباني رسالة إلى أعيان بقيوة طلب منهم قراءتها على القبيلة، ويطمئنهم على مصير إخوانهم المسجونين الذين سيطلق سراحهم بمجرد أن يسرحوا الرهائن الأوربيين ويدفعوهم لحامل تلك الرسالة؛ " الترجمان" (علال العبدي) الذي رافقه الخليفة عبد القادر عبد الصادق [58]. وفي ظرف أسبوع تقريبا انتهت مشكلة المحتجزين. ففي 10 نوفمبر 1897 أطلق بقيوة سراح الأسارى الأوربيين ونقلتهم المدرعة الإسبانية " الخنرال بالديث " إلى طنجة ، وذلك بعدما أفرج عن إخوانهم الذين كانوا « **قبضوا بتطوان ونقلوا لسجن طنجة** (...) [و] **توجهت بهم** [المدرعة الإسبانية] **لبادس لتحوز المساجين الذين كانوا تحت يد الإسبنيول** (...) **وتذهب بالجميع لإخوانهم أهل الريف**...»[59]

ومهما يكن، فإن هذه التسوية التي تمت بهذه الطريقة لم تكن لتجعل المخزن المركزي يتراجع عن قرار كان قد عزم على تنفيذه، وهو إرسال حملة " تأديبية " ضد " فساد " بقيوة. حملة بقدر ما عبرت عن أسلوب تقليدي لفرض الحل بالقوة، بقدر ما استهدفت إظهارا للرأي العام، أن المخزن هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في هذه القضية، وضمنيا رامت هذه " السوكة " إفشال التدخل الفرنسي في هذه المنطقة، الشيء الذي سيفسح المجال لإسبانيا. ألم يكتب صاحب " الظل الوريف" : « **إن حملة الشريف المولى أبو بكر** (يقصد شقيق السلطان المولى عبد العزيز) **والقائد البغدادي، قد تمت بقصد الانتقام من بقيوة تطييبا لخاطر إسبانيا باطنا، قصد تربيتها** (أي تأديب القبيلة) **بادعاء خروجها على الطاعة ظاهرا**» ؟ [60]

---

[56] – برقية من ريفو إلى النائب محمد الطريس، 31 أكتوبر 1897 (6 جمادى الثانية 1315 هجرية). أوردها **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص. ص. 98-99.

[57] – رسالة من سفير الجمهورية الفرنسية بالمغرب دومنبل (de Monbel) إلى الوزير أحمد بن موسى، بتاريخ 4 يونيو 15/1898 محرم 1316. أوردها **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص. ص. 117-118.

[58] – رسالة من نائب إسبانيا بالمغرب إلى أعيان قبيلة بقيوة، بتاريخ 2 نوفمبر 1897، مح. 180/36، الخزانة العامة، تطوان.

[59] – **مصطفى بوشعراء**، *التعريف*... م. س. ص. 101.

[60] – **محمد العربي المساري**، *المغرب بأصوات متعددة*، سلسلة شراع، ع.2 ، السنة 1996، ص.114.

خلاصة القول، إن ما يمكن استنتاجه من موضوعة " القرصنة " هذه، أنها ليست سوى ظاهرة ظرفية عبرت عن تحول تاريخي عسير وعميق هز المنطقة الريفية منذ قدوم "ج. د. هاي" إلى قلعية سنة 1856 إلى مجيء علال العبدي إلى بقيوة سنة 1897.

جدول رقم 1

**﴿ السفن الأجنبية التي استهدفت في عرض السواحل الريفية ﴾**

| اسم المركب | جنسيته | مكان الحادث | تاريخه | القبيلة المعنية |
|---|---|---|---|---|
| – | إسبانية | رأس هرك | 1836 | قلعية |
| سانتا آنا Santa Anna | " | " | " | " |
| – | " | قرب صخرة بادس | 1937 | – |
| روث Ruth | بريطانية | رأس هرك | 1848 | قلعية |
| – | " | " | " | " |
| فيولي Violet | " | " | 1851 | " |
| جانوس Janus | " | " | " | " |
| – | إسبانية | " | " | " |
| فلورا Florat | بروسية | " | 1852 | " |
| – | إسبانية | " | " | " |
| – | " | " | " | |
| – | بروسية | " | " | " |
| – | بريطانية | " | 1853 | " |
| سانتو كريستو Santo Cristo | إسبانية | جون الحسيمة | " | تمسامان |
| – | " | " | 1854 | قلعية |
| كارمن Carmen I 1 | بريطانية | رأس هرك | " | " |
| جون ديبواز Jeune Dieppoise | فرنسية | " | 1855 | " |
| سان أنطونيو San Antonio | إسبانية | جون الحسيمة | " | " |
| سان خواكين خوصي San Joaquín José | " | " | 1856 | بني وراغل |
| هايمن Hayman | بريطانية | رأس هرك | " | قلعية |
| ميكيل وتوريسا Miguel y Teressa | إسبانية | جون الحسيمة | 1889 | بقوية |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| سان فرانسيسكو San Fransisco | " | " | 1891 | " |
| سان فسانت San Vicente | فرنسية | – | 1894 | – |
| ماير Mayer | بريطانية | جون الحسيمة | " | بقوية |
| لينتولو Lentulo | إيطالية | " | 1895 | " |
| كونشيتا Conchita | فرنسية | – | – | " |
| آنا Anna | هولندية | جون الحسيمة | 1895 | " |
| غابير Gabaire | إيطالية | جون الحسيمة | " | " |
| – | سويدية | " | " | " |
| خُوفِينْ إنريكي Joven Enrique | بريطانية | – | – | " |
| فِرْخِينْ دِي لُوسْ أنْخِلِس Virgen de los Angeles | " | جون الحسيمة | 1896 | " |
| بْرُوسْبِيرْ كُورُو Prosper Coru | فرنسية | ساحل الشرقي (صباديا) Cebadilla | " | " |
| فيدوسيا Fiducia | إيطالية | جون الحسيمة | 1897 | " |
| روسيتا دي فاطو Rosita de Fato | برتغالية | " | " | " |
| الخنرال كونشا General Concha | إسبانية | ساحل بوسكور | 1913 | " |

جدول رقم 2

**﴿ الغرامات التعويضية التي دفعها المخزن المغربي للدول الأوربية ما بين 1891 و 1896 ﴾**

| الـــدول | مبلـــغ الغرامـــة | السنـــة |
|---|---|---|
| إسبانيا | 85022 بسيطة و 45 سنتيما | 1891 |
| هولندا | 22000 ريال | 1895 |
| فرنسا | 260 ريالا | " |
| بريطانيا | 23271 بسيطة و 98 سنتيما | " |
| فرنسا | 120000 فرنك | 1896 |
| إيطاليا | 265000 فرنك | " |
| البرتغال | 250000 فرنك | " |

# الحملة المخزنية على بقيوة سنة 1898 *

**عبد الرحمان الطيبي**

الرباط

إن ما قامت به بقيوة في أواخر القرن الماضي لم يكن نشاطا قرصنيا بالمفهوم الأوربي، بل كان رد فعل طبيعي عما تعرض له بعض أهالي القبيلة المتعاملين مع الإسبان من تقتيل ونهب لأموالهم. كل هذا أدى إلى الأخذ بالثأر حسب الوسائل التي تسنح بها الفرصة لتصفية الحسابات [1]، وخير وسيلة التجأ إليها البقيويون هو اعتراضهم لمختلف المراكب الأوربية وحجز طاقمها كرهائن للحصول على التعويضات التي يشترطونها [2].

وبعد أن تعرضت السفن الأوربية للحجز، قامت إسبانيا سنة 1896 باعتراض بعض المراكب الريفية، وتم أسر بعض أهالي بقيوة بجزيرة النكور [3] للضغط على القبيلة بالإفراج عن بعض رعايا إيطاليا وفرنسا واليونان [4]. وهذا الحدث أدى بنواب الدول الأوربية إلى توجيه شكاوي إلى السلطة المركزية مستنكرين فيها ما يقع من نهب لمراكبهم التي تجوب السواحل الريفية، ومطالبين بالتعويضات [5] اللازمة للخسائر الناجمة عنها. وكان السلطان يتحمل عبء ذلك بالوعد والوعيد حتى

---

* هذا المقال مقتطف من بحثنا : *المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية ، قبائل ساحل الريف الأوسط من 1860 إلى 1912* ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، 1993 ، ج.2.، (غير منشور).

---

(1) – **جرمان عياش**، *دراسات في تاريخ المغرب*، الشركة المغربية للناشرين، ط.1، الدار البيضاء، 1986، ص. 210.

(2) – جاء في رسالة مخزنية ، أنه « **لا يخفى أن منشأ فساد هؤلاء هو ترويج باركيات** (مراكب) **الصبنيول التي تتعارف معهم ويتعاملون مع رؤسائها في الكنطربانض** (التهريب) **ويخبيون عن أهل الريف بالبعض من أعيانهم وبالدراهم التي يتعارفون بها معهم فيترتب على ذلك ترصد أهل الريف لأخذ الثأر منهم...**»، رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 17 ربيع الأول 1315 هجرية / 16 غشت 1897، مح. 39/24، خ. ع.، تطوان.

(3) – ورد في رسالة مخزنية أن : «**قبيلة بقيوة قبض منهم الصبنيول إحدى عشر نفرا، واحد منهم لا زال صغيرا، ولا زالوا عندهم في السجن بحجرة النكور ...**»، رسالة من القائد علي المسفيوي إلى الحاج محمد اللبادي، 22 شعبان 1311 هجرية / 26 يناير 1897، مح. 126/92، خ. ع.، تطوان.

(4) – انظر : **مصطفى بوشعراء**، *التعريف ببني سعيد السلاويين وبنبذة عن وثائقهم*، ج.1، الرباط 1991، ص.ص. 84، 86، 88، 90.

(5) – **جرمان عياش**، م. س. ص. 210.

تحين الفرصة لحمل أهل بقيوة على أداء ما دفعه من التعويضات. غير أن البقيويين لم يعيروا أية أهمية لما يروج في الساحة الوطنية والدولية من أخبار، وكان همهم الوحيد هو الاستمرار في أعمالهم القرصنية ضد السفن الأجنبية، وهو ما تؤكده الرسالة التالية التي جاء فيها :

**« وسمعنا ممن يثاق به أنهم يصطادون غفلة في النصارى ليقبضوا منهم والآن سيدي إن أمكن لكم أن تنهوهم يردون بالَهُم منهم فلا بأس ربما يصدر منهم ذلك وتنشأ منه الفتنة لأنهم لا ينظرون إلى العواقب...»**[6]

وفعلا قام المخزن بمحاولات عدة لإقناع أهل بقيوة لوضع حد لاعتداءاتهم على السفن الأوربية، ولكن دون جدوى. فمن خلال الرسالة التي أرسلها أحد القواد إلى النائب اللبادي أكد له فيها أن أهل بقيوة لا ينفع معهم إلا القوة فقط لإجبارهم على الطاعة والانقياد للأوامر المخزنية [7].

وهكذا رغم النداءات الموجهة من طرف المخزن للبقيويين بالتوقف عن أعمالهم القرصنية، فإنهم أصروا على متابعة الانتقام ولو على حساب السفن الأوربية المارة بساحل الريف، وذلك بالهجوم عليها. إذ هاجموا سفينة فرنسية واحتجزوا فرنسيا عندهم، مما أدى بالدولة الفرنسية [8] إلى توجيه بارجة حربية من طنجة إلى ساحل بقيوة لمحاولة استرجاع أسيرها من قبضة أهل بقيوة [9]. ونظرا لما شكلته هذه الهجومات من خطورة على السفن الأوربية، وما قد أسفرت عنه من متاعب للمخزن، فإن الحاجب أحمد بن موسى وجه رسالة إلى النائب اللبادي يأمره فيها بوضع حد لتجارة التهريب التي كانت في الواقع أصل المشاكل التي تقع في المنطقة، وجاء في رسالته ما يلي :

**« (...) قد علمت ما عليه هؤلاء فساد بقيوة ومَدّ يد الترامي المتفاحش في مراكب الأجناس الريحية التي تأوي بشاطئ الريف وقد جاء** (كذا) **البحر عليها بالنهب والأسر والضرب بالبارود وما يترتب على ذلك من تكدير الخواطر وكثرة القيل والقال مع الأجانب، زيادة على**

---

[6] – رسالة القائد علي المسفيوي إلى النائب اللبادي، 22 شعبان 1314 هجرية، مح. 162/92، خ. ع.، تطوان.

[7] – نقتطف منها ما يلي : « (...) **اعلم رعاك الله أننا نصبناهم مرارا بعد مرار ولم يلتفت لقولنا ولا لكلامنا أحد لكونهم ليس فيهم رجل رشيد ... نطلب الله تعالى أن يعجل لنا بسطوة مولانا نصره الله عاجلا...**»، رسالة من القائد الحسن الجرجوري إلى النائب محمد اللبادي، 22 رمضان 1314 هجرية (1897)، مح. 180/92، خ. ع.، تطوان.

[8] – رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 11 دجنبر 1896، مح. 29/23، خ. ع.، تطوان. وأيضا : البرقية التي أبلغها وزير إسبانيا بطنجة إلى السيد ريفو القائم بأعمال فرنسا، مليلية 7 أكتوبر 1896، انظر : **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص. 64.

[9] –رسالة أحمد بن موسى إلى النائب اللبادي، 24 جمادى الثانية 1314 هجرية/28 نونبر 1896، مح. 24/23، خ. ع.، تطوان.

**المعاوضات التي يؤديها المخزن في عدة وقائع سلفت مع عدد من الأجناس ... ولا يخفى أن السبب الأقوى الذي ينشأ عنه ذلك هو انفتاح ذريعة خوض هؤلاء أهل الريف بالفلايك في البحر بين كُوسْطَانِهِم [10] وبين تطوان وطنجة وجبل طارق للروجان في كل المسائل الكَطْرَبَانْغْ والمعاملة فيها مع الأجانب، وقد تقدم إصدار الأوامر الشريفة لعامل طنجة وتطوان وفاس بنصب عيون الحراسة على من يخطر من هؤلاء الفساد والقبض على كل من يعثر عليهم منهم...»** [11]

وكالعادة واصل أهل بقيوة نشاطهم دون إعارة أية أهمية للأوامر المخزنية [12]، مما زاد من تأزم العلاقات بين المخزن والدول الأوربية [13].

ورغم الرسالة الموجهة إلى أعيان قبيلة بقيوة من طرف السلطان لإطلاق سراح السجناء الأجانب المحجوزين عندهم [14]، فإنها لم تلق أذانا صاغية. والسبب في ذلك حسبما تكشف عنه بعض الوثائق المخزنية يرجع إلى المؤامرة التي كانت تدبر في الخفاء من قبل نائب القنصل الفرنسي علال العبدي المقيم بتطوان [15]، الذي كان وراء عصيان أهل بقيوة للأوامر السلطانية. وذلك ما تؤكده الرسالة التالية :

**« (...) وصل كتابك المؤرخ بالرابع عشر من شهر الفارط مؤكدا لما قدمت الإعلام به من تصميم فساد بقيوة على عدم تسريح مساجين النصارى الذين تحت يدهم بسبب المكاتب الواردة عليهم من قبل من ذكرت بالإغراء على ذلك لأجل العلة المقصودة عند المعني طالبا تدارك علاج القضية بما يوصل لاستخلاص مساجين النصارى من يد هؤلاء الفساد إلى آخر ما**

---

(10) – كلمة إسبانية مشتقة من كلمة " costa "، وتعني الساحل.

(11) – رسالة أحمد بن موسى إلى النائب اللبادي، 24 جمادى الثانية 1314 هجرية/28 نونبر 1896، مح. 24/23، خ. ع.، تطوان.

(12) – رسالة القائد محمد أنفلوس إلى النائب الطريس، 24 ربيع الأول 1315 هجرية/23 غشت 1897، مح. 53/81، خ. ع.، تطوان.

(13) – توصل المخزن بشكاية من القنصل الفرنسي يطلب منه النظر في قضية المركب الفرنسي المنهوب سنة 1896 بالساحل الريفي، والتعجيل بتنفيذ التعويض. انظر : رسالة أحمد بن موسى إلى دولة فرنسا، 17 ربيع الأول 1315 هجرية/ غشت 1897، مح. 36/24، خ. ع.، تطوان. وكذلك، **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص.ص. 64-74.

(14) – رسالة سلطانية إلى أعيان قبيلة بقيوة سنة 1897، مح. 141/17، خ. ع.، تطوان.

(15) – رسالة سلطانية إلى النائب الطريس 7 جمادى الثانية 1315 هجرية/ 13 أكتوبر 1897، مح. 88/24، خ. ع.، تطوان.

**كتبت... وأن السبب في عدم اجتماع كلمتهم على التسريح هو ما عليه الوزانيون المستوطنون بتلك الناحية بإغراء الغير...»**[16].

ويتجلى لنا بوضوح من خلال النص أن الدولة الفرنسية كانت وراء كل ما يقع في المنطقة بواسطة متعاونيها المحليين [17]. ولولا هذه المساندة التي قدمتها فرنسا لبقيوة، لما تجرأت من وضع شروط مسبقة على المخزن مقابل تسريح المساجين المحتجزين عندها [18].

ونظرا للضغط المتواصل على السلطة المركزية من قبل الدول الأوربية لتأديب أهل بقيوة، وما عزمت عليه الدول من إرسال قواتها للساحل الريفي لوضع حد لتلك القرصنة إذا لم يتمكن المخزن من ذلك [19]. فالمخزن رغم اهتمامه بالقضية الريفية واستعداده لإرسال حركته إلى الريف لمعاقبة البقيويين، فإن الأحداث الواقعة في الناحية الوجدية حالت دون تمكنه من إرسال قواته إلى الريف [20] وهنا يكمن سر الضغط الفرنسي وحلفائه على السلطة المركزية من جراء ما يقع في الريف، لأن الهدف منه هو إضعاف وتشتيت القوات المخزنية المرابطة على الحدود المغربية الفرنسية بالناحية الشرقية، ليتسنى لدولة فرنسا وضع شروط تتماشى مع أهدافها في تلك المنطقة على المخزن.

هكذا أصبحت قضية المحتجزين الأوربيين من طرف بقيوة، من القضايا الصاخبة التي شغلت القناصلة. وحاولت الدول الأوربية النيل من المخزن والضغط عليه وتعميق الأزمة بينه وبين السكان، وكانت وسيلتها التركيز على التهريب على الشواطئ الريفية. وبعد فشل المخزن في سياسة الحوار

---

[16] – رسالة سلطانية إلى النائب الطريس، 23 جمادى الثانية 1315 هجرية/20 أكتوبر 1897، مح. 76/24، خ. ع.، تطوان.

[17] – حاولت فرنسا، بواسطة قنصلها دُو مُنبِلْ ( De Monbel )، إقناع السلطة المركزية بأن ما قام به علال العبدي هو محاولة منه لإقناع أهل بقيوة من أجل تسريح النصارى لتسهيل مأمورية المخزن الذي عجز عن ذلك، وأن المقصود من ذلك هو الصلاح والسعي في الخير، انظر : **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص. 116.

[18] – جاء في رسالة مخزنية، أنه « **وصل كتابك معلما بأنك لما حاولت تسريح مساجين أهل بقيوة الذين بطنجة والذين بحجرة النكور تعذ يد السبديول ليتوصل بذلك لتسريح النصارى كتبت لنائب السبديول باستعطافه للمساعدة على تسريح مساجين أهل الريف الذين بالنكور ولنائب النجليز في المساعدة على تسريح المقبوض عليهم من قبلهم من مساجين طنجة...**»، رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 28 جمادى الثانية 1315 هجرية/29 أكتوبر 1897، مح. 13/24، خ. ع.، تطوان.

[19] – رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 28 جمادى الثانية 1315 هجرية/29 أكتوبر 1897، مح. 13/24، خ. ع.، تطوان.

[20] – نفسها.

مع أهل بقيوة لتسريح الرهائن أصبح لزاما عليه أن يرسل قوات عسكرية لإنهاء النزاع القائم بينه وبين الدول الأوربية. وبذلك وجه السلطان ثلاثة من قواده الكبار مع فرقة عسكرية مع إرسال مكاتب موجهة لجل القبائل المجاورة لقبيلة بقيوة، يطلبهم فيها الوقوف إلى جانب المحلة المخزنية لتتمكن من إجبار بقيوة على إطلاق سراح المسجونين بالسلم أو بالقوة [21].

ويظهر أن هذه الالتفاتة المخزنية لقضية الريف، إن دلت على شيء، فإنما تدل على اهتمام السلطة المركزية بما يجري في المنطقة من جهة، ومن جهة ثانية عدم إعطاء الفرصة للأجانب للتدخل في شؤون رعيته [22].

## 1- الحملة المخزنية الأولى إلى قبيلة بقيوة بقيادة المولى عبد السلام الأمراني :

لما وصلت المحلة المخزنية بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني الذي كلف من طرف السلطان لمحاولة إطلاق النصارى المحجوزين عند قبيلة بقيوة، أمر القائد حمّو الوليشكي المعين على بعض قبائل الريف الأوسط بجمع المتطوعين من القبائل المجاورة والزحف بهم على القبيلة المذكورة، بعد أن فشل في إقناعهم لإطلاق سراح السجناء، وأداء تعويض عن ما نهبوه من المراكب الأوربية [23].

وأثناء الحصار المضروب على بقيوة، كتب القائد الحسن الجرجوري إلى النائب الطريس يخبره فيها عن حلول نائب القنصل الفرنسي علال العبدي بين ظهران أهل بقيوة قادما من تطوان. وسبب قدومه حسب بعض الوثائق المخزنية هو تحريض القبيلة على عدم استجابتهم للأوامر المخزنية ليعمق الهوة بين القبيلة والمخزن. ووصفه الحاجب أحمد بن موسى في إحدى رسائله بأنه هو السبب في إغراء بقيوة على العصيان، وذلك تمشيا مع مخطط الدولة الفرنسية التي تسعى إلى خلق المصاعب للمخزن في تلك الناحية، وأمر قواده في المنطقة ببذل الجهود لمنع السكان من الاتصال به [24].

---

(21) – رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 4 جمادى الثانية 1315 هجرية/31 أكتوبر 1897، مح. 88/24، خ. ع.، تطوان.

(22) – انظر : الرسالة التي تلقاها أحمد بن موسى من المقيم بأعمال فرنسا بتاريخ 4 يونيو 1898، والتي أوردها **مصطفى بوشعراء**، م. س. ص.ص. 117-118.

(23) – رسالة القائد حمو الوليشكي إلى النائب الطريس، 13 شعبان 1315 هجرية/ 28 دجنبر 1897، مح. 145/81، خ. ع.، تطوان.

(24) – رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 17 شعبان 1315 هجرية/11 يناير 1897، مح. 125/24، خ. ع.، تطوان.

وإذا كانت الدول الأوربية تسعى جاهدة لإضعاف سلطة المخزن في تلك المنطقة، فإن بعض الممثلين المخزنيين جهلا منهم بالمخطط الاستعماري الهادف إلى إضعاف السلطة المركزية، فإنهم ساهموا أيضا في تعميق الخلاف بين السكان والمخزن. فالقائد حمو الوليشكي مثلا، عوض تنفيذ الخطة المرسومة له من طرف السلطة المركزية، بدأ يستغل منصبه لجمع الثروة لصالحه، ضاربا عرض الحائط المشاكل التي يتخبط فيها المخزن من جراء " القرصنة " الريفية. فقد اتصل بحاكم النكور وطلب منه تزويد عسكر المخزن بالمؤونة، مدعيا أن المحلة أصبحت عرضة للضياع بسبب نقص المواد الغذائية. وأمام الأعمال التي قام بها القائد المذكور، وجهت المراسلات إلى السلطة المركزية تستنكر فيها تصرفات القائد حمو الوليشكي وما يمكن أن ينتج عنها من احتمال دخول قبيلة بقيوة في حماية الدولة الفرنسية [25]. وقد تلقى القائد الوليشكي رسالة من أحمد بن موسى يحذره فيها من العودة إلى ما من شأنه تشويه صورة المخزن في تلك المنطقة مذكرا إياه بالمهمة الأساسية التي عين من أجلها، ألا وهي القيام بمعاقبة بقيوة وإجبارها على تنفيذ الأوامر السلطانية [26]. ولوضع حد للاتهامات الموجهة للقائد حمو الوليشكي قام بالهجوم على فخذة " إزمورن". ولكن هذا الهجوم لم يسفر عن أية نتيجة تذكر، نتيجة المقاومة الشديدة التي أظهرتها قبيلة بقيوة نظرا لتوفرها على أسلحة حديثة حصلت عليها عن طريق التهريب من جبل طارق [27]. وأمام تأزم الوضعية قرر السلطان حسم الموضوع نهائيا بإرسال قوات برية، وأخرى بحرية، للقضاء على " المتمردين ".

---

[25] – رسالة مولاي عرفة إلى أحمد بن موسى، 23 شعبان 1315 هجرية/17 يناير 1898، مح. 414/11، خ. ح. وهناك مراسلات أخرى في نفس الموضوع بالخزانة الحسنية في : كناش 432، ص.ص. 30-73.

[26] – رسالة أحمد بن موسى إلى القائد حمو الوليشكي، 5 رمضان 1315 هجرية/28 يناير 1898، كناش 432، خ. ح. ص. 29.

[27] - ET-TABYI, Retazos de Historia Marrqui, Tetuan, 1955, p. 252.

## 2- الحملة المخزنية الثانية بقيادة بوشتى البغدادي :

جل الذين تناولوا قضية القرصنة لقبيلة بقيوة، اعتمدوا على الرواية الشفوية بالدرجة الأولى [28]، وهناك من اعترف بصعوبة الإحاطة بكل التفاصيل [29]. وانطلاقا من هذا الطرح، سنحاول تسليط الأضواء على هذا الموضوع الشائك بالاعتماد على الوثائق المخزنية.

### 2-1 ) استعداد المخزن لتأديب بقيوة :

بدأ المخزن منذ شهر يناير من سنة 1898 يستعد لتأديب القبيلة وإجبارها على الطاعة، وذلك بعد أن استنفذ جميع الوسائل لإنهاء هذه النازلة. وكتب السلطان إلى جميع القبائل المجاورة لمساعدة المحلة السلطانية بالهجوم على بقيوة. غير أن بعض القبائل امتنعت من الانضمام إلى المحلة بدعوى التحالف الذي كان بينها وبين القبيلة البقيوية. فقبيلة بني يطفت رفضت المشاركة في الهجوم على جيرانها رغم النداء الموجه لها من طرف السلطان [30]. لكن الهجوم على بقيوة لم يكن بالشيء السهل بالنسبة للمحلة، بسبب مناعة أراضيها، وما كانت تتوفر عليه من أسلحة حديثة، بالإضافة إلى بعض المشاكل التي اعترضت الحركة النازلة بقبيلة بني ورياغل.

### 2-2) مشاكل المحلة :

بمجرد وصول الحركة المخزنية إلى قبيلة بني ورياغل، بدأ قوادها يراسلون السلطة المركزية يطلبون فيها إمدادهم بالمؤونة. ولا ندري سبب هذا الخصاص. فربما يعود ذلك في نظرنا إلى مدى قوة قبيلة بقيوة من جهة، وعدم تلقيها المساعدة اللازمة من طرف القبائل المجاورة من جهة ثانية. ورغم النداء الموجه من قبل القواد إلى أمناء مليلية لتمويل الجيش، فإنهم لم يجدوا آذانا صاغية

---

(28) – نذكر منهم على سبيل المثال :

- **Jose Ojeda del RINCON**, *La cabila de Beni Tusin*, Tetuan, 1954.
- **D. HART**, *The Aith Waryaghar of Moroccan Rif*, Tucson University of Arizona Press, 1976.

(29) – الطبجي، م. س. ص. 253.

(30) – رسالة سلطانية إلى قواد بني يطفت، 2 صفر 1316 هجرية/22 يونيو 1898. انظر : الطبجي، م. س. ص. 264. وتفصح رسالة أخرى صادرة عن السلطان إلى أعيان قبيلة بني يطفت، أن اليطفتيين طلبوا العفو من السلطان عن ما أصدر منهم من عدم الاستجابة للأوامر السلطانية جاء فيها : « **وصل جوابكم لحضرتنا الشريفة حول ترككم الإهمال عنكم، والرجوع عن ما أصدر منكم تجاه فساد بقيوة ... وأنكم مستعدون للانقياد والطاعة، وندمتم أمام الله عما قمتم به، وأنكم تطلبون العفو، وأن لا تعاقبوا عن ما صدر منكم. نستحسن هذا منكم والنادم على خطأه كمن لم يرتكبه** ...»، رسالة مؤرخة في 26 جمادى الأولى 1316 هجرية/12 أكتوبر 1898، ترجمناها بتصرف عن : **الطبجي**، م. س. ص. 265.

لمراسلتهم [31] بسبب ما كانت تعاني منه ديوانة مليلية من عجز في مداخيلها [32]. وكان الحل الوحيد لهذا المشكل هو اللجوء إلى أمناء طنجة وتطوان وفاس لتمويل المحلة.

**2-3) فتح الحوار مع أهل بقيوة :**

وانتظارا لوصول المدد للمحلة، دخل عم السلطان مولاي بوبكر بن الشريف والقائد بوشتى البغدادي في مفاوضات مع أهل بقيوة لكسب الوقت، بعد أن تيقنا بعدم جدوى مقاومة القبيلة بالسلاح. واتفق رؤساء الجيش على كتابة رسالة مغلوطة باسم السلطان وقراءتها على أهل بقيوة لتمويه القبيلة أن السلطان لم يرسل المحلة قصد الهجوم عليها، بل أرسلها فقط للدخول في الحوار معهم للوصول إلى حل يرضي الطرفين [33].

وبعد تهييئ الرسالة حل القائد بوشتى البغدادي مع بعض قواد القبائل الريفية بسوق أحد الرواضي، وتلا عليهم الرسالة المذكورة، وأعطى لهم أجل ثمانية أيام للتشاور فيما بينهم والرد عليه [34]. لكن أعيان بقيوة لم يقتنعوا بما جاء في الرسالة، واعتبروها مكيدة للإيقاع بهم فقط. وهذا ما أكده العربي اللوه، عندما أشار في مؤلَّفه [35]، بأن والده، علي اللوه [36]، حذر رجال القبيلة عندما زارهم بوشتى البغدادي وقال لهم :

**« إنكم إن أقدمتم على الاستسلام الأعمى فسوف تتركون نساءكم أيامى، وأبناءكم وأموالكم نهبا للعوص المعتدين، وقبل هذا وبعده سوف تجنون على قبيلتكم عارا لا يندمج أبد الدهر...»**

وأضاف قائلا :

**« أطيعوني هذه المرة واعصوني بعدها في كل شيء...»** [37].

---

[31] – رسالة القائد محمد القناوي إلى النائب الطريس، 23 ذي الحجة 1315 هجرية/15 ماي 1898، مح. 99، خ. ع.، تطوان.

[32] – رسالة من القائد محمد اليعقوبي والقائد عمر الصفاري إلى النائب الطريس، 18 ذي القعدة 10/1315 أبريل 1898، مح. 156/98، خ. ع.، تطوان.

[33] - **D. HART**, *The Aith Waryaghar* ..., p.355.

[34] – رسالة من مولاي بوبكر والقائد البغدادي إلى النائب الطريس، متم ذي الحجة 1315 هجرية/21 ماي 1898، مح. 138/81، خ. ع.، تطوان.

[35] – **العربي اللوه**، *المنهال في كفاح أبطال الشمال*، تطوان، 1982، ص. ص. 93-94.

[36] – يعتبر علي اللوه من أعيان قبيلة بقيوة ومن أغنيائها، له أملاك كثيرة في القبيلة وفي تطوان، وكان من المتعاملين النشيطين مع الإسبان، شارك في حرب الريف التحريرية التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي، توفي سنة 1927.

[37] – العربي اللوه، م. س. ص 94.

إلا أن النداء الذي وجهه اللوه لم يلق إجماعا من طرف الجماعة، وخاطبه أحد الأعيان قائلا :

**« إنكيا الحاج علي تدعونا إلى معصية الله بعدم تقديمنا الطاعة والولاء للسلطان، وأننا لا نعصي السلطان لنطيعك فيجب علينا أن نقوم بتقديم طاعتنا المصحوبة بالهدايا إلى مندوب السلطان، حتى نكون قد قمنا بواجبنا الديني...»** [38].

وقبل حلول الموعد المتفق عليه للرد على الرسالة التي تلاها البغدادي على أهل بقيوة، فر عدد من أعيانها عن طريق حصن بادس في اتجاه مدينة تطوان أمثال الحاج علي اللوه، والسيد مسعود، والسيد محمد بورجيلة [39]. ويظهر أن هروب هؤلاء الأعيان لم يكن القصد منه الفرار من القبيلة، بل كان الغرض منه الاتصال بنائب القنصل الفرنسي علال العبدي لإخباره عن مجريات الأحداث التي استجدت بالمنطقة بوجود المحلة المخزنية، وما يجب عمله في هذه الظروف الحرجة بالنسبة لبقيوة. وقد شجعهم النائب العبدي على مقاومة القوات السلطانية، ووعدهم بأن قنصل فرنسا بطنجة مستعد لإرسال سفينة فرنسية إلى ساحل بقيوة لنقل السكان على متنها في حالة تعرض القبيلة لخطر الهجوم المخزني [40].

### 2-4) بداية الهجوم على بقيوة :

عندما تأكد لدى أهالي القبيلة بأن المحلة بدأت تحشد قواتها على حدودها أخذوا بدورهم يستعدون لكل هجوم محتمل [41]، بينما بادر عدد لا يستهان به من أعيان بقيوة مع بعض رجالهم باللجوء إلى مركز إقامة المحلة المخزنية بأجدير من قبيلة بني ورياغل، لتقديم الطاعة، وأداء ما وظف عليهم من الذعائر. لكن البغدادي – بعد إدخالهم إلى الخيمة المنصوبة للقيادة – فاجأهم بالفتك

---

[38] – نفسه.

[39] – تأكد هذا الخبر من الرسالة التالية التي جاء فيها : « (...) **ثم سمعنا وتحققنا أن كبراءهم مثل ج. اللوه وغيره ركبوا بحرا وفروا لثغر تطوان** ...»، رسالة من القائد بوشتى البغدادي إلى النائب الطريس، متم متم ذي الحجة 1315 هجرية/21 ماي 1898، مح. 138/81، خ. ع.، تطوان.

[40] – انظر : **الطيجي**، م. س. ص. 253.

[41] – تلقى القائد البغدادي ومولاي بوبكر رسالة من أحمد بن موسى يأمرهما فيها : « **بزيادة التضييق ببقيوة وعدم رفع اليد عليهم حتى لا يتركوا منهم دارا ولا من ينفخ نارا ومن عثر من القبائل المذكورة على أحد منهم بأت به إليكم** ...»، رسالة مؤرخة في صفر 1316 هجرية/ 22 يونيو 1898، كناش 432، خ. ح. ص. 324.

بهم والقبض عليهم [42]. وأسفرت المواجهة حسب بعض الوثائق على مقتل خمسة عشر رجلا من أهل بقيوة، ومقتل جندي واحد وخمسة من الجرحى في صفوف القوات المخزنية [43].

وما أن انتشر خبر هذه الحادثة، واستعداد الجيش للهجوم على القبيلة، أصدر بعض رجال بقيوة تعليماتهم للسكان بالرحيل إلى القبائل المجاورة، وحمل ما يمكن حمله من متاع وماشية [44]. وبقي الرجال متحصنين في الجبال لمنع تقدم القوات المخزنية بسرعة حتى يتمكن السكان من الفرار. وفي صباح اليوم التالي من الحادث، وقع هجوم عام على القبيلة من طرف عسكر المخزن والمتطوعين من رجال القبائل المجاورة، فارتكبوا جميع أنواع العنف والقسوة، وانتهكوا حرمة الضريح سيدي علي بن حسون الذي كان ملجأ لبعض الأسر الفارة، رغم خروج شرفاء الزاوية بالصبيان والنساء والرايات البيضاء لملاقاة البغدادي [45].

وهكذا سحقت قبيلة بقيوة، وأرسل المسجونون إلى جهات مختلفة من المغرب [46]، إلا أن عددا من البقيويين استطاع الفرار إلى القبائل المجاورة، بل وحتى إلى الجزائر [47]. وبقي الجيش المخزني بقصبة سْنَادَة حتى تستقر الأمور لصالح المخزن، وبعد الحملة العسكرية مباشرة تلقى القائد البغدادي رسالة سلطانية جاء فيها :

**« (...) وصل كتابك بتوجيه مكاتيب من عند عمال الريف، وبما بلغك من أن المحلة السعيدة استأصلت قبيلة بقيوة وتركت دورهم بلا قاع. وصار بالبال أما المكاتيب المذكورة فقد وصلت محلها وطيه تصلك أجوبتها لتوجهها لكبراء المحلة ثمة بقصد حيازة**

---

[42] – أشار البغدادي في رسالة موجهة إلى النائب الطريس، أنه : « **لما وطوا للمحلة السعيدة بقصد الدفع اغتنمنا الفرصة فيهم وقبضنا على مائة مسجون واثنين وعشرون مسجونا.** »، مؤرخة في 8 محرم 1316 هجرية/29 ماي 1898، مح. 3/32، خ. ع.، تطوان.

[43] – رسالة القائد محمد بن عبد السلام القناوي إلى النائب الطريس، محرم 1316 هجرية/29 ماي 1898، مح. 4/82، خ. ع.، تطوان.

[44] – عن تفاصيل الأحداث، راجع : **العربي اللوه**، م. س. ص. ص. 93-99.

[45] – نفسه، ص. 94.

[46] – هناك عدة وثائق تخص قضية الأسرى، نذكر منها :

– رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 12 صفر 1316 هجرية/2 يوليوز 1898، كناش 432، خ. ح. ص. 323.

– رسالة أحمد بن موسى إلى النائب الطريس، 3 ربيع الأول 1316 هجرية/18 غشت 1898، مح. 47/25، خ. ع.، تطوان.

[47] – راجع الجانب المخصص للهجرة في الفصل الثاني من دراستنا التي أخذنا منها هذا المقال.

**مالهم منها ودفع الباقي لأصحابه، وأما استيصال بقيوة فيما كسبت ايديهم ولا يظلم ربك أحدا فإنهم لم يقصروا في أنواع الفساد حتى أوقعوا أنفسهم في مصارع الانتقام وذلك سنة الله فيمن كفر بنعمة الله ولم يشكرها... وقد صدر الأمر الشريف لكبراء المحلة بالبقاء ماكثين في معلهم ( إزمورن) الذي هم به الآن وسوغ لهم نصره الله الانتقال للقصبة المخزن (سنادة) التي بقبيلة بني يطفت في مجاورة بلاد بقيوة ان اقتضته المصلحة...»** [48].

من خلال ما استعرضناه من أحداث بقيوة، يمكن استخلاص النتائج التالية :

أ- أن ما حدث ببقيوة كانت له علاقة أكيدة بالمناورات الفرنسية التي جعلت بعض العناصر بالقبيلة يتمردون على المخزن [49].

ب- أن السياسة المخزنية بالمنطقة لم تتمكن من التغلب على العوامل الانقسامية المحلية والمتمثلة في الأحلاف واللفوف التقليدية، ذلك أن قبيلة بني يطفت رفضت المشاركة في الحركة، على عكس بني ورياغل التي وجدتها فرصة سانحة لتصفية حسابات قديمة مع قبيلة بقيوة [50].

ج- بعد العفو السلطاني على قبيلة بقيوة بالرجوع إلى تعمير قبيلتهم، بدأت العلاقات تتوطد أكثر من أي وقت مضى بين أهالي القبيلة والحاميات الإسبانية بالنكور وبادس.

---

[48] - رسالة احمد بن موسى إلى مولاي بوبكر والقائد البغدادي، 2 جمادى الثانية 1316 هجرية/18 شتنبر 1898، كناش 439، خ. ح. ص. 10.

[49] - راجع في هذا الصدد الوثائق المخزنية التي تزخر بها دور الوثائق الفرنسية التي نشرها **عبد العزيز خلوق التمسماني**، *"وثائق مغربية حول حركة التهريب بقبيلة بقيوة سنة 1898"*، مجلة دار النيابة، السنة 6، عدد 23-24، 1989، ص. ص. 95-96.

[50] - وجد سيدي أحمد الخمليشي فرصة سانحة للانتقام من المخزن، نتيجة ما عاناه من السجن أيام مولاي الحسن بسبب ما قام به من تزوير. كما أنه اعترف بالثائر بوحمارة في عهد مولاي عبد العزيز، انظر : **الطيجي**: م. س. ص. 256.

# المسألة المعدنية بالريف والتهافت الأجنبي

## ( 1912 - 1880 )

ذ. عبد الحميد الرايس

الحسيمة

### مقدمة

على الرغم من أهمية المعدن في إثارة الأطماع الأجنبية بالمغرب قبل الحماية وبعدها، فإنه لم يحض باهتمام كاف في الدراسات التاريخية الوطنية، فبقيت بعض الفصول والنقط الغامضة التي تحتاج إلى استجلاء كانعكاسات العمليات الاستكشافية والاستثمارية للمعادن على المستوى المحلي، أي الرأي العام القبلي، وعلى السلطة المركزية ورد فعلها، خاصة إذا علمنا أن هذه المحاولات التنقيبية قد تمت في مرحلة حساسة من تاريخنا الوطني الممتد من نهايات القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، والذي اتسم بتعقد الظروف الدولية، وتنامي الحركة الاستعمارية، ودخول المغرب في دائرة الأسواق العالمية التي تتنافس حولها القوى الأوربية.

تهدف مقالتنا هاته إلى إبراز أهمية دور المعادن كقطاع حيوي شكل عاملا خطيرا في توجيه - وإن لم يبرز بشكل واضح وملفت - النشاط الاقتصادي والسياسي، وذلك بتسليط بعض الأضواء على الحوادث المرتبطة بهذه المسألة التي تخص منطقة الريف تحديدا في المرحلة السابقة على الحماية.

### 1 - حول بدايات الاستكشاف المعدني :

تتيح قراءة المراجع التاريخية الوقوف على عدة إشارات مقتضبة ومتفرقة تتحدث عن مواقع المعادن في مناطق مختلفة من المغرب، وبخصوص معادن منطقة الريف أشار محمد الحسن الوزان بصدد حديثه عن إحدى نواحي مملكة فاس في بداية القرن السادس عشر، وبالضبط قبيلة آيث سعيد في الريف الشرقي «... **لكل عامل في المعادن داره قرب المنجم وحاشيته ومعمله الذي يصفي فيه الحديد، وينقل التجار الحديد إلى فاس في شكل سبائك لأن عمال المعادن لا يعرفون كيف يحولونه إلى قضبان**» [1].

---

[1] - **الحسن بن محمد الوزان**، وصف *إفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، ج.1، 1980، ص.268.

إذا اعتمدنا هذا المثال نتبين أن عملية استخراج المعادن كانت معروفة ومنتشرة في القرن السادس عشر على الأقل بمنطقة الريف، وكان الإنتاج يتجاوز الاستهلاك المحلي ليصدر الفائض منه إلى جهات أخرى، ولو بشكل خام لضعف التقنيات التحويلية التصنيعية.

وابتداء من القرن التاسع عشر سيلاحظ ازدياد الاهتمام بالمعادن المغربية، ففي عهد السلطان المولى عبد الرحمان « **كان أحمد بوضربة الجزائري، الذي كانت له سنة** 1846 **اتصالات بمصالح يهودية بمرسيليا، يستغل مناجم النحاس بأحواز تطوان، وربح في ذلك أموالا طائلة** » [2].

وفي عهد السلطان المولى الحسن الأول تزايدت حاجيات السوق الأوربية للمعادن، والمواد الأولية، فنشطت عمليات البحث التنقيبي لتحديد مواقع المعادن بشكل مكثف وواسع، كما سيتضح من خلال الوثيقتين التاليتين:

الوثيقة الأولى مؤرخة بتاريخ ذي القعدة 1299 موجهة من المولى الحسن الأول إلى نائبه بطنجة.

« **خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله، فقد دعت الحاجة لقدوم المهندس سيلبه النجليزي ... لحضرتنا العالية ... بقصد اختبار بعض المعادن بقرب مراكش** » [3].

الوثيقة الثانية مؤرخة بتاريخ 5 ربيع الثاني 1302 هجرية موجهة من نفس السلطان إلى نفس النائب.

« **خديمنا الأرضى ... وصل كتابك بأن القبطان وُرْنْ الانجليزي عثر على معدن في قبيلة أنجرة بين تطوان وطنجة ... ودار بينك وبينه والباشدور ما شرحته، ولما رأيت غاية الأمر إنما هو بيع تراب ووسقه في إحدى المراسي ظهر لا بأس فيه، فطالبهم بجعل بْلاَنَات متعددة ليدفع لكل واحد من النواب مثال منها والسلام** » [4].

يلاحظ من تاريخ الوثيقتين أنهما بعثتا من طرف السلطان المولى الحسن الأول إلى نائبه بطنجة السيد محمد بركاش بفارق زمني يبلغ ثلاث سنوات، إذ أن الأولى كتبت بتاريخ 7 أكتوبر 1882، والثانية في 22 يناير 1885، وندرك كذلك أن النائب السلطاني محمد بركاش هو المفوض من طرف المخزن في التباحث، واستقدام المنقبين على المعادن في مختلف نواحي المغرب. أما إقامة

---

(2) – مصطفى بوشعراء، *الاستيطان والحماية بالمغرب*، المطبعة الملكية، ج.1، ص.284.

(3) – عبد الرحمان ابن زيدان، *اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*، المطبعة الوطنية، ط.1، 1930، ج.2، ص.461.

(4) – نفسه، ص.462.

النائب السلطاني بمدينة طنجة، فلها دلالة بالغة الأهمية، أملتـــها ظـــروف ومحـــددات موضوعيـــة، باعتبارها من أهم الموانئ المغربية المتميزة بموقعها القريب من أوربا، ولهذه الأسباب الاســـتراتيجية والسياسية وافق المخزن على جعلها مقرا لدار " النيابة السعيدة "، وللتمثيليات الديبلوماسية الأجنبيـــة التي استغلتها كمنطلق لسياساتها الاستقطابية، ومركزا للصفقات والتبادلات التجارية، حيث عملت تلك الدول على تشجيع استثماراتها بإنشاء وكالاتها التجارية التي تعززت في مرحلة لاحقة بإنشاء بنـــوك متعددة، في جو من التنافس بين مختلف القوى المستهدفة للتغلغل الاقتصادي بالمغرب.

وعلى الرغم مما يبدو من خلال الوثيقة الأخيرة من انحياز المخزن لصـــالح إنجلـــترا، فإنـــه حاول أن ينهج سياسة متوازنة إزاء كل الأطراف الأوربية. فبعد أن بادر السلطان المولـــى الحســـن الأول إلى إرسال بعثات تتضمن مختصين بشؤون المعدن للتكوين في أوربا [5]، عمد إلى إطلاع هـذه الأطراف على نماذج من التصاميم – أو " البلانات " كما جاء في الوثيقة – المتوفرة لديـــه، وذلـــك حفاظا على سياسة الحياد تجاه التمثيليات الديبلوماسية بطنجة من جهة، وحتى يتســـنى لـــه اختيـــار الطرف الأنسب الذي سيحظى بامتياز استغلال الثروة المعدنية بما يعود بمصلحة أكثر لفائدة المخـــزن من جهة ثانية.

## 2 – شافانياك وبداية قضية معادن الريـــف :

استقر الفرنسي الكونت موريـــس دي شـــافانياك Le Comte Maurice de CHAVAIGNAC بمدينة طنجة سنة 1882، وباشر فيها أعماله التجارية وأنشطته المختلفة كالصحافة وسياسة الاستقطاب السياسي «... **كان له عدد من المحميين والحماسرة – المغاربة – بلغوا بطنجة وحدها نحو تسعة عشر فردا**» [6].

قام شافانياك سنة 1883 بنفس المدينة بعقد صفقة شراء أراضي تحتوي على المعادن واقعـــة بجبل حمام بقبيلة آيث ورياغل بالريف الأوسط مع الشريف حمو أخمليش.

وفي تلك المرحلة التاريخية كانت مدينة طنجة تشهد حركة نشيطة لعمليات التجسس، تقوم بها التمثيليات الديبلوماسية الأوربية فيما بينها، في إطار التنافس على تحقيق المكتسبات والامتيازات.

وقد سجلت بعض الكتابات أن إسبانيا كانت تنظر بعين الريبة إلى تحركات الكونت بطنجـــة، وتترصد خطواته في محاولة لكشف مخططاته وبرامجه. يقول " خـــيرونيمو بيكـــر" Jerónimo BEKER : «**لم يفهم بشكل جيد آنذاك ولم يتم بشكل كلي، غير أن رحلة الكونت إلى**

---

[5] – **محمد المنوني**، *مظاهر يقظة المغرب الحديث*، مطبعة الأمنية، ج.1، الرباط، 1973، ص.127.

[6] – **مصطفى بوشعراء**، م. س، ج.4، ص.1528.

**الريف وشراءه بعض الأراضي هناك ورحلته من وجدة إلى فاس عبر منطقة الريف الشرقي، جعلت الجميع يعتقد أن ثمة أمور خطيرة تنظم في الخفاء»** [7].

كان مبعث القلق بالنسبة لإسبانيا هو المجال الذي يتحرك ضمنه الكونت، أي منطقة الشمال المغربي الذي كانت تعتبره إسبانيا مجالها الحيوي، حيث تتوفر على نقط استراتيجية موزعة على طول الساحل المتوسطي، ابتداء من مليلية إلى سبتة مرورا بالجزر المستعمرة، تتخذها كمنطلقات لعملية التغلغل السلمي بنسج علاقات تجارية تبادلية مع ساكنة المناطق المجاورة لها، تمهيدا لتنفيذ مشروعها الاستعماري في اللحظة المناسبة.

وعن دور الريفيين في توريط شافانياك في شراء معادن جبل حمام، وانعكاسات ذلك، يذهب الإسباني " مالدونادو "MALDONADO إلى القول : **«لولا عملية التمايل التي قام بها الريفيون بإيهام الكونت دي شافانياك باحتواء جبل حمام على معادن نفيسة، لم يكن لأحد أن يطلع على ذلك ويعلم بوجودها، فحتى الطباخ الإسباني المرافق لشافانياك في رحلته، لم يستطع أن يتوصل إلى معلومات في الموضوع»** [8].

يمكن القول حسب هذه الإشارة أن عملية البيع تمت في جو من السرية والكتمان، ولم يتسرب عنها خبر إلا حين دخولها طور التنفيذ. لكن بالنسبة للريفيين القريبين من جبل حمام فقد كانوا لا يشكون في تواجد معادن بجبلهم.

أما فيما يخص وصف الكاتب للبيع بكونه عملية تدليس وغش من جانب الريفيين، فهو حكم قيمة لا غير، إذ يتبين من الوثائق المخزنية، وبعض الكتابات الأجنبية عكس ذلك : **«تلقى السلطان رسالة من أمين ديوانة مليلية يخبره فيها عن تواجد القائد العام علي الوريا غلي مع أولاد أحمليش، ومعهم ستة أحمال من تراب جبل حمام متوجهين إلى طنجة...»** [9]. هذا القول لا يدع مجالا للشك من أن الكونت شافانياك لم يبرم صفقة الشراء إلا بعد اطلاعه على عينات من تراب المعدن المذكور، وتيقنه من احتوائها على المعدن، فلا مجال للحديث عن عملية نصب واحتيال.

---

[7] - **Jerónimo BEKER**, *España y Marruecos*, Madrid, 1903, p.224.

[8] - **Eduardo MALDONADO VAZQUEZ**, *El Rogui*, Imprenta Olimpio, 1952, Ceuta, pp. 413-414.

[9] – رسالة مخزنية من الأمين محمد بن أحمد العسري إلى المولى الحسن الأول بتاريخ 3 صفر 1301، الموافق 4 دجنبر 1883، الخزانة الحسنية بالرباط؛ أوردها الأستاذ **عبد الرحمان الطيبي**، *المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية، قبائل ساحل الريف الأوسط من 1860 إلى 1912*، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1993، ج.2، ص. 532. (غير منشور).

فالكونت كان مغامرا مولعا بشراء الأراضي بمختلف نواحي المغـرب، «**فقد استغل شافانياك الضائقة المالية واحتياجات الشريف عبد السلام الوزاني للأموال، فاشترى منه سنة** 1884 **بعض ملكياته بسهل الغرب** ...» [10].

## 3 - أطراف عملية البيـــع :

**أحمد أخمليش** : هو أحد الطرفين الذي باشر عملية بيع المعدن لشافانياك. لكن ثمة غمـــوض يكتنف هوية هذه الشخصية. فتارة يرد في بعض الوثائق تحت اسم " حمو" أخمليش، وتـــارة أخـــرى تذكره المراجع باسم " أحمد" أخمليش. وحتى نوضح هذا اللبس، نورد هنا نصين يكشفان أن الأمـــر إنما يتعلق بنفس الشخص.

**النص الأول** :

«... **إن الحاج حمو كان قد نزلت عليه حق وسجن على يد عامل فاس حتى تشفع له بعض المرابطين وسرحه، ثم بلغ لشريف علمنا أنه عازم هو وإخوته على بيع أرض لهم بجبل حمام في بني وريا غل فيها المعدن للأجنبي، فنأمرك أن تضرب على أيديهم في ذلك لكون بلاد المغرب كله للمخزن، وتصرف الساكنين فيه إنما هو على وجه المنفعة التي عليها** ...» [11].

**النص الثاني** لصاحبه مالدونادو[12]، وفيه يذكر أن أحمد أخمليش هو أخ سيدي محمد صديـــق أخمليش. كما يتبين أن أحمد المذكور قد درس في مرحلة شبابه بسوس، حيث اكتسب الولع والخوض بالكيمياء، وتعلم طريقة تذويب وصهر المعادن، وتزوير النقود، كالفئة النقدية المسماة آنذاك " نـــص الربع"، والتي كانت تعادل خمسين سنتيما عملة إسبانية. وهذا ما سبب له حسب الكـــاتب الاعتقـــال ودخول السجن بفاس.

القائد **علي الورياغلي** : شارك إلى جانب الشريف أحمد أخمليش فـــي صفقـــة البيـــع لفـــائدة شافانياك، بحكم أن المعدن المذكور واقع في دائرة نفوذه، والتبس اسمه أيضا فـــي الكتابـــات التـــي تطرقت لهذا الحدث. فقد اكتفى موليراس MOULIERAS بالإشارة إلى قائد آيث أدرار، دون تحديـــد

---

[10] - **Manuel FERNANDEZ**, *España y Marruecos en los años de restauración (1875-1894)*. Madrid, 1985, p.164.

[11] - رسالة سلطانية إلى القائد علي الورياغلي في 1 ربيع الأول 1301 / 31 دجنبر 1883، كنـــاش 348، ص.135. أوردها **عبد الرحمان الطيبي**، م. س، ص. 532.

[12] - **ET-TABYI**, *Retazos de historia Marroquí*, editora marroquí, Tetuan, 1955, p.250.

دقيق للمعني بالأمر. أما هارت D.M. HART [13]، فيدعوه بعلي بن يحيى. في حين أن الوثائق المكتوبة والشفوية تذكره باسم القائد علي بن عمر، كما تثبت الوثيقة التالية :

**«الحمد لله وحده ... فاعلم حفظك الله أن إيالة القائد مسعود المتوفى رحمه الله، وهم بنو حذيفة، وبنو أبي عياش واردين على شريف حضرتكم، فقد اجتمع رأيهم على أن يقدموا أحد أعيانهم، اسمه الحاج علي بن السي عمر، من أولاد عمر بن سعيد، فرقة من بني حذيفة، كما أن كبراءهم قادمون صحبة الرجل المذكور، فلم يبق بينهم خلاف في اتفاقهم على الحاج علي المذكور، والنظر في هذا كله لسيدنا المنصور بالله وعلى المحبة والمودة والسلام»** [14].

## 4 - حادثة شافانياك :

بعد إبرام شافانياك عقد شراء أرض المعدن بجبل حمام **«وصل بحرا إلى جزيرة بادس بتاريخ** 14-01-1884 **مرفوقا بزوجته الكونتيسة** La condesa. **وقد حمل معه الحديد من الرسائل الموجهة إلى حاكم الجزيرة، وكذا رسالة من شريف وزان موجهة إلى أعيان القبائل المجاورة يطلب منهم تقديم العون والدعم له للوصول إلى موقع المعادن»** [15].

اقترنت حادثة المعادن في أذهان الذاكرة الشعبية للريف باسم " الكونتيسة "، فأصبح يؤرخ لهذا الحدث بكونه عام " الكونتيسة " التي رافقت زوجها إلى الريف. وقد كان هذا الأخير يدرك صعوبة اختراق أرض الريفيين للوصول إلى منطقة المعادن. لذا قام بتهييئ أولي يتمثل في الحصول على رسائل وساطة يقدمها لبعض الأطراف لمساعدته على تحقيق هدفه، منها ما وجه إلى الحاكم الإسباني في جزيرة بادس، ومنها الموجهة إلى أعيان القبائل المجاورة مكتوبة من طرف الشريف سيدي عبد السلام الوزاني الذي لا يخفى نفوذه وتأثيره الروحي على المنطقة، والتي كان قد زارها في فترة سابقة [16].

---

[13] - **David Montgomery HART**, *The Ait Waryaghar of the Morroccan Rif*, Tucson, Univer. of Arizona, 1976, p.360.

[14] – رسالة من محمد الحضري إلى الأمير مولاي الأمين بن السلطان مولاي عبد الرحمان بتاريخ 22 محرم 1297 الموافق 5 يناير 1880، أوردها **عبد الوهاب بن منصور**، مجلة الوثائق، المجموعة السادسة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، وثيقة رقم 747، ص. 35.

[15] - **ET-TABYI**, *Retazos* ..., p. 250. (الترجمة من طرفنا)

[16] – حول شخصية الشريف عبد السلام الوزاني، انظر : **عبد الحميد الرايس**، "*سوسيولوجيا الأسواق النسائية في الريف*"، مجلة حوليات الريف، العدد الأول، 1998، ص.76 .

بعد أن أفرغ شافانياك شحنات المعدات وأدوات التنقيب بجزيرة بادس، حاول النزول بها إلى اليابسة في الساحل الريفي تمهيدا لنقلها إلى موقع المعدن. تقول الوثيقة : « ... **بلغنا أن التاجر الفرنصيص الذي أخبرت أنه اشترى أرضا بجبل حمام في بني وريباغل توجه ... لمرسى بادس بقصد الخروج منها لتلك الأراضي ... فمنعه القبائل ... من الخروج للبر، وتحزبوا وعزموا على البارود والفتنة بسبب وروده**» [17].

من خلال هذه الوثيقة يتبين موقف القبائل الريفية المتمثل في الرفض الكلي لأية عملية إنزال أجنبية، سواء ارتبطت بغرض تجاري تبادلي، أو بغرض استيطاني.

ويتضح أكثر موقف الريفيين من خلال الوثيقة المخزنية الموجهة إلى القائد الحاج علي بن عمر الورياغلي : « **وصل كتابك بالإعلام بأنك لما لم تجد مفلتا لحضرتنا العالية بالله لكثرة الفتن، توجهت بحرا إلى طنجة فوجدت العام حمو أخليش باع للفرنصيص ... فنازعته واسترعيت عليه، وأخذت له رسما من رسوم ذلك المكان، ثم وافاك رقاص من دراك بأن إبالتك وإبالة الخديم الحاج حدو وغيرهم يريدون الفتك بأولادك ونسائك ونهب مالك وقتلوا من قتلوا وفتنوا القبائل وفاهو بالفحش إلى آخر ما شرحته، وصار بالبال فلتعجل بالقدوم إلى حضرتنا الشريفة لنرى في ذلك والسلام**» [18].

لاحظ الأستاذ عبد الرحمان الطيبي : « **أن القائد المذكور تفاديا لأية شبهات، ولكي لا يغتنم أمره بادر بإرسال رسالة إلى السلطان يطلعه فيها على أن سبب توجهه إلى طنجة بحرا يرجع إلى الفتن التي وقعت بالريف، وأنه لما وصل إلى مدينة طنجة وجد حمو أخليش قد باع حقه في الأرض الموجودة بجبل حمام للتاجر الفرنسي، واضطر أن يأخذ منه رسم الملك المباع**» [19].

إلى جانب ما أورده الأستاذ الطيبي بصدد خلفيات لجوء القائد علي إلى طنجة، يمكن أن نضيف أن إشارة القائد في رسالته للسلطان إلى الفتك بالنساء وأولاده كما ادعى، فيها مبالغة مقصودة يراد منها إظهار نفسه بمظهر الضحية، إذ ليس من عادة أهل الريف مد يد السوء إلى النساء والأطفال.

---

[17] – رسالة من الحسن الأول إلى القائد محمد أمقشد بتاريخ 1 ربيع الثاني 1301 هجرية/ 1884، الخزانة الحسنية، كناش رقم 162، ص. 318.

[18] – رسالة سلطانية من الحسن الأول إلى القائد الحاج علي بن عمر الورياغلي بتاريخ 1 ربيع الثاني 1301، الخزانة الحسنية، كناش رقم 162، ص.230.

[19] – **عبد الرحمان الطيبي**، *المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية*، م.س، ص.525.

ولكي نتمكن من مقاربة الوضعية العامة آنذاك نتيجة محاولة شافانياك، نورد هنا النص الكامل لرواية شفوية أرخت للحادثة ونظرا لأهميتها، آثرنا عرضها كما هي رغم طولها.

الوثيقة الشفوية :

**« في أخريات القرن الثالث عشر الهجري عم القحط والجدب بلاد الريف، نضبت فيه الآبار والعيون الدافقة، وذبلت النبتة، وهزلت الماشية، وهلكت بنفاذ الكلأ في الأغوار والنجود بصفة لم تعرف الأجيال الوديعة لها مثيلا، وحتى غدا الإنسان بالتطبيع يحاكي جنس القردة بحثا عن ثمرة البلوط الغابوي للاقتيات.**

**في هذه الوضعية القاسية برزت شخصية جريئة من أرومة آيث حذيفة إحدى أفخاذ القبيلة الوريا غلية تدعى الحاج علي بن السي عْمَار، وقد دار في خلدها أن تقوم بجلب الأقوات من بلاد الجزائر التي تتوفر على فائض في الحبوب من شعير وقمح، وشحنها بحرا إلى جزيرة بادس أو المزمة، ولكن كيف ذلك والعراقيل شتى تحول دون تحقيق الهدف، فرغم أن الرجل الجريء له سابق معرفة ببلاد الجزائر كأجير ومتنقل نشيط، وقد جعله ذلك يعي أن للأجانب الأوربيين مطامع استغلالية، ويرغبون في التنقيب على الثروات المعدنية، فقد عسر عليه أن يرتبط بشخصية طموحة يفاتحها في الموضوع.**

**كان من عادته أن يسلك في تنقله بين قريته ووهران عبر زاوية التفاح، وينزل ضيفا كعابر سبيل عند أحد الخليشيين القاطنين بقبيلة أيث مزدوي، وفي فترة من الفترات انجر الحديث بين الطرفين إلى الأوضاع المزرية لقبائل المناطق المجاورة، وحتى أباح لصاحبه المضيف بما يدور في عقله من محاولة الإغاثة، فما كان منه إلا أن أبدى رغبته في التعاون، وأنه في إمكانه أن يساهم في تحقيق المشروع، ولكن الشيء الذي يقف حجر عثرة في الوصول لنتيجة إيجابية يكمن في صعوبة إقناع السكان بضرورة المساعدة، وأنه في حدود طاقته يستطيع أن يخابر في الموضوع من يرحب بالفكرة من الأجانب، وما عليك إلا أن تتريث لغاية إحكام الخطة مع ثربة فرنسية لا أراها إلا محبذة ومتحمسة.**

**تلقى الحاج علي بن السي عمار الحذيفي الاستجابة من الخليشي، واتفق معه أن يذلل الصعاب مع سكان منطقة بادس، وفعلا قامت المثربة بإنزال شحنات من الأدوات كالفؤوس، والمجارف، والخيام والحبال وغيرها بجزيرة بادس على حدود قبيلتي بقيوة وآيث يطفت، وعن كثب من قبيلة آيث بوفراح، ومن الجزيرة عبر البرزخ المائي إلى بر الشاطئ.**

**إثر عملية الشحن والإفراغ للأدوات والأقوات، أخذ سكان الساحل يفدون على بقعة الورش للقيام بعمل مقابل مقدار من الشعير والحنطة والذرة، وكانت الطليعة من قاطني**

البقعة الانطلاقية، وفي انتظار وفادة الآخرين لحاقا بالأولين، وقبل أن يتحرك الموكب من منطلقه لقطع المسافة توا حيث التعريس، ثارت ثائرة القبيلة الوريا غلية ضد فضول الحاج علي، وإيقافه عند حده، وتأديبه فيما استحدثه من خرق لحرمة القبيلة حيث أبام لنفسه أن يمر عبر حُمُسِه آيث حذيفة الذي هو معدود من القبيلة، أثقال الورشة.

وفعلا عقد أعيان القبيلة مؤتمرا عاما بقرية "أغليظ"، وهناك تحدد ميعاد تحرك جماعي لا يستثنى منه إلا المسنون والأحداث. وفي ظرف أسبوع تحرك الجمهور بحماس منقطع النظير إلى منزل الحاج المجازف، وفي لحظة حاسمة استحالت إلى أطلال، أما هو فإنه بارحها بعائلته قبل ذلك بساعة إلى منزل أحد أقربائه. وتحطيم منزل المدان يعتبر في نظرهم نكاية عظمى، وانتقاما قاسيا، هذا إلى جانب غرامة مالية يؤديها للقبيلة كجزاء على استبداده وجسارته، وفعلا أدى ما ألزم به غرم، وكما قومت أدوات الورش لتضاف إلى مبلغ الغرم لتوزيعها على أرباع القبيلة على الطريقة المتعارفة لديهم.

أما بالنسبة لشرفاء زاوية التفاف المنتمين إلى قبيلة أخرى، والذين لهم ضلع هام في المعاولة المعدنية، فإن كبار الوريا غليين مراعاة لحرمة الأعراف القبلية ارتأوا أن يشركوا معهم أعيان القبيلة المجاورة التي ينتمي إليها هؤلاء الشرفاء، ولم يكتفوا بهذا، بل أقحموا معهم قبائل أخرى كآيث يطفت وآيث بوفرام وبقيوة نظرا لكون الأدوات المعدة من طرف الشركة كان نقلها يتم عبر جوانب حدودية للقبائل المذكورة. وفعلا تشاور أعيان هذه القبائل في مبلغ الذعيرة التي ستفرض على هذه الشخصيات من شرفاء الزاوية، وبعد مداولة وقع الاتفاق على تخريب منازلهم وتحميلهم مبالغ مالية أكثر مما فرض على الحاج علي نظرا لأن استفادتهم المادية من الصفقة كان أوفر حظا من الحاج علي المغفل والذي كان دوره هو حماية الشركة لا أكثر.

وحينما تم توزيع الغرم على القبائل المشتركة في هذا، اقترح الوريا غليون على هذه القبائل تخفيض قدر يسير من هذه الأموال لنقيب شرفاء الحمالشة مراعاة لفضلهم وحرمتهم بين القبائل، فرفض هذا المقترح من طرف القبائل التي توجهت إلى القبيلة الوريا غلية قائلة لها: يكفي أننا لم نحملهم تبعات السكوت عن حدث انتهاك حرمة الوطن، وأنتم أيها الوريا غليون إذا أشفقتم عليهم فخصوهم بشيء مما استأثرتم به من غرامة الحاج علي.

وبعد مفاوضات تقرر أن تستأثر القبائل الشاغبة بما فرضته على هؤلاء الشرفاء، وأن يكتفي الوريا غليون بما أخذوه من رجل قبيلتهم، فأذعنوا على مضض لأن الوريا غليين قاموا وحدهم بإدانة صاحبهم، ولما رأوا أنهم لا قبل لهم في العرف القبلي بإدانة جماعة منتمية

**لقبيلة أخرى لها ضلع في المؤامرة يجب أن تدان، راحوا يستقطبون القبائل الأخرى التي لم تعر أي اهتمام للحدث، وتلفت انتباههم أن السكوت على مثل هذه المعرة غير معقول، وقد توفقوا فيما ذهبوا إليه، حيث تقاطرت هذه القبائل إلى قرية الحاج السي علي، ومن هناك انطلقوا كجمهور مؤتلف إلى زاوية التفاح لتنفيذ الخطة والإدانة. ولما بلغ إلى علم الأرياف سكان الناحية الشرقية ما حدث في الأمر، قرروا أن يستغلوا تلك الظروف، فانتخبوا جماعة شرفاء إحدى الزوايا لزيارة موقع الحدث، والاتصال بشخصيات من الوريا غليين والبقيويين واليطفتيين...، فوجدوا فيهم كل الاستجابة، وقاموا برحلة إلى العاصمة فاس ليعربوا عن ولائهم للسلطان، ويشرحوا له ما حدث، وأن السبب فيه هو القحط والمجاعة الداهمة لبلاد الريف من أقصاه إلى أقصاه، ويلتمسوا من السلطان العون بالبذرة لعل الله يبارك أعمالهم، ويستجيب لدعاء السلطان الشريف»** [20].

**التعليق على الرواية الشفوية :**

1 – تنفرد هذه الرواية الشفوية بوضع الحادثة في إطارها التاريخي العام بالإشارة إلى الوضع الاقتصادي والحالة الاجتماعية المترتبة عن وضعية الجفاف الذي أصاب المنطقة، وخلف نتائج سلبية للغاية، وهي الوضعية التي تؤكدها المصادر التاريخية [شدة الأزمة بالريف] في دجنبر 1883 [21].

2 – تتفق الرواية الشفوية مع الوثائق المخزنية على ذكر الشخصين المرتبطين بعملية بيع المعدن، غير أن الرواية الشفوية تكتفي بذكر الحاج علي بن السي عمار دون الإشارة إلى وضعيته الإدارية كقائد، كما تكتفي بذكره كأحد الأعيان البارزين. وبالنسبة للشخصية الثانية تكتفي بذكر شريف خمليشي دون تحديد لاسمه ونسبه.

3 – لا تشير الرواية الشفوية إلى اسم الكونت دو شافانياك كشخصية تجارية أبرمت عقد البيع مع الريفيين، بل تشير فقط إلى امرأة ثرية تدعى " الكونديسة " التي اقترنت الحادثة باسمها في الرواية الشفوية دون ذكر للكونت، وقد بين الكاتب الإسباني " مالدونادو"، وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، أنها زوجته المرافقة له في رحلته.

4 – تفيدنا الرواية الشفوية في معرفة تطور مجريات الأحداث إثر محاولة إنزال التجهيزات والمعدات المرتبطة بإنجاز المشروع. فإذا كانت الوثيقة المخزنية تعطينا انطباعا بأن الريفيين، ومنذ أول وهلة، عارضوا إنزال أدوات العمل التقيبي إلى اليابسة، فالرواية الشفوية توضح أن نقل

---

[20] – رواية شفوية متوارثة، دوّنها المرحوم والدنا محمد محمد بودرة الرايس.

[21] – **محمد الأمين البزاز**، *تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر*، منشورات كلية الآداب، الرباط، طبعة 1992، ص.291.

التجهيزات إلى الشاطئ لم تلق أية معارضة تذكر، بل على العكس لقيت ترحيبا واستحسانا، ربما بسبب الضرورة الملحاحة إلى القوت والحبوب، ولم تتطور الأمور وتتوالى الأحداث إلا في مرحلة لاحقة عندما تبلور الرأي المعارض لدى القبيلة الورياغلية، أو تلك المتاخمة لجزيرة بادس.

5 – يستنتج من الوثيقة المخزنية والرواية الشفوية أن اختيار جزيرة بادس بالتحديد كان اختيارا استراتيجيا أملته عوامل عدة، وجودها عن كثب من الساحل مما يسهل عملية نقل المعدات، إضافة إلى أن الساحل المقابل للجزيرة يعتبر نقطة حدودية بين قبيلتي بقيوة وآيث يطفت، وهو ما يجعل فكرة توحيد العناصر المناوئة للمشروع الاستثماري أمرا صعب التحقيق، وكذلك فاختيار بادس عوض النكور يتفادى به اختراق وسط القبيلة الورياغلية.

6 – تتميز الرواية الشفوية – عكس الوثيقة المخزنية – بتوضيح وتبيان الكيفية التي تبلور بها الحكم المتعلق بتغريم الحاج علي، وكذلك التطور التدريجي للأحداث حتى تم استقطاب القبائل المجاورة، وتنفيذ متابعة الشريف الخمليشي.

## 5 – موقف الكونت والسلطات الفرنسية :

احتج شافانياك على المخزن بشدة بعد أن رفضت القبائل الريفية السماح له بإنزال أدوات ومعدات التنقيب إلى بر الساحل الريفي المسامت للجزيرة، وقدم ممثل الدولة الفرنسية بطنجة شكاوي في الموضوع، وقام بمحادثات واتصالات مع النائب السلطاني لاستفساره حول أسباب المنع. وبعد ذلك انتقلت المفوضية الفرنسية إلى مستوى الضغط على المخزن للترخيص للكونت بالتنقيب، وعبر الرسالة المخزنية الموجهة لمحمد بركاش النائب بطنجة تتضح الكثير من النقاط التي نوقشت بين ممثل الديبلوماسية الفرنسية والنائب السلطاني [22].

يتأسس الادعاء الفرنسي على أن :

أ) قبائل الريف المطيعة للمخزن تقول بأنها لا تقبل نزول الكوندي إلى الشاطئ إلا بإذن من المخزن.

ب) منع الكوندي من النزول إلى البر فيه ظلم وحيلولة دون ممارسة حق، وهذا تجاوز للشروط والاتفاقيات الدولية.

لم يكتف الفرنسيون بنهج أساليب الاحتجاج فقط، بل عمدوا إلى أسلوب الاستفزاز في مطالبهم، وذلك بأن تقدموا بطلب إلى المخزن لعزل القائد " محمد أمقشد " من مهامه لأنه حرض

[22] – رسالة سلطانية إلى النائب محمد بركاش بتاريخ 12 ربيع الثاني 1301 / فبراير 1884، الخزانة الحسنية، كناش رقم 162، ص. 343.

القبائل على منع الكوندي من النزول للـــبر «... **ولسبب ذلك يطلب عزله من الخدمة المخزنية، ويطلب نقض الإذن الذي توجه لتلك القبائل بالمنع، وان لم نقبل منه هذه المطاليب لمدة اثنتي عشر يوما، فلا يبقى له كلام معنا، ويكتب على مركب يركب متوجها لحاله حتى تعرف معاملتنا مع رعية الفرنصيص، وزاد أنه لا يريد أن يكون على يده توجه مراكبهم للريف، وينزلون هناك ويملكون الأرض، ولا يخرجون منها حتى تؤدي لهم الملايين، مثل ما فعل السبنيول**» [23].

يبدو من خلال الوثيقة أن الممثل الفرنسي آنذاك أورديغا Ordega قد تجاوز أســـاليب اللياقـــة والديبلوماسية المفترضة في التعامل بين الدولتين، فاستعمل أسلوبا جافا ينم على العجرفة والغطرســـة والروح الاستعمارية، وهو ما تجلى في الشرطين المقدمين، وهما : إبعاد القائد المخزني أمقشد مـــن المسؤولية، والسماح للكوندي بالتوجه إلى موقع المعدن، وذلك في أجل أقصاه اثنا عشر يومـــا، وإلا انسحب من المفاوضات، وأضاف في خبث واضح أنه يريد حلا سلميا تفاوضيا بدل استعمال القـــوة العسكرية الفرنسية لتحقيق المطالب كما فعل الإسبان في حرب تطوان 1859-1860.

## 6 - موقف المخزن من الحادثـــة :

كان موقف السلطان المولى الحسن الأول واضحا منذ البداية، وضد أية موافقة علـــى نـــزول الكونت للبر قصد التوجه إلى جبل حمام. وتبين الرسائل المخزنية الموجهة إلى القائد أمقشـــد أمـــر المخزن بالعمل على تحريض القبائل المجاورة لمرسى بادس بالتمادي في منع الكونت مـــن الـــنزول « **فأمرناهم بأن يتمادوا في منعه من الخروج للبر، ولا يتركوه يخرج له لا بوجه ولا بحال لكون النزول للبر ممنوعا من غير المراسي التي يستخدمها المخزن ... وكتبنا لخديمينا بأن يتوجها بأنفسهما لبادس، ويعرف النصراني بحال أولئك القبائل وما عزموا عليه من الفتنة بسبب ورودة، وتحذراه من شرهم ومكرهم، ويقفا حتى يرجع سالما لحال سبيله بحرا ولا يتركاه يخرج للبر...**» [24].

حسب الوثيقة التي أوردنا، فالحجة في منع الكونت الفرنسي من النزول راجعـــة إلـــى كـــون جزيرة بادس ليست مرفأ أو ميناء تجاريا يستعمله المخزن بشكل اعتيادي، ويستخلص منه الضرائـــب

---

[23] - رسالة من النائب محمد بركاش إلى السلطان المولى الحسن الأول ســـنة 1884، أوردهـــا **مصطفـــى بوشـــعراء**، *الاستيطان والحماية*...، م. س، ج.4، ص.1528.

[24] رسالة سلطانية إلى القائد محمد أمقشد بتاريخ 1 ربيع الثاني 1301، الخزانة الحسنية، كناش رقم 162، ص.318.

والأعشار. وتبين الوثيقة كذلك قيام المخزن بإفهام الكونت بالمخاطر المحدقة به في حالة إصراره على النزول إلى اليابسة بسبب خطورة تلك القبائل، ومواقفها المعادية.

وقد عمد السلطان المولى الحسن الأول إلى استعمال الوسائل الديبلوماسية، مبتعدا في ذلك على الرد المباشر والسقوط في الاستفزازات الفرنسية، حتى يتسنى له إقناع ممثل الدولة الفرنسية، والتاجر شافانياك بالعدول عن فكرة النزول إلى اليابسة والتوجه إلى حيث المعدن. وذلك بتفنيد الحجج والمنطلقات التي انبنى عليها التصور الفرنسي للوضعية العامة بالريف. هذا بخصوص المرتكز الأول.

وبخصوص المرتكز الثاني الذي انبنت عليه الحجة الفرنسية، وهو المنع من النزول إلى اليابسة تجاوز للشروط والاتفاقيات، يجيب المخزن بطريقة ذكية : «... **من عقله الراجح إذا تأمل فيما ذكر هو ودولته الفخيمة** [ فرنسا ] **يعترفون بأن الحق له فيما ذكر على أن السبب القوي عندنا هو المحافظة على الكندي من الاغتيال**» [25].

هكذا يتبين الرد المنهجي للمخزن على الاحتجاج الفرنسي، حيث يفند الادعاء الثاني بقوله أنه تأسيسا على الوضعية العامة الخطيرة في الريف، فإن المخزن ارتأى منع الكونت بسبب التخوف من التعرض لمكروه أو عمل انتقامي. وهكذا يتجلى الخطاب المزدوج للمخزن [*]، والذي أملته الظروف المرحلية حين يتوجه إلى القبائل الريفية بتحريضها بواسطة القواد المحليين على منع الكونت من النزول إلى البر [26].

## 7 - التنافس الأوربي وعمليات الاستكشاف المعدني :

كشفت لنا حادثة شافانياك البدايات الأولى لاشتغال الرساميل الأوربية الاقتصادية والمالية المقيمة بطنجة بمحاولات التنقيب عن المعادن المغربية. ومع بداية القرن العشرين لم تعد فرنسا القوة الاقتصادية الوحيدة المهتمة بمعادن الريف، بعد أن ساهم الاعتقاد بغنى المغرب، وخاصة الجزء الشمالي منه بالثروات الباطنية، مما حفز الدوائر المالية السياسية الإسبانية والألمانية على المغامرة وتوجيه أنظارها إلى هذا القطاع، فأصبح التنافس شديدا بين مختلف هذه القوى للحصول على التسهيلات والضمانات الكافية لمشاريعها الاستثمارية في الحقل المعدني. وليس من قبيل المبالغة إذا

---

[25] – رسالة سلطانية إلى النائب محمد بركاش سنة 1301، الخزانة الحسنية، كناش رقم 162، ص. 318.

[*] – محمد أونيى، المجتمع الريفي والسلطة : نقد الخطاب المخزني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. (مقال غير منشور).

[26] – نفس الرسالة.

قلنا أن الدور الخطير والهام في وضع اللبنات الأولى للمشروع الكولونيالي والتغلغل السلمي التجاري داخل المغرب اضطلعت به الشركات ذات الاهتمام المعدني.

فانطلاقا من سنة 1902 [27]، قام التجمع المعدني " شنايدر " Schneider و " شاسلوب " Chassloup ، وشركات معدنية أخرى بالضغط على السلطات الفرنسية بالجزائر – القريبة من الحدود المغربية – للعمل عبر أنشطتها الاقتصادية المختلفة، بحثا عن طرق التغلغل التمهيدي بالمغرب من أجل تحقيق أهدافها. كما استغلت هذه التجمعات التواجد الفرنسي بمدينة طنجة، خصوصا مؤسسة " كوتش " Gautsh [28] التي عرضت سنة 1902 أن تسلم لشنايدر الأعمال المختلفة التي تباشرها بالمغرب، فأجابت الخارجية الفرنسية بأنها ستكون مسرورة لرؤية أي مشروع فرنسي يباشر تحت رعاية شنايدر.

أما بالنسبة للطرف الإسباني، فقد كان موقف رأسمالها يتسم بالحذر، وعدم الإقدام على المغامرة. غير أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر، ومع ضياع السوق الكولونيالية في الأنتيل والفيليبين، وخروج رساميلها من هناك.« **إضافة إلى عامل الانتعاش والتفاؤل الذي بلغ أوجه سنة** 1908، **والذي ارتبط بالإصلاح الضريبي المالي الذي قاده وزير المالية " هيرنانديز بيابردي** Femández VILLAVERDE **" أفضى في النهاية إلى توفير الرساميل والسيولة النقدية خاصة مع تسهيل مسطرة القروض المقدمة** » [29]. وبذلك بدأت الأطراف الرأسمالية الإسبانية تهتم بالأنشطة المعدنية خارج حدودها، واستفادت كثيرا من موقعها الجغرافي المتميز بالنسبة للمغرب، وكذا من الجيوب المستعمرة والمنتشرة على طول الساحل المتوسطي.

ومن أجل تحقيق غاية الاستثمار المعدني، كان لزاما على الشركات والمهتمين بالمعادن، كخطوة أولى، البدء في عملية المسح الميداني لوضع خريطة تحديد مواقع المعادن. وفعلا تزايدت وتيرة الاستكشاف المعدني التي قام بها الرحالة المغامرون، والجغرافيون الأجانب، في مناطق متعددة من المغرب، وتحينوا الفرصة المواتية للقيام بأعمالهم بشكل مكثف عقب التغيرات العميقة التي طرأت

---

[27] - **Víctor Morales LEZCANO**, "*Las minas del Rif y el capitalismo peninsular* ", in La revista "moneda y crédito", Madrid, Diciembre 1975, nº 135.

[28] – شارل كوتش، تاجر فرنسي بطنجة، زاول بها أعماله التجارية منذ 1892، وحتى بداية القرن العشرين. كانت له مساهمات في شركات التصدير والاستيراد والتمثيل التجاري، وكان يمتلك أوراش الفحم والحديد، قام بأدوار مختلفة كتقديم القروض للمخزن. انظر : **مصطفى بوشعراء**، *الاستطيان والحماية بالمغرب*، ج.2، ص. 625؛ **محمد خير فارس**، *المسألة المغربية (1900 – 1912)*، مكتبة الشرق، ط.1، دمشق، ص. 125.

[29] - **Víctor Morales LEZCANO**, *La aventura económica*, Año IV, Extra, Abril, 1979, p. 24.

على وضعية المغرب في العقد الأول من القرن العشرين، وما شهد من تراجع كبير في نفوذ المخزن، وتعاظم نفوذ القوى الأوربية، وتدخلها في المسألة المغربية التي كانت تسير تدريجيا في اتجاه الحسم السياسي لصالح بعض الدول الكبرى كفرنسا وإسبانيا.

احتفظت المراجع والكتب التي أرخت للمرحلة بعدد من الإشارات الدالة عن الرحلات الاستكشافية التي نظمها الباحثون عن المعادن، «... **فبين سنة** 1901 **و** 1907 **قام البيولوجي "بريب** Brives **"بعملية مسح منهجي لفائدة شركة فرنسية اكتشفت خلالها وجود طبقات الفوسفاط [** في المنطقة التابعة لاحقا لفرنسا **]**» [30]. وحول منطقة الريف يحدثنا الإسباني " إنريكي أركس Enrique ARQUES " [31] عن حيثيات اعتقاله وهو صبي برفقة المغامر الفرنسي " ديلبريل Delbrel "، وهما بصدد القيام برحلة إلى قبيلة بقيوة، وذلك حوالي سنة 1907. وعندما ألقي القبض عليهما من طرف الريفيين، اتهما بالبحث عن المعادن.

ويلفت الإسباني " فرنسيسكو كاركانيو ماس [32] Francisco CARCAÑO MAS " انتباهنا إلى شخصية إيطالية تدعى " أنجيلو كريلي Angello GUIRELLI " قامت بالعديد من الرحلات الاستكشافية إلى منطقة الريف، وحصلت على رسومات وخرائط طبغرافية تحدد بعض أماكن المعادن.

ويتأكد قول الكاتب الإسباني إذا اطلعنا على كتابات " كريللي " المنجزة حول قبيلتي بقيوة آيث يطفت، فندرك من تاريخ إنجاز الدراستين المونوغرافيتين أنه قد أنهى كتابتهما قبل الاحتلال الإسباني للمنطقة. ونعرف من المعطيات الدقيقة والمثيرة الواردة فيهما أنه فعلا قام برحلات ميدانية، وبصفة تذكرية، أو في أضعف احتمال، يكون قد حصل على تلك المعلومات من طرف سكان محليين.

يقول " كريللي " في كتابه " *مونوغرافية قبيلة بقيوة* " : « **حسب معلومات مقدمة من طرف السكان المحليين، يوجد قرب "إنْسُلِيا" وفي "بُوسَكُّورْ" الفحم المعدني، وفي منطقة "أكار" نعثر على الأنتيموان، وقرب "تَاوَسَّارْتْ" توجد مؤشرات دالة تفيد الاعتقاد بوجود البترول** » [33].

---

[30] - **Bertrand DESMAZIERES** , *Pierre de Sorbier*, éditions la Porte, 1998, p. 206.

[31] - **Enrique ARQUES**, *Tres Sultanes a la porfia de un reino*, editora Marroquí, Tetuan, 1952, p. 44.

[32] - **Francisco CARCAÑO MAS**, *Melilla Rifeñeras*, Ayuntamiento de Melilla, 1991, p. 73.

[33] - **Angello GHIRELLI**, *Monografia de Kabila de Bokoia*, 1920, pp. 50-51.

( الترجمة من طرفنا ).

وفي دراسته الثانية، "*مونوغرافية قبيلة بني يطفت*"، يشير نفس الكاتب : « **تمكننا من معاينة مؤشرات في منطقة "توفيست" تدل على وجود معدن الحديد، غير أن تحديد القيمة التصنيعية يستلزم دراسات دقيقة لعينات معدنية لتقدير الكميات الممكن استغلالها** » [34].

## 8 – بوحمارة ومعادن الريف الشرقي :

يعتبر الجيلالي الزرهوني، الملقب ببوحمارة، على حد تعبير عبد الله العروي : « **أقوى وأخطر عنصر ادعى العرش في تاريخ المغرب الحديث** »[35] ، حيث استغل الظروف السياسية التي كان يتخبط فيها المخزن، وضعف سلطته ونفوذه، فقام ثائرا مدعيا أحقيته في العرش، منتحلا صفة المولى مَحمد، أكبر أبناء السلطان المتوفى المولى الحسن الأول. وكانت للروكي بوحمارة طيلة مرحلة ثورته جولات من المعارك ضد قوات المخزن، واستطاع أن يؤسس منطقة نفوذ تابعة له عاصمتها سلوان – قرب مدينة الناظور الحالية –، وقد دامت ثورة بوحمارة طويلا، من خريف 1902 إلى صيف 1909.

اختار بوحمارة تلك المنطقة الحدودية لأسباب استراتيجية، منها قربه من مليلية المحتلة من طرف الإسبان، وكذلك غير بعيد من الحدود الجزائرية حيث الإدارة الفرنسية، ورجال الأعمال الفرنسيين الذين ما فتئوا يقدمون له الدعم مقابل خدماته في تسهيل عملية التسرب التجاري والميداني عبر الحدود الشرقية.

وفي سنة 1905، رخص لفريق من التجار الفرنسيين بإقامة محطة تجارية على سبخة بوعرك، الواقعة على بعد كيلومترات من مليلية، و « **عرفت هذه المحطة رواجا تجاريا ملحوظا طيلة ثمانية أشهر، حيث أفرغت بها شحنات السكر والقهوة والحبوب والملابس، فضلا عن الأسلحة والذخائر** » [36].

لكن الإسبان الذين أربكهم تواجد الفرنسيين على مقربة منهم، وما يشكل ذلك من خطر مستقبلا على مصالحهم، ومجالهم الحيوي، « **سارعوا إلى احتلالها وإبعاد الشركة الفرنسية**

---

[34] - **Angello GHIRELLI**, *Apuntes sobre la Kabila de Beni Itteft*, in. Archivo del instituto de estudios africanos, 1956, p. 21.( الترجمة من طرفنا )

[35] - **Abdellah LAROUI**, *Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830 - 1912)*, centre culturel Arabe, p. 354.

[36] – **عبد العزيز التمسماني خلوق**، "*وثائق عن الدعي الفتان بوحمارة*"، مجلة دار النيابة، السنة الأولى، العدد الرابع، خريف 1984، ص. 36.

**منها، واكتفى الروكي ببعض المناوشات هدف من ورائها إفحام الإسبان بأنه طرف ضروري ومهم في المعادلة، ولكن دون أن يذهب إلى حد مواجهتهم»** [37]، لأن الروكي الذي كان يسير وفق مخطط مدروس للسيطرة على عموم الريف كمدخل لمجموع المغرب، أصبح لزاما عليه التعامل مع الإسبان الذين اعتبروه صديقا لإسبانيا. « **لم يترك بوحمارة مناسبة تمر دون إبداء شعوره المتميز نحونا، وعلى المستوى التعاملي كان قواد الروكي يذهبون إلى مليلية لاقتناء لوازمهم»** [38] .

بالمقابل، استفاد الإسبان من قدوم واستقرار بوحمارة بمنطقة سلوان، إذ حاول استرضاء السلطات الإسبانية لكي يحصل على أشكال الدعم التي يحتاج إليها، « **فقام بتوفير الحماية للقوافل التجارية القادمة من الجنوب المغربي في اتجاه مليلية قصد التبادل السلعي، والتي كانت معرضة للمخاطر والصعوبات، خاصة الطرق التي كانت تتعرض للنهب والسرقة من طرف القبائل»** [39].

اهتم بوحمارة في هذه المرحلة بتكثيف أنشطته التجارية مستغلا بذلك نفوذه القوي، وسلطته الممتدة إلى عموم الريف الشرقي، وجزء من الريف الأوسط. وأصبحت عاصمته سلوان قبلة لمجموعة من المغامرين الأجانب كتجار ووسطاء باحثين عن الربح والمغامرة. ومن أبرز تلك الشخصيات تاجر يهودي تكلف باقتناء المستلزمات والحاجيات التي يطلبها الروكي، ويدعى " دافيد شاربي David CHARVIT [40]، يقطن بمليلية ويمارس تجارة القماش. ولم يلبث هذا التاجر أن اكتسب ثقة وود الروكي.

كان هذا الأخير يسد حاجياته المختلفة من المبالغ النقدية التي يحصل عليها بطرق شتى، غير أنها لم تكن كافية لتغطية مصاريفه المتزايدة، خاصة منها تكاليف الجيش وتجهيزه لمحاربة الجيش المخزني والقبائل المناهضة له. فكان لزاما عليه التفكير في إيجاد مصاريف مالية استثنائية.

---

[37] - **Ruiz ALBENIZ**, *España en el Rif ( 1908-1912 )*, Ayuntamiento de Melilla, 1994, p. 41.

[38] – نفسه، ص. 43.

[39] - **Francisco CARCAÑO MAS**, *Melilla Rifeñeras*, op. Cit, p. 41.

[40] – لم يكن " شاربي " مهندسا، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ عبد المجيد بنجلون. انظر :

**Abdelmajid BENJELLOUN**, *Approche du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste Marocain dans l'ex Maroc Khalifien*, Editions OKAD, Rabat, 1988, p. 41.

يقول الكاتب الإسباني " رويس ألبينيس Ruiz ALBENIZ " : « **ذات مرة قدم بوحمارة للتاجر شاربي بعض الأحجار السوداء الثقيلة الوزن التي جلبها بعض الريفيين من جبال آيث بويفرور، واستطاع شاربي أن يدرك احتواء هذه العينات على معدن الحديد**» (41).

أما الكاتب الإسباني " فرانسيسكو كاركانيو ماس "، فلا يتفق وما ذهب إليه " ألبينيس " من ربط اكتشاف معادن آيث بويفرور بشخصية شاربي، بل يؤكد – وإن لم يضع تاريخا محددا – أن فكرة احتواء أراضي قلعية على معادن الحديد أقدم من ربطها بشاربي، إذ تمت معاينة نماذج من الأحجار المحتوية على المعدن في تاريخ سابق عن وصول ومعاينة المهندسين والمهتمين بالمعادن، « **إذ تحدث بعض الضباط المنتمين للعامية العسكرية بمليلية مع قياداتهم بشأن معادن وكسان، ولكن دون جدوى، ولم يكن مرد ذلك إلى نقص في الرساميل بقدر ما ارتبط بانعدام توفر شروط وضمانات الاستغلال لمغامرة المغامرة والدخول إلى تلك الأراضي**» (42).

وفي نفس السياق، يرجع الكاتب الإسباني " مالدونادو " تاريخ بداية الاهتمام بمسألة المعادن، وعقد الروكي للاتفاقات بشأنها، إلى فترة أسبق من سنة 1907، ويقول : « **أن الروكي رخص للفرنسيين " بايل** Baille **" في نهاية سنة** 1904 **باستغلال مناجم ومعادن آيث بويفرور، ولكن دون تحديد لمكان وطبيعة المعدن**» (43).

نفس الفكرة تؤكدها الباحثة الإسبانية " ماريا روزا مادارياكا Maria Rosa MADARIAGA " بقولها أن بوحمارة وافق على تسليم معادن الريف للإخوان " بايل " لمدة تسعة وتسعين سنة، غير أن قلة الإمكانيات حالت دون تنفيذ المشروع (44).

كخلاصة لما أوردنا، يمكن أن نسجل ما يلي :

1 – تاريخ 1904، يمكن اعتباره بداية مرحلة تفويت مناجم الريف الشرقي باتفاق الروكي مع الإخوان " بايل " الفرنسيين.

2 – تاريخ 1907، يمكن اعتباره بداية التنقيب والاستثمار في منطقة الريف الشرقي، ومعه سيدخل الريف مرحلة جديدة من تاريخه، أهم ما يميزها الاهتمام والتنافس الشديد بين الشركات والرساميل الأجنبية الساعية لاستغلال واستثمار تلك المعادن.

---

(41) - **Ruiz ALBENIZ**, *España en el Rif*, op. Cit, p. 44.

(42) - **Francisco CARCAÑO MAS**, *Melilla Rifeñeras*, op. Cit, p. 40.

(43) - **Eduardo MALDONADO VAZQUEZ**, *El Rogui*, op. Cit, p. 346.

(44) – in. **Abdelmajid BENJELLOUN**, *Le patriotisme marocain face au protectorat espagnol*, imp. El Maârif el jadida, Rabat, 1993, p. 282.

عن حيثيات تفويت مناجم الريف، احتفظت لنا الإسطوغرافيا الأجنبية حول المغرب بسيناريوهات مثيرة عن الكيفيات التي تم بها ذلك. فقد ذكر الإنجليزي " هاريس HARRIS " في كتابه " *المغرب المفقود* " : « **إن أحد المهندسين المكلفين بالمعادن رافق رأسماليين إسبان إلى مقر إقامة الروكي بسلوان ... ومع بداية المفاوضات ... بدأت مطالب الروكي تكثر وتتزايد، وكان المفاوضون الإسبان مترددين في قبول شروطه لولا حدوث أمر أربكهم، وعجل بقبولهم لشروطه، إذ حدث أثناء الاجتماع بالإسبان أن أحضر أحد جنوده عدة رؤوس لخصوم الروكي وفرشوها في الأرض أمام مرأى الضيوف الأجانب ... وفي نهاية الحوار وافق الإسبان المرعوبين من جراء هول وبشاعة المنظر على جملة من اقتراحات الروكي**» [45].

رغم احتواء قولة " هاريس " على مجموعة من الحقائق والإشارات التاريخية، سواء المتعلقة بمفاوضات الروكي مع الأجانب حول المعادن، أو المعاملة القاسية التي كان يعامل بها خصومه، وهي حقائق أكدتها مراجع وطنية وأجنبية، يلاحظ على هذه الرواية غلبة الطابع التراجيدي للأحداث، والاستنتاجات السطحية، وتقديمها للقارئ الغربي في صورة مغرية. وبالاطلاع على مراجع أخرى، يتبين أن تفويت المعادن لم يكن ليتم بهذه السهولة، أو تحت ظروف مماثلة، فهي بدون شك، اتخذت مسارات وكيفيات مختلفة، تداخلت فيها عناصر وأطراف مختلفة ومتنافسة، والتي حاول الروكي، بدهائه ومكره، مرواغتها لتحقيق أكبر قدر من الربح المادي.

كانت البدايات الأولى لعملية التفويت المعدني، وكما تجمع الكتابات الإسبانية [46] مع " دافيد شاربي "، الشخص الرئيسي الذي أسر إليه الروكي بمقترحه، وتكلف " شاربي " بجلب أطراف رأسمالية مهتمة بالمعادن. فبعد حصوله على عينات من الأحجار، قام بتقديم تلك العينات إلى مجموعة من المهتمين والرأسماليين القاطنين بمدينة مليلية. « **فأرسلت شركة " فِكِرُوَا A. y. FIGUEROA " مهندسين لتحليل العينات**» [47]. وكانت النتيجة حسب التقرير أن الأحجار المقدمة غنية بمعدن الحديد، بنسبة % 75 ، وتوجد في مقالع على السطح، سهلة الاستغلال، وقريبة من ميناء مليلية.

---

(45) - **Walter HARRIS** , *Le Maroc Disparu*, Paris, 1929, p. 110.

(46) – انظر :

- **Ruiz ALBENEZ**, op. cit, p.44.
- **MALDONADO**, *El Rogui*, op. cit, pp. 346-347.
- **Francisco CARCAÑO MAS**, op. cit, p. 40.

(47) - **Ruiz ALBENEZ**, op. cit, p.44.

لم تكن شركة FIGUEROA الوحيدة في الميدان. فمع انتشار خبر منـــاجم آيـــث بويفـــرور، ظهرت أطراف أخرى مهتمة بقطاع المعادن، وشهدت مليلية بروز عدة شركات ومؤسسات أغرتـــها الأرباح المتوقعة، ولم يعد التنافس مقتصرا ومحصورا بين مؤسسات إسبانية، بل أخذ أبعـــاد دوليـــة بقدوم مهندسين ينتمون إلى جنسيات مختلفة.

ولضمان مصالحها وحمايتها، قامت المجموعة الإسبانية بالتحالف ضد الفرنسيين وغـــيرهم، فكونت ما يسمى " الشركة الإسبانية لمعادن الريـــف [48] Compania Española de Minas del Rif " برأسمال أولي يبلغ 2000000 بسيطة، مكونة من أربعة مجموعات :

1 – مؤسسة فيكروا La casa FIGUEROA .

2 – مؤسسة كويل GUELL .

3 – مجموعة كليمنتي فرنانديز Grupo CLEMENTE FERNANDEZ .

4 – مجموعة ماكفرسون Grupo MACPHERSON .

قامت المجموعة الفرنسية برد فعل سريع واحتجت لدى الروكي، وأثمر ذلك عـــن ترخيـــص للمجموعة باستغلال معادن الرصاص بجبل " أفرا Afra" لشركة الشـــمال الإفريقـــي La compania Norte Africana ". وموازاة مع الاستغلال المعدني لمناجم الريف، تم الشروع في بناء السكة الحديدية التي تربط المناجم بمليلية، والتي « **أصبح ميناؤها مهيأ لتصدير الحديد الخام إلى الخارج**» [49].

ولم تكن هذه الأحداث لتمر دون إثارة انتباه السلطات المخزنية. وقد سجلت مختلف الكتابـــات التاريخية أن المخزن المغربي، سواء في عهد السلطان المولى عبد العزيز، أو المولى عبد الحفيـــظ، وبعد أن أدرك خطورة ودور الروكي في بيع الأراضي والثروات الباطنية للشركات الأجنبيـــة، قـــام بتقديم « **احتجاجات مكتوبة إلى السلطات الإسبانية بشأن الاستغلال المعدني ومد خط السكة الحديدية**» [50].

غير أن ضعف المخزن في مواجهة قوات بوحمارة كشف بالملموس عن مدى الوهن والشـــلل الذي استشرى في الجسد المغربـــي. « **مما جعل الاعتراضات التي قدمها السلطان لا تأخذ بعين الاعتبار لدى الجهات الأجنبية**» [51].

---

[48] - **Ruiz ALBENEZ**, op. Cit, p.45.

[49] - **Víctor Morales LEZCANO**, "*Las minas del Rif y el capital financiero peninsular, 1906 - 1930*", in, la Revista Moneda y Crédito, Madrid, Diciembre, 1975, n°.135, p. 76.

[50] - **Tomas García FIGUERAS**, *Marruecos*, editora Marroquí, Tetuan, 1955, p. 124.

[51] - **David S. WOOLMAN**, *Abdelkrim y la guerra del Rif*, Barcelona, 1971, p. 55.

ومع ذلك، فقد وقف المولى عبد الحفيظ بصرامة ضد الشركات الأجنبية عندما قامت بمساعيها لديه، و « **رفض السلطان بشدة مقترحات المفوض الإسباني "ميري ديل فال** M. Mery del VAL **"عندما اقترح عليه المصادقة والموافقة على الامتيازات والتنازلات التي حصلت عليها الشركتين** Minas del Rif **و** Norte Africana **من طرف بوحمارة** » [52].

## 9 - موقف قبائل الريف :

استطاع بوحمارة بعد استقراره بقصبة سلوان أن يفرض سلطته ونفوذه على عموم المنطقة الشرقية، كما سبق الذكر. وبعد أن استتب له الأمر انتقل إلى مرحلة مد نفوذه، بالتحضير للتوسع صوب الريف الأوسط، وذلك بإرسال ظهائر تولية قواد وقضاة محليين.

وقد تمكن الروكي من إخضاع قبائل قلعية بقوة السلاح، والبطش بالخصوم. وكذا باستمالة عدد من الأعيان المحليين، وضمهم إلى صفوفه بإغراءات مختلفة. إضافة إلى تأثير الدعاية الواسعة التي ارتبطت بشخصه كداعية للجهاد ضد الأجنبي.

ورغم انكشاف حقيقته بانتحاله صفة السلطان الشرعي من جهة، وانفضاح أمر تواطئه مع الأوربيين عندما قدم أراضي الريفيين للشركات الأجنبية التي قامت بمد خط السكة الحديدية، والتي بدأت أشغالها دون مشاكل وصعوبات، بل وتحت حماية قوات الروكي « **حتى أصبح التنقل بين مليلية ومواقع المناجم يتم بصورة اعتيادية وآمنة** » [53] من جهة ثانية، لم تستطع القبائل الريفية عمل أي شيء يذكر لإيقافه عند حده، بسبب تفوقه الميداني والعسكري، وتحكمه في مجريات الأمور، بل وقد تمادى الروكي في تعامله الفض تجاه قبائل قلعية، خاصة قبيلة آيث بويفرور « **فأخذ ينزع الملكيات من الفلاحين الذين يمتلكون أراضي قريبة من أماكن المعادن، أو التي سيمر عليها خط السكة الحديدية، واحتفظ لنفسه بالمبالغ المالية المقدمة للفلاحين أصلا من طرف الشركات الأجنبية كتعويض عن نزع الملكية** » [54].

تذهب الكتابات الكولونيالية في معرض حديثها عن أهمية دور الروكي في تثبيت الوجود الاستعماري، وتسهيل مأمورية التغلغل السلمي في منطقة الريف، إلى ذكر بعض الانعكاسات " الإيجابية " لتواجد الشركات المعدنية بالريف، وذلك برصد بعض مظاهر التغيير في أنماط وسلوك الريفيين. « **فمع بداية الأنشطة المعدنية أصبح الريفيون يتقاضون أجورا لم يكونوا يحلمون**

(52) - **F. WEISGERBER**, *Au Seuil du Maroc Moderne*, Rabat, édit. La Porte, 1947, p. 202.

(53) - **Tomas García FIGUERAS**, *Marruecos*, op. cit, p. 125.

(54) - **MALDONADO**, *El Rogui*, op. cit, p. 351.

**بها»** [55]، وهو الأمر الذي أدى إلى تحول وتغيير في مستوى مقتنياتهم اليوميـــة. « **فبدأ البعض منهم يفضل الخبز الأبيض المهيأ في المخابز»** [56].

كل هذه المظاهر الجزئية أو غيرها التي رصدتها هذه الكتابات لم تكن لتخفي الموقف الحقيقي للقاعدة العريضة للفلاحين المعروفين بجهادهم وحمايتهم للثغور، ومحاربتهم للأجنبي، والذين ما فتئوا يصدون محاولات الإسبان الخروج من مليلية، وكانت حوادث 1893 لا تزال حية في ذاكرتهم، تذكـي فيهم معنويات المقاومة، فأصبحوا يتحينون الفرصة المناسبة للانفلات من قبضـــة الروكـــي، والتـــي ستسنح عندمـــا « **قرر الروكي تحويل الاهتمام، وتوسيع سلطته في ناحية الريف الأوسط وتحديدا قبيلة آيث ورياغل ومنطقة جبل حمام حيث مناجم النحاس والرصاص»** [57].

وقد كان الروكي في مرحلة سابقة قد عبر عن مشروعه المستقبلي للإسباني " إنريكي أركس" عندما وقع هذا الأخير أسيرا لديه في سلوان قـــائلا : « **إن النصيب الأوفر من الثروات المعدنية الريفية سيستغله الإسبان الذين سيقومون كذلك بالبحث عن الطرق القمينة بتنمية المبادلات التجارية، حيث أطمح لتهييئ وإنجاز موانئ بأجدير، وبادس، ومارشيكا»** [58].

لقد أخطأ الروكي في تقديره لموازين القوى عندما استصغر قوة القبيلة الورياغلية، واعتقد أنه بمقدوره ترويضها والسيطرة عليها، خاصة بعد أن منح لها الفرصـــة الكافيـــة لاســتجماع قواهـــا، والتحضير للمعركة الفاصلة، ومقاومة قواته الزاحفة على سهل النكور في أوائل شتنبر 1909، حيـــث منيت قواته بهريمة ساحقة، أطلق عليها الإسباني كاركانيو ماس : « **بداية النهاية** » [59].

وبتراجع فلول قوات الروكي بقيادة رئيس أركانه الجيلالي مُولْ الوُضُو، أصبحـــت الفرصـــة – التي طال انتظارها – سانحة أمام القبائل الريفية للانتقام من بطش الروكي. فسارعت إلى الفتـــك بفلوله المنسحبة، واضطر معها الروكي في الأخير، عندما شعر بالخطر المحدق من طرف القبـــائل الثائرة، إلى مغادرة قصبة سلوان متوجها نحو الجنوب. وقد استمرت محاربة القبائل الريفية له حسب العربي الورياشي بقيادة الشريف المجاهد محمد أمزيـــان « **منذ أن انهزم جيش العبد في واقعة**

---

(55) - **Emilio BUENO** y **Nuñez de PRADO**, *Historia de la acción de España en Marruecos desde 1904 a 1927*, Editorial Ibérica, Madrid, 1929, pp. 11-12.

(56) - **Ruiz ALBENEZ**, op. cit, p.91.

(57) - **MALDONADO**, *El Rogui*, op. cit, p. 351.

(58) - **Enrique ARQUES**, *Tres Sultanes a la porfía de un reino*, op. cit, p. 158.

(59) - **Francisco CARCAÑO MAS**, *Melilla Rifeñeras*, op. cit, p. 72.

**نكور إلى أن غادر قلعة سلوان نهائيا نحو ستة أشهر»** [60]. وتحول بوحمارة إلى طريد يتراجع، وتنفض من حوله قواته، وتتعرض المتبقية منها لهجومات القبائل، إلى أن سقط في أيدي قوات السلطان المولى عبد الحفيظ.

## 10- الاستغلال المعدني بعد ذهاب الروكي :

بعد مغادرة بوحمارة لسلوان، أصبحت المنطقة تعيش بداية فصل جديد من تاريخ الريف الشرقي، اتسم بالمناوشات والصراعات التقليدية بين زعامات وولاءات للإسبان، وغالبية من الريفيين المناهضين للاحتلال الإسباني. ولقد كان لغياب الروكي عن الساحة نتائج سلبية على أنشطة الرأسمال الإسباني، خاصة في جانبه المعدني. يقول فيكيراس Figueras : « **لم نتمكن من الوصول إلى اتفاق مع الأهالي لاستئناف الأشغال في المناجم، فوجه أمر حكومي إلى الجنرال " ماربنا** Marina **" حاكم مليلية بوجوب حماية الأشغال الجارية. غير أن الريفيين قاموا برد فعل معاكس. وفي تاسع يوليوز هاجموا مجموعة من العمال المشتغلين لحساب الشركات المعدنية في إنجاز خط السكة الحديدية، ومات ستة منهم، وجرح آخر، وكان رد فعل القوات الإسبانية سريعا إذ قامت بمهاجمتهم، واحتلال مواقع أخرى»**[61] .

تأسيسا على ما سبق، نخلص إلى أن المحاولات الإسبانية في كسب حلفاء جدد يقومون بدور الروكي المهزوم قد باءت بالفشل، وهذا مرده إلى تنامي واسترجاع الريفيين لروح الجهاد والوطنية، خاصة مع ظهور شخصية محمد أمزيان، متزعم حركة المقاومة. وبما أن مصالح الرأسمال والنخبة السياسية الإسبانية تقتضي استمرار الاستثمارات المعدنية تمهيدا للاحتلال الميداني المرتقب، استغلت إسبانيا هجوم الريفيين على عمال الشركة كذريعة لتحقيق مخططها التوسعي. وبهذا دشنت مرحلة جديدة في تاريخها الاستعماري بالمغرب، بالانتقال من مستوى التوسع الاقتصادي التجاري إلى مرحلة السيطرة الميدانية على الأراضي المغربية.

وقد كانت لمعارك الريفيين ضد الإسبان أصداء وانعكاسات داخل إسبانيا، إذ قامت دعاية واسعة مفادها أن أبناء إسبانيا يقدمون فداء للشركات المعدنية، ويساقون للموت من أجل مصالحها.

---

(60) - **الحاج العربي الورياشي**، *الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان*، المطبعة المهدية، تطوان، 1976، ص. 86.

(61). **Tomas García FIGUERAS**, *Marruecos*, op. cit, p. 125.

وقد تسبب هذا الاحتجاج الذي حركته ونظمته القوى النقابية والعناصر اليسارية المناهضة للاستعمار في حوادث « **بلغت أوجها فيما يسمى بعد ذلك بالأسبوع المأساوي لبرشلونة** » [62].

## 11 - مؤتمر الجزيرة الخضراء والمسألة المعدنية في الريف :

كانت قضية المعادن من ضمن النقط المطروحة في جدول أعمال مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906)، وبعد مداولات واسعة بين المؤتمرين، وتحت باب تصريح خاص بالأشغال العامة والمصالح، صدر بند الاتفاق حول المعادن كما يلي : « **سيصدر ظهير سلطاني يحدد شروط امتياز المناجم واستغلالها، على أن تستوحي الحكومة المغربية التشريعات الأجنبية القائمة بهذا الخصوص** » [63].

لا شك أن التصور العام السائد آنذاك بين ممثلي الدول المجتمعة في الجزيرة الخضراء، هو تصور أملته موازين القوى بين مختلف هذه الدول، بحيث لم تتمكن أية دولة منفردة بالاستئثار بالامتيازات دون سواها. لذلك كان التعبير والصياغة صريحة بإقرار سلطة المخزن والسلطان كصاحب الحق الأول في تخويل الامتيازات والتصرف وإبرام حقوق الاستغلال. غير أن الإضافة الخاصة للمؤتمر والتي تعكس بوضوح إجماع تدخل القوى العظمى في الشؤون الداخلية للمغرب، هو اشتراط أن يكون النص المنظم للشأن المعدني منقولا أو مستوحى من التشريعات الأجنبية، جزئيا أو كليا.

وهكذا، شكل البند المتعلق بالمعادن المغربية الذي أقره مؤتمر الخزيرات دفعة قوية للرأسمالية الأوربية في الاندفاع والتهافت للحصول على حق استغلال مناجم ومعادن الريف، خاصة المتواجدة منها في منطقة الريف الأوسط، لأن معادن الريف الشرقي تم البت فيها بصفة نهائية – وإن لم تلق موافقة المخزن –، إذ لم تعد مسألة استكشاف ولا قضية تمليك. فحتى إن تعرضت أعمالها للتوقف بسبب انتفاضة الريفيين، فإنها في النهاية ستؤول إلى أيدي الشركات الإسبانية.

أما المعادن غير المستكشفة، أو التي لم تحدد قيمتها المادية بعد، كالتي شاعت أخبار وجودها بجبل حمام ونسجت بشأنها أساطير وحكايات، فإنها بقيت في منأى عن أيدي الأجانب. لكن لما اقتنعت الدوائر الرأسمالية المعدنية بأن المغرب سيتم احتلاله لا محالة من طرف القوى الأوربية، فقد سعت بكل إمكانياتها وطرقها المختلفة إلى شراء تلك الأراضي وتمليكها. وكما يقول الفرنسي " شارل

---

(62) – **ميكيل مرتين**، *الاستعمار الإسباني في المغرب (1860-1956)*، ترجمة عبد العزيز السودي، مطبعة النجاح الجديدة، ط.1، 1988، ص. 31.

(63) – **محمد خير فارس**، *المسألة المغربية (1900-1912)*، مكتبة الشرق، ط.1، دمشق، ص. 344.

أندري جوليـــان Charles André JULIEN : « **كان هدف التمليك والحيازة هو السعي لضمان اقتسام الحصة في المستقبل** »[64].

ومرة أخرى تفيدنا الرواية الشفوية عن حالات إقدام بعض الريفيين صحبة أجانب، باحثين عن المعادن في مناطق مختلفة من الريف الأوسط، وخصوصا جبل حمام من آيث ورياغل لأخذ عينـــات معدنية، واستطاعت القبيلة اكتشاف المتورطين في العملية، وتمت متابعتهم بالغرامات بعد تمكنهم مـن الفرار خارج القبيلة، كحالة " اعمار سينتو " الورياغلي. وتشير الرواية الشفوية كذلك لحالات عديـدة من البيع الصوري – دون حيازة الأرض من طرف المشتري – قام بها مغامرون ريفيون مع أجانب من جنسيات مختلفة، خاصة الإسبان، حيث تعاقدوا معهم على بيع أراضي قد لا تكون فـــي أغلـب الأحيان في ملكيتهم، وبعقود مزورة، مقابل مبالغ مالية مهمة. وكان اعتقـــاد الريفييـن أنـــهم بـــهذه الصفقات المربحة قد تمكنوا من خداع الأوربيين الذين لن يتمكنوا إطلاقا من التصرف في الأراضـــي المبتاعة.

ومن نماذج البيوع المتعلقة بالأرض المحتوية على المعدن، نورد وثيقة تتعلق بمنطقـــة جبـــل حمام :

(64) - **Charles André JULIEN**, *Le Maroc face aux impérialismes*, édit. J. A. 1978, p. 83.

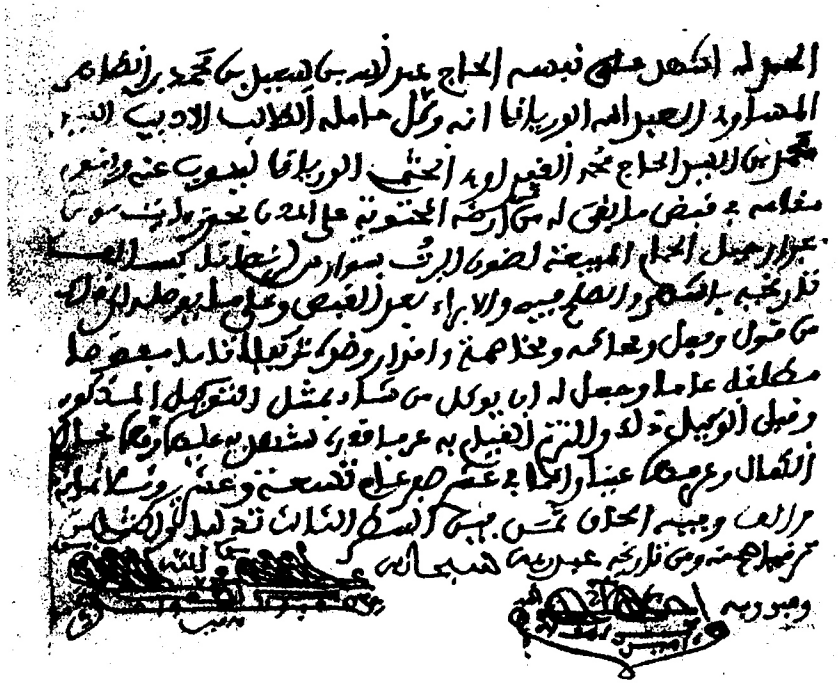

« الحمد لله أشهد على نفسه الحاج عبد الله بن سعيد بن محمد بن الطاهر المساوي العبد الله الوريا غلي أنه وكّل حامله الطالب الأديب السيد محمد بن السيد الحاج القمراوي العثمي الوريا غلي لينوب عنه ويقوم مقامه في قبض ما بقي له من ثمن أرضه المحتوية على المعدن بحوز آيث موسى بجوار جبل الحمام المبيعة لضُونْ البرتْ سْوارسْ لُرِنْصَانَا بسالف تاريخه بأشهر والصلح فيه والإبراء بعد القبض وعلى ما يوصله إلى ذلك من قول وفعل ومحاكمة ومخاصمة وإقرار وضده توكيلا تاما مفوضا مطلقا عاما وجعل له أن يوكل من شاء بمثل التوكيل المذكور وقبل الوكيل ذلك والتزم القيام به عرفا قدره شهيديه عليهما وهما بحال الكمال وعرفهما عينا واسما في عشر صفر عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف وفيه الحاق ثمن بين السطر الثالث تدليا والثامن ترقيا صح منه ومن تاريخه عبد ربه سبحانه

أحمد بن الحاج محمد — عبد الله بن محمد

لطف الله به آمين — لطف الله به آمين » [65].

[65] – وثيقة عائلية في حوزتنا.

النص الذي بين أيدينا مؤرخ بتاريخ 10 صفر 1329 هجرية، الموافق 10 فبراير 1911م، عبارة عن وثيقة مكتوبة ممضاة من طرف عدلين، ويتعلق موضوعها بتوكيل مفوض من الحاج عبد الله بن سعيد من آيث موسى، إحدى المداشر التابعة لفخذ آيث عبد الله، التابع لقبيلة آيث وياغل، للطالب محمد بن السيد محمد الحاتمي القمراوي، نسبة إلى مدشر آيث قمرة، الورياغلي كذلك، وذلك لينوب عنه في قبض ما تبقى من ثمن البيع الذي أبرمه الحاج عبد الله المذكور، مع " ضُونْ أَلْبِرْتُ سْوَارِسْ لُرِنْصَانَا "، والذي يبدو من اسمه أنه إسباني الجنسية، عمل مهندسا ومنقبا عن المعادن، وممثلا للشركة الهولندية " H MÜLLER " في مليلية (*). وتعود عملية البيع، كما تشير الوثيقة، إلى تاريخ سابق بأشهر، أي نهاية سنة 1910، على أبعد تقدير.

والبيع المبرم بين الحاج المذكور والإسباني، يتعلق بأرض مجاورة لجبل حمام، يعتقد احتواؤها على المعدن الذي لم تبين الوثيقة طبيعته.

يستنتج من تاريخ الوثيقة أنه إلى حدود المرحلة لم تكن أراضي الريف الأوسط قد سقطت تحت الاحتلال الإسباني، وعليه فمكان عقد البيع لا يمكن أن يكون إلا في إحدى المراكز التابعة لإسبانيا، وغالب الظن أن هي جزيرة النكور المحتلة بحكم قربها من هذا المجال الجغرافي، والتي استعملت كمدخل للتغلغل التجاري عبر ربط علاقات تجارية مختلفة مع ساكنة الساحل الريفي.

وبخصوص الوثيقة، لم نتمكن من استجلاء السبب الذي جعل الموكل ينيب عنه شخصا آخر ليقوم مقامه في استخلاص ما تبقى من ثمن البيع. فهل العجز عن الذهاب مرتبط بمانع ذاتي كالمرض والبعد والانشغال؟ أم لسبب موضوعي كالخوف من المتابعة من طرف القبيلة مثلا؟ أم لسبب آخر؟

وكذلك لا تمكننا الوثيقة من التأكد هل تسلم الشخص الموكل مؤخر الثمن من الإسباني أو لا؟ وكم يبلغ الثمن؟

رغم أن العديد من الأسئلة تبقى معلقة، وبدون جواب، فإن أهمية هذه الوثيقة، تبدو لنا في قيمتها التاريخية، وفي تأكيدها لمضامين الروايات الشفوية المتحدثة عن تهافت الأجانب في تلك المرحلة التاريخية على شراء الأراضي في منطقة الريف، خاصة التي يعتقد أنها غنية بالمعادن.

(*) - **María Rosa de MADARIAGA**, *España y el Rif : Crónica de una Historia casi olvidada*, colección : "Biblioteca de Melilla", 1999, p. 170.

## 12 - التدخل الألماني بالمغـرب :

قامت ألمانيا، بصفتها إحدى أهم القوى الأوربية منذ أواخر القرن التاسـع عشـر، بالتنـافس للسيطرة على المغرب، حماية لمصالحها الاقتصادية الحيوية. وقد تضاعف النفوذ والدور الألماني في المغرب بعد زيارة الإمبراطور غِيُوم الثاني لطنجة سنة 1905، حيث أعطى دفعة قويـة للرأسـمالية الألمانية لتثبيت تواجدها بالمغرب، وهو الذي بدأ على شكل وكالات تجارية متواضعة أول الأمر، ثم تطور إلى شركات قوية. ومن بين أهم هذه المؤسسات، مؤسسـة " مانسـمان Mannesmann " ذات الأنشطة الاقتصادية المتنوعة، لاسيما المعدنية.

إن قراءة مقال الجنرال الفرنسي " مَيْتْرو MAITROT " [66]- رغـم خلفيتـه الأيديولوجيـة المعادية للتوسع الألماني - حول مؤسسة " مَانِسْمَانْ " مفيدة في تكوين فكرة عامة عن مـدى أهميـة وقوة هذه المؤسسة، حيث يذكر أن مجموعة مانسمان استقرت أول الأمر، في بداية العقد الأول مـن القرن العشرين، في الشاطئ الأطلسي من المغرب، وركزت أنشطتها في المنطقة الممتدة بين آسـفي إلى المهدية كمنطلق أولي، وسرعان ما توسعت الرقعة الجغرافية لأنشطتها لتشمل مناطق مختلفة من التراب الوطني كالجنوب والريف.

وفيما يتعلق بهذه الأخيرة، وردت فكرة دالة في بعض الكتابـات التـي أرخـت للمرحلـة، كمذكرات الضابط البحري الألماني " ليونارد كارو Leonhard KAROW "، الذي قضى تسع سـنوات في خدمة السلطان المولى عبد العزيز، كقائد لسفينة " التركي "، والذي أشار في أحد فصولـها «**إلى القائه مع "رينـهارد مانسمان** Reinhard MANNESMANN **" الذي قدم إلى مليلية في مارس** 1906 **برفقة زوجته وهما في شهر العسل**» [67]. وقد علق الفرنسي " جـون لـوي ميـج ; J. L MIEGE "، في أحد هوامش الكتاب المذكور، مبينا المقاصد الخفية لمانسمان من رحلتـه إلـى هـذه المنطقة، وهي بطبيعة الحال معدن الريف. وتتأكد صحة تعليق " ميج " إذا علمنا أن مدينة مليليـة، وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، كانت محطة للشركات المعدنية المختلفة الجنسيات التي أثـارت شـهيتها الأخبار القائلة بغنى المنطقة بالمعادن، مما جعلها تتنافس وتتسارع للحصول على امتيازات استغلالية.

---

[66] - **Général MAITROT**, « *Les MANNESMANN au Maroc* », (article), Bibliothèque Nationale, Rabat, p. 26.

[67] - **Leonhard KAROW**, *Neuf années au service du Maroc*, traduction et notes : Monique et Jean-Louis MIEGE, édit . La Porte, 1998, p. 183.

ويضيف " ميج " أن مانسمان قام فعلا، رفقة القبطان " كارو "، بزيارة إلى السلطان المولى عبد العزيز، وقدما له تقريرا من اثنتين وعشرين صفحة، على شكل طلبات الاستغلال المعدني، أبدى فيها السلطان موافقته المبدئية [68].

ورغم اعتقادنا بأهمية شركة مانسمان، وأدوارها الخطيرة على المستوى الاقتصادي والمالي، وحتى السياسي، وهو الأمر الذي يتوضح جليا في مرحلة لاحقة، لم نتمكن من تبيان، والوقوف بكيفية واضحة، على دور مانسمان في النشاط المعدني بالمنطقة الشمالية إلا لماما. وهذا يعزى في نظرنا إلى عاملين :

- ندرة الكتابات والمصادر المهتمة بدور مانسمان في شمال المغرب، مما يحول دون الكشف عن خفايا وأدوار هذه المؤسسة.

- أسلوب عمل مانسمان واشتغالها بالمنطقة الشمالية، والتي يبدو أنها اختارت الاختفاء والتواري، واعتماد وسطاء أجانب من جنسيات أخرى، خاصة الإسبان. وهذا ما أكده " إنريكي أركس " [69]، عندما ذكر المجموعة الإسبانية " فيكروا Figueroa " مقرونة بمؤسسة مانسمان، كإحدى الشركات الأولى التي اهتمت بمعادن الريف الشرقي.

وتتجلى خطورة وقوة مانسمان أكثر بتدخلها في الشؤون السياسية المغربية في تلك المرحلة العصيبة، حيث انغمست في لعبة التحالفات بحثا عن سبيل لضمان مصالحها الاقتصادية، وامتيازاتها في منافسة شديدة ضد المؤسسات الفرنسية. فعندما قام المولى عبد الحفيظ حاملا راية الجهاد ضد أخيه المولى عبد العزيز « **كان موقف بعض الجالية الألمانية المتواجدة بالبيضاء مؤيدا للسلطان عبد الحفيظ وبدأوا حملة قوية لصالحه** » [70].

ولم تقف مانسمان عند حد التأييد السياسي فقط، بل بادرت، على حد قول " فيزجربر D. F. Weisgerber " إلى « **دعم المولى عبد الحفيظ بتسبيق نقدي مقداره 400000 فرنك فرنسي لتدعيم صفوفه وتقويته ضد أخيه** » [71]. واستمرت مانسمان طيلة حكم السلطان عبد الحفيظ بجانبه مقابل الحصول على مكاسب وامتيازات ميدانية.

---

[68] – نفس المرجع السابق، ص. 183.

[69] - **Enrique ARQUES**, op. cit, p. 207.

[70] – **محمد خير فارس**، م. س، ص. 385.

[71] - **F. WEISGERBER**, op. cit, p. 180.

كان مشروع مانسمان طموحا للغاية، يعكس قوتها الاقتصادية المتصاعدة، وتطلعاتها إلى تأسيس إمبراطورية مالية كبرى. وهذا ما يتجلى في العرض السياسي الذي قدمته للحكومة الإسبانية، إذ طلبت منها سنة 1913 قبول اتفاق حول حل سياسي تتبناه وتتعهده الشركة المذكورة، وذلك بين طرفي الصراع [72]:

1 – الحكومة الإسبانية التي أوكل إليها مهام تطبيق الحماية وتهدئة المنطقة الشمالية.

2 – القبائل الريفية الجبلية المنتمية لهذه المنطقة والرافضة للخضوع الإسباني.

اقترحت مانسمان نفسها كوسيط يستهدف إمكانية تهدئة واحتلال المنطقة الشمالية بالتدخل لدى القبائل لكي تعترف بالنفوذ الإسباني على مجموع المنطقة التابعة لها بموجب معاهدة الحماية، وذلك مقابل أن تتمتع هذه القبائل بالاستقلال الذاتي في تسيير شؤونها. وكل هذا مشروط بطبيعة الحال بموافقة إسبانيا على السماح لشركة مانسمان بتسيير الشؤون الاقتصادية. ولكن الحكومة الإسبانية رفضت المقترح، لكونه مخالفا للاتفاقيات الدولية الموقعة في الموضوع، وكذلك تخوفا من الآثار والنتائج السلبية التي قد تنجم عن ظهور إسبانيا بمظهر الضعف والعجز.

وفي محاولة لتفسير حيثيات وأسباب إقدام مجموعة مانسمان على تقديم مثل هذا المقترح، يقول الجنرال " كودشو GODCHOT " بنوع من الوثوقية : «... **إن مانسمان لم تتقدم بمثل هذا الاقتراح إلا بعد أن قامت بأبحاث وعمليات تنقيب، ودرست ميدانيا إمكانية تأسيس ميناء بخليج الحسيمة، وكذلك تشييد خط السكة الحديدية لنقل ثروات الريف**» [73].

إن مثل هذا القول يدعونا للتفكير والتساؤل عن نقط الالتقاء بين مشروع مانسمان هذا، واتفاقية البيع الصورية التي ابرمها بعض الريفيين من قبيلة بقيوة في تلك المرحلة التاريخية مع الثري الإسباني " الماركيز دي كوبا El Marques de Cuba " الذي اشترى بموجبها جميع المنطقة الممتدة والمحيطة بموقع ميناء الحسيمة الحالي [ من رأس مُرُّو بْيخُو إلى رأس مُرُّو نْوِيبُو ].

لا نعتقد أنه من قبيل المصادفة والاتفاق، ورغم غياب الحجج والوثائق الكافية للقول بمثل هذا الترابط بين الواقعتين، إلا أن في أسلوب التورية والتستر الذي نهجته مانسمان، وتقديمها وسطاء

---

[72] – انظر :

- **Colonel GODCHOT**, « *Le mystère des mines du Riff* », in. Revue Mondiale, Décembre, 1926.

– **عبد العزيز التمسماني خلوق**، *وثائق عن الدعي الفتان بوحمارة*، م. س، ص. 7.

[73]- **Colonel GODCHOT**, op. cit, p. 248.

أجانب في معاملاتها التجارية بالمنطقة الشمالية، ما يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود خيط ناظم بين ملوكيز ذي كوبا ومانسمان.

وكيفما كان الأمر، فإن مجموعة من الحيثيات والشروط السياسية الدولية كبحَت اندفاع مانسمان، وحالت دون تحقيقها لمشاريعها الاقتصادية والسياسية، كانت البداية الأولى بسبب تطور التشريعات والقوانين المنظمة للمسألة المعدنية. فقد صدر ظهير بتاريخ 19 و 20 يناير 1914 تأسست بموجبه اللجنة التحكيمية الدولية للنظر في الدعاوي والمطالب المعدنية، وكان اجتماعها أول مرة بباريس بضعة أسابيع قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، « **وتوصلت هذه اللجنة بحوالي** 203 **مطلبا يهم المنطقة التابعة للنفوذ الإسباني ... ولم تقبل اللجنة إلا** 16 **مطلبا** » [74].

ويضيف الكاتب " أنجلو كيريلّي "[75] مؤكدا نفس الفكرة السابقة، أن مطالب همت قبيلتي بقيوة وبني يطفت، قدمت من طرف " ليون و راموس León y Ramos "، وكذلك " مُرُوكُو مَيْنِينْغْ "، إضافة إلى مانسمان، غير أن لجنة التحكيم الدولية رفضتها.

ولم تكن هذه الإجراءات المتخذة من طرف اللجنة إلا مقدمة لخطوات تلتها كانت بمثابة الضربة المميتة للمجموعة الألمانية مانسمان. فمع بداية الحرب العالمية الأولى، وبضغط من فرنسا، استصدر المخزن « **ظهيرا في** 5 **غشت، وآخر في** 13 **منه، يلغي بموجبه الامتيازات التي كان يتمتع بها الألمان والنمساويون والصنغاريون بالمغرب** » [76].

وهكذا تمت مصادرة أملاك الألمانيين، ومتابعة بعضهم، ليتوقف بذلك المشروع الاقتصادي الألماني، وتشل رساميله، فينتهي بذلك فصل من حلقات الصراع السياسي الاقتصادي الفرنسي الألماني، والذي قادته بشكل مباشر أحيانا الشركات المعدنية. ولكن، هل حسم الصراع داخل المغرب لصالح فرنسا بإخراج الألمان؟ وما هو رد فعل الجانب الألماني في مناهضته للوجود الفرنسي؟ وكيف ستسعى ألمانيا لاسترداد حقوقها وامتيازاتها؟ وهل سيغلق ملف المعادن الريفية نهائيا؟ أم سيأخذ أبعاد أخرى في مرحلة المقاومة الريفية؟

---

(74) – نفس المرجع السابق، ص. 249.

(75) – **Angelo GHIRELLI**, *Monografía de Bokoia*, op. cit, p. 50.
*Apuntes sobre Beni Ittefi*, op. cit, p. 21.

(76) – **Bertrand DESMAZIERES**, *Pierre de Sorbier*, op. cit, p. 37.

# البحر الأبيض المتوسط :
# فضاء الاختلاف والتواصل

تأليف : إدغار موران
ترجمة : عبد المجيد السخيري

ثمة نزاعات ثلاثة بمحيط البحر الأبيض المتوسط توسوس حكام الكوكب : البوسنة، الشرق الأوسط، الجزائر. والأخرى يمكنها أن تحتدم، بل أن تنفجر : كردستان، لبنان، كوسوفو، مقدونيا... فهذا البحر يشكل إحدى خطوط التشقق بين الشمال الغني، والجنوب التابع. ومع ذلك، فإن البحر الأبيض المتوسط ليس مجرد منطقة للعواصف، ويبقى أنه مهد إحدى الحضارات الأساسية للعالم : إنه يظل مساحة للاختلاط، وحيزا حيث لا يزال ممكنا إعادة اكتشاف اقتصاد الضيافةla convivialité.

إذا كان باستطاعة جيناتي وصبغياتي أن تتكلم، فستحكي لكم عن ملحمة متوسطية ابتدأت مثل ملحمة أوليس، إنما ليس إطلاقا في جنوب المتوسط الأسيوي، وهذا الشرق الأوسط الحالي. ستحكي لكم عن سفرها في الإمبراطورية الرومانية وحلولها بشبه الجزيرة الإيبيرية وبروفانس. ستحدثكم عن أكثر من ألفي سنة من التجدر(*)، وزهاء سبعمائة سنة في إسبانيا متعددة بملكيات عديدة، وبثلاث ديانات، حتى 1492 بالنسبة للبعض والقرن السادس عشر بالنسبة للبعض الآخر. ستقول لكم جيناتي وصبغياتي كيف أمكن لأولئك الأسلاف الرهبان أن يعرفوا في غضون قرنين عماد الكنيسة الكاثوليكية : ستروي لكم بعدها لإقامتها التي تهَوَّدت من جديد في الدوقية الكبيرة لتُوسْكَانَا، بليفرون، حتى نهاية القرن السابع عشر حيث توجهت، مدفوعة من قبل أكبر تيارات التوسع الاقتصادي للغرب، نحو المدينة الكبيرة لسالونيك المكتظة بأغلبية كبيرة من السفاردا الذين كانوا يتكلمون اللغة القشتالية القديمة السابقة عن الخوطا(**) la jota . وبعد ذلك ستحدثكم عن العودة نحو الغرب، وأخيرا التجدر في فرنسا.

ستقول لكم جيناتي أن جميع هذه الهويات المتوسطية المتتابعة توحدت، وتعايشت متكافلة داخلي. وأن البحر المتوسط، خلال رحلة العشرين قرنا هاته، صار وطنا عظيما. فحليمات لغتي

(*) – بروفانس : مقاطعة فرنسية (م).

(**) – الخوطا : نوع من الرقص الشعبي (م).

متوسطية، تستنجد بزيت الزيتون، وتتحمس بالباذنجان والفُلْفِلات المشوية، وترغب بـ:tapas وب:mezes. أُنْني تعشق الفْلامينْكُو والأنشودات الشرقية. وفي روحي شيء لا أعرف ما هو يجعلني في تناغم بَنَوِّي مع سمائها وجزرها، شواطئها، جفافها وخصوبتها. الجينات ستبوح لكم أيضا أنها عاشت تجربة إيبيرية نموذجية، تجربة المَارَانْ Marane. والمارانية ليست فقط تلك الطريقة التكريبة لتكون يهوديا في قناع مسيحي، أو طريقة لتذويب قرابتنا اليهودية في مسيحية صادقة كما يعتقد الكثيرون؛ إنها أيضا تجربة لقاء ديانتين متنازعتين، في نفس العقل ونفس الروح. فإما أن هذا النزاع ينتج ذوبان ما هو شكلي من الديانة الأولى والثانية ويبرز، بالتالي، احتراقا صوفيا خارقا، وهذا هو تِيرِيزْ دافيلا Thérèse d'Avila. وإما أن اصطدام الديانتين سيذَوِّب الواحدة والأخرى لإفساح المجال للشك والاستفهام المعمم، وهذه حالة مُونْطَانِي Montaigne المنحدر هو الآخر من الرهبان converos. وإما كذلك، سيتحطم الإله المتعالي، ومن ثم ستصبح الطبيعة إلهية بصيرورتها ذاتية الخلق، وهذا هو سبينوزا Spinoza. وأنا صوفي، نعم، بالتأكيد على طريقتي، أنا عقلاني ومتشكك، ولم أكن لأكون من سيفاراد[1] ، أريد أن أقول الإسبانات Les Espagnes في تعدديتها.

لم تحدثني جيناتي عن برشلونة، ولكن عقلي وشَمَتْه برشلونة. كان عمري عشر سنوات في يناير 1939 عندما علمت، بفظاظة، سقوط برشلونة[2] . وقد كتبتُ في مؤلفي النقد الذاتي : «**كنت أبكي وأنا أحدق في المَانْشِيط الكبير لباريس – سْوَار** Paris-soir، **مفقيا وجهي خلف الجريدة، حيث كان والديَّ بالصالون يستمعان أكُورْدْيُون رادْيو – إلْ- دُوفْرَانْسْ، ولم أكن أعرف أنه في نفس الوقت لم يعد زميلي في القسم جَاكْ فْرُونْسِي رُولَانْدْ ومئات الآخرين سبايانا، وأنهم ولجوا المواقعة، يندبون كلهم، ووحدهم، نهاية الأمل، وأن كل الآمال الأخرى التي ستستيقظ بعدها ستُشيَّد على تلك الانهيارات**»[3] . لم أكن قد أضفيت طابعا مثاليا على إسبانيا الجمهورية، لأنني كنت أدرك أية صراعات داخلية، وأية حرب أهلية متفرقة في وسط الحرب الأهلية الكبرى التي عاثت فسادا ببرشلونة، والتي تسببت على الخصوص في اغتيال أندونين[4] على يد المصالح السرية السوفياتية للجنرال أورلوف. غير أنني توقعت بغموض أن هذه النكسة كانت بداية لنكسة تاريخية أكثر رعبا

---

(1) – اسم إسبانيا في اللغة العبرية.

(2) – في 26 يناير كانت العصابات الفرنكاوية قد احتلت برشلونة إبان الحرب الأهلية بإسبانيا.

(3) – **إدغار موران**، *نقد ذاتي*، لوسوي، باريس، 1970، ص.21.

(4) – رجل سياسي كطلاني، مؤسس الحزب العمالي للتوحيد الماركسي (POUM)، اختفى إبان الحرب الإسبانية (من المحتمل أن يكون قد أعدم من قبل أعضاء الحزب الشيوعي الإسباني).

أيضا : أحسست مثل البعض، أن سقوط برشلونة كان بداية انهيارات أخرى، أولا سقوط فرنسا سنة بعد ذلك، ثم سقوط أوربا.

وعندما اكتشفت برشلونة، بعد الحرب، عانيت مما سماه كاتب ألماني يتحدث عن برشلونة ب" تسمم مفرم". وأنا أحب برشلونة أكثر من أي وقت مضى، مدينة الأمل، مدينة السلام، المدينة المفتوحة، الغنية بثقافتها الكطلانية، وثقافتها الإسبانية، وثقافات المهاجرين الإيبيريين اللذين تطبَّعوا بالكطلانية في وسطها. إنها مدينة تتقدم، في نفس الحركة حيث تتزود من ماضيها، نحو مستقبل تجمع إيبيري، أوربي، متوسطي.

لكن، في الوقت نفسه الذي شعرت فيه بسقوط برشلونة في 1939 كإنذار أكثر شؤما بالنسبة لأوربا، كنت أشعر منذ 1944 بصدمة من نفس الحجم، وأكثر ثقلا من الإنذارات المشؤومة في تفسخ التعدد الإثني بمنطقة البوسة – الهرسك، وبمنطقة سارايفو. أليست البوسنة هيرزيغوفين هي نفسها الصورة المسبقة لأوربا التي نريدها؟ أليست هي في الآن نفسه، علمانية ومتعددة الإثنيات؟ إن هذا الاغتيال للبوسنة – هيرزيغوفين يضرب في العمق فكرة أوربا وإمكانية أوربا.

إننا نرى انبعاث ألم اعتقدنا أننا تجاوزناه ببلورتنا للاتحاد الأوربي. صحيح، أن الدولة القوطية لعبت دورا حضاريا خصبا في تاريخ أوربا، بيد أنها حملت في أحشائها احتمالا كامنا للتطهير، مكبوتا في أحيان كثيرة. إن التطهير القومي كان قبل كل شيء دينيا. ففي 1492 حدث بإسبانيا، وبعدها انتصار مبدأ cujus regio ejus religio [5]، طرد بروتستانت فرنسا إثر إلغاء مرسوم نانت Nantes في 1685، مطاردة اليهود وحجزهم في منعزلات في كل أنحاء العالم تقريبا، وبعدها يصبح التطهير، في القرن العشرين، عرقيا وإثنيا. والحروب اليونانية – التركية تسببت في الترحيل الجماعي ليونانيي آسيا الصغرى نحو مقدونيا، وأترتك مقدونيا نحو تركيا، بعدها أراد هتلر تطهير ألمانيا من اليهود، ومن البوهيميين، والمرضى العقليين. نهاية الحرب أخرجت الألمان من سيليزيا والسويد : البولونيين من أوكرانيا.

واليوم، كل النزاعات في أوربا، والبحر المتوسط، وفي يوغوسلافيا السابقة، تأخذ شكلا فظيعا للتمييزات الإثنية والدينية. والعلاج الوحيد للتصورات المغلقة للإثنية والأمة يكمن في المبدأ الترابطي. فمصير أوربا بين يدي بديل الترابط أو البربرية. وليس فقط مصير أوربا، بل أيضا مصير البحر المتوسط. البحر المتوسط، مفهوم واضح جدا لكي لا يكون غامضا! البحر الذي يحمل في طياته قدرا من التعدد وقدرا من الوحدة! بحر الخصوبات الشديدة واليبوسات الشديدة ! بحر حيث المركز

(5) – المبدأ الملكي الذي بموجبه يلزم أن يصير دين العاهل آليا دينا للرعايا.

سيتشكل من محيطه! بحر هو الآن للتنافرات والتكاملات المتقاطعة للاعتدال والمغالاة! مهد كل ثقافات الانفتاح والتبادلات! مهد الروح الأكثر قداسة والروح الأكثر دنيوية! مهد الديانات المشركة والديانات التوحيدية ! مهد الثقافات السرية التي تبشر بالقيامة بعد الموت والحكم التي تحث على قبول عدم الموت! مهد الفلسفة، والتيوصوفية(***) والفاستروصوفية(****) والأنوصوفية(*****)! مهد العقلنة، والعلمنة، والثقافة الإنسانوية! مهد نهضة وحداثة الروح الأوربية! بحر تواصل الأفكار وتلاقي المعارف، الذي عرف كيف يحمل أرسطو من بغداد إلى فاس قبل أن يوصله إلى سوربون باريس! بحر القارات الثلاث للملتقيات الخصبة والقطائع المأساوية بين الغرب والشرق، الجنوب والشمال! البحر الذي يجسد العالم والذي يظل، بالنسبة لنا نحن المتوسطيين، عالمنا!

لقد ضاق بحرنا المتوسط، وأصبح بحيرة من العصر الكوكبي تحيط بجنوب أوربا، التي ضاقت هي الأخرى في أبعاد سويسرا إزاء الكتل القارية الضخمة التي تحد المحيط الهادي، مركز الثقل الجديد للعالم. هذا البحر المتوسط، الذي كان يفترض بالأحرى أن ينعم بهدوء بحيرة، بعذوبة بحيرة، يصبح من جديد مع ذلك مكانا للعواصف. هذا البحر المهمش يصبح من جديد إحدى المناطق الزلزالية الأكثر أهمية في الكون.

حذار! أقول حذار لأن أوربا تجنح نحو الابتعاد عن البحر المتوسط في الوقت، تحديدا، الذي تتسع فيه المشاكل والأخطار بهذا البحر المتوسط. فظواهر التفكك، التقهقر، والعزل التي تنمو في كل مكان تقريبا تضر بالبحر المتوسط بشكل خاص. وأكثر من ذلك : بحر التواصل يصبح بحر الانعزالات، بحر الاختلاطات يصبح بحر التصفيات الدينية، الإثنية والقومية. فالمدن الكوسموبوليتية، "مدن العالم" الحقيقية، بوتقات الثقافة المتوسطية، انطلقت الواحدة بعد الأخرى في أحادية اللون : سالونيك، إسطانبول، الإسكندرية، طنجة، بيروت، وسارايفو التي تحتضر.

بعد 1989، ابتعدت أوربا الغربية نحو الشرق الذي كان قد انفتح، عن المشاكل الأساسية للبحر المتوسط التي تعنيها بشكل حيوي. فالاقتصاد الأوربي اتجه نحو الأسواق الموجودة بالقوة في الشرق، حريصا، وراء ذلك، على السوق الصينية الضخمة. ونسي البحر المتوسط أكثر فأكثر. لقد بدت القوى الأوربية عاجزة أمام النزاع الإسرائيلي – الفلسطيني، وأمام مأساة يوغوسلافيا السابقة، وتترقب ببلاهة المأساة الجزائرية.

---

(***) – التيوصوفية : نظرية إشراقية دينية تقول بالإتحاد بالرب (م).

(****) – الفاستروصوفيا : حكمة تتعلق بالتذوق (م).

(*****) – الأنوصوفيا : حكمة تتعلق بالكحول والنبيذ (م).

بلدان جنوب أوربا، والقوس اللاتيني منها على الخصوص، لم تبلور تصورا مشتركا من أجل سياسة متوسطية. وأوربا المفتوحة تجنح لأن تصير ثانية أوربا للنبذ. ففي الوقت الذي كانت قد بدأت فيه محاولات الإدماج الأوربي للإسلام ( البوستيم كما في إسبانيا، التي تعيد إدماج الماضي المغربي في هويتها، الحداثيين كما في فرنسا وألمانيا مع المهاجرين المغاربة والأتراك)، ها هو الشيطان الأوربي القديم يعود : طرد وإقصاء الإسلام. فالهجوم الصربي في البوسنة ليس مجرد عرضٍ، إنه استمرار لغزو جديد.

لقد سمح بهدم الطابع التعددي والتعدد الإثني للبوسنة-الهرسك، وعندما، تجد نفسها مبتورة بحيث لن تكون سوى خلوة إسلامية، نرتعد من فكرة الدولة الإسلامية. ففي كل مكان، صار الشريك الضروري أكثر فأكثر الخصم الكبير، وهذا في كل من الزوايا الأربع للمتوسط (جنوب-شمال وغرب-شرق). البحر المتوسط ينمحي مثل مقام مشترك dénominateur commun . أكثر من ذلك : ينبغي معرفة أن الخط الزلزالي الكبير الذي ينطلق من القوقاز، بأرمينيا-أذربيجان، والذي دمر الشرق الأوسط منذ خمسين سنة تقريبا، امتد نحو الغرب بالبحر المتوسط : فقد خرب بوسنة-الهرسك، ويعيث فسادا في الجزائر. إنه الخط الذي تصير فيه فتاكة وقاتلة تعارضات شرق/غرب، شمال/جنوب، غنى/فقر، شيخوخة/شيبة، علمانية/دين، إسلام/مسيحية/يهودية ...يمكننا، من غير يقين، أن نأمل في تقدم عملية السلام بالشرق الأوسط، خصوصا مع بلوغ فلسطين للاستقلال الوطني؛ لكن الثقب الأسود الجيو-تاريخي سيبقى قائما، وثقبين أسودين جديدين تكونا في البوسنة والجزائر.

ففي الجزائر، أفرز نتائج كارثية ليس فقط بالتصويت على "الفيس"، وإنما بسبب إلغاء التصويت نفسه، وكل شيء يمضي نحو الانفجار. ماذا ستكون الجزائر؟ أي تقلبات جيو-سياسية عظيمة سوف لن تنجم عن ذلك؟ هل نسير نحو انغلاق جديد للبحر المتوسط؟ انسداد الأفق؟

في هذه الشروط المأساوية، وحدهم الأعداء يتعاونون فيما بينهم : فتماما كما وجدت، في إيطاليا نفس الوسائل ونفس الأهداف بين الإرهاب الأسود والأحمر، الذي كان هدفهما المشترك هو تدمير الديموقراطية، ففي إسرائيل-فلسطين، أيضا، فإن الأعداء المتعصبين الإسرائيليين والعرب هم الآخرون يتعاونون بحماس لنسف السلام : بالجزائر كذلك، يتعاون رعب الاغتيالات مع رعب القمع للحيلولة دون أي تعاقد ديموقراطي. ففي كل مكان الأحقاد المناوئة لها نفس العدو المشترك : الوفاق، المصالحة، الرأفة، السماحة.

هل نستطيع إنقاذ البحر المتوسط؟ هل سنستطيع الإنعاش والتطوير الجيد، لوظيفته التواصلية؟ هل سنتمكن من إعادة تفعيل هذا البحر للتبادلات، والملتقيات، هذه البؤرة والحسوة، هذه الآلة لصناعة الحضارة؟

هناك حلول اقتصادية، غير أن الحلول الاقتصادية غير كافية وأحيانا تخلق مشكلا : هكذا، يورِّط صندوق النقد الدولي الدول في ضرورة الاستجابة لشروطه للحصول على القروض، إنما أيضا في ضرورة عدم الاستجابة له لتجنب التصدع السياسي والاجتماعي. هناك حاجة للنمو، لكن أيضا هناك حاجة لإعادة تفكير وتحويل لمفهومنا للنمو كليا، الذي هو متخلف. هكذا، فليس فقط الاقتصاد الصناعي هو ما ينبغي إقامته، إنما أيضا إعادة اكتشاف اقتصاد الضيافة.

حتى الآن، عدد لا يحصى من المتقاعدين الذين يذهبون إلى شواطئ شمال-البحر المتوسط يبحثون ليس عن الشمس والطقس الجميل فحسب، إنما عن رقة الحياة، متعة الحياة، وطريقة للعيش. ففي طريقة العيش المتوسطية، ثمة انفتاح خارجي للساحة العمومية، التجول paseo، الاستعراض corso، الذي هو الآخر طريقة للتواصل. ثمة " غَاسْتْرُوصُوفْيَا " تمد كل واحد بثمار وغصن شجرة الزيتون. فالقاريون الذين يأتون للاستقرار لقضاء عطلهم باستمرار في أماكن لا تزال محمية، يأتون للبحث عن ترياق مضاد للمكننة، والميقاتية، والاتقيُّن، والعجلة.

لنا في ثقافتنا، موارد لمقاومة المعايرة والمجانسة. فحواضرنا، مواقع نظرنا، أثارنا التذكارية، أشكالنا المعمارية الماضية ليست فقط موضوعات جمالية : إنها تبعث موجات تتوغل فينا، تبث قطرات عصير تجعلنا نتدفق، تطبع أذهاننا بحقائق غير محسوسة والتي تصبح حقائقنا. أو ليست مهمتنا هي نشر هذه الطريقة في الحياة، في أثر "بتزانا" nos pizzas و"كوسكوسنا" و taramas، ومشهياتنا tapas، ونبيذنا؟

إلا أن الدفاع وإشاعة عن ولكيفية ما للعيش تتطلب مقاومة ما هو بربري في التقدم التقنو-صناعي غير المراقب، وتدفق الربح بإيذاء علاقات التعاضد والخدمات المتبادلة، وانتشار الإسمنت والتزفيت شوَّها حتى الآن كثيرا معالم شواطئنا.

إنها تتطلب سياسة لبعث البحر المتوسط التي تستوجب إعادة تطهير البحر، وإعادة تعميره مائيا : كل هذا بدأ مشتتا، إنما يلزم أن يصبح نسقيا وموحدا. إن أي سياسة ستستوجب، بمقدار ما يمكن عمله وحيث ذلك ممكن، إحياء الأنشطة الرعوية، تطوير زراعة البقول في السباخ وزراعة جيدة، وهي التي حتى الآن، تظهر بزراعة الكروم، في عدد من البلدان من خلال التطورات النوعية المحققة عن طريق انتقاء الكروم. أساليب صناعة النبيذ، الخاصية البيولوجية للسماد. أخيرا، ينبغي أن نعرف أننا، بفضل الهندسة الوراثية، سنجد قريبا وسيلة لزرع النباتات التي ستغترف "آزوت" الهواء وتعيد بثه في التراب، وبسعة أكبر، ستجعل من جديد أراضي أقل خصوبة، قابلة للزراعة.

إنه في الأخير ليس فقط الدفاع عن نوعية الحياة، وإنما الدفاع عن الحياة نفسها الذي يتطلب سياسة للهجرة، التي ليست ممكنة إلا إذا عرفنا تعويض الرعب الديموغرافي والرعب الإثني، مع

الأسف المرتبطين اليوم، بإحياء المعنى السامي للضيافة، الاحساس بتكامل الجار، احترام الآخر، حب التعددية.

لكن يجب علينا قبل كل شيء أن نتعبأ ضد التشقق الزلزالي الكبير الذي اجتاح البحر المتوسط، يجب أن نكف عن النظر إلى الإسلام والعروبة كأحاديٍ الوجه، أو كعدوانيين. ينبغي أن نفكر في كثير من المعاكسات، امتناعات القاضي عن الكيل بمكيالين، وفي كثير من الخيبات.

ينبغي أن نوحد، نربط، ونعطي من جديد الأولوية لما هو مشترك، ونرمم الهوية المشتركة تحت وداخل التعدد، بهدف إبراز هوية مواطن البحر المتوسط وسط هوياتنا المتعددة، ذلك لأننا كلنا متعددو الهوية، يجب أن تنطوي هوياتنا لوليبا الواحدة حول الأخرى بدلا من أن تضغطا على بعضها البعض.

لا توجد أخوة عميقة بلا أمومة : ينبغي علينا تنشيط بحرنا الأم. أسطورة مرحة تبسيطية للبحر المتوسط، التي تجهل أن كثيرا من التصدعات، والإبادات، ومظاهر عدم التسامح، تأتي من البحر المتوسط نفسه. إنما نحن بحاجة لأسطورة غنية تعبر عن تطلعاتنا إلى إنجاز الأحسن من إمكانياتنا. آه! يلزمنا التفهم، ما هو التفهم الذي يجعلها مختلفة ومتكاملة من التفسير؟ ما الذي يسمح لنا، نحن الذوات الإنسانية، أن نعتبر الغير كموضوع لصورة أنفسنا، أنا الغير ego Alter وأن نتفهم من الداخل أحاسيسه واستجاباته. إن فهم الآخر هو أمر حيوي اليوم.

إنما ذلك يفترض أيضا تجديدا أخلاقيا كبيرا، وتحولا أخلاقيا كبيرا : ينبغي لنا توخي الوئام من عمق القلب، والمصالحة، الرأفة والتسامح. وسأنهي مداخلتي بالتحية العظيمة لكل متوسطي : السلام عليكم، وعلينا السلام.

---

* ترجمة بتصرف للخطاب الذي القاه الكاتب **Edgar MORIN** ببرشلونة، بمناسبة تسلمه لجائزة كطالونيا الدولية سنة 1994 تحت عنوان:

*Un modèle de civilisation : La Méditerranée*
Manière de voir, hors série, 1996.

- الأمازيـــغ : اللغـــة والأصـــول.
- الهجرة من الريف الشرقي نحو الجزائر.
- حفريات معرفية فـي ذاكـرة الشمـال.

تشكر **مجلة حوليـــات الريـــف** الدكتـــور دافيـــد منتغمـــري هـــارت **David Montgomery HART** ترخيصه لها بترجمة دراسته :

*The Aith Waryaghar of the Moroccan Rif, an ethnography and history*
Tucson University of Arizona Press, 1976.

والتي منها اخترنا هذا المبحث المتعلق باللغة والأصول، من فصلـــها 13 المعنون ب" **اللغة، الأصول والتاريخ** ". ونثير انتباه القراء الكرام إلـــى أننا حافظنا على أفكار المؤلف كما هي في دراسته ، لكن دون أن يعني ذلك أننا نشاطره الرأي فيها أو نتبناها. إنما نستهدف من وراء ترجمتها تجـــاوز حاجز اللغة، للإطلاع عليها والاستفادة منها أو نقدها.

**مجلة حوليات الريف**

# الأمازيغ : اللغة والأصول

تأليف : دافيد م. هارت
ترجمة : ذ. عبد المجيد عزوزي
مؤطر تربوي – الحسيمة

## توجيهات عامة حول اللغات الأمازيغية

تعني كلمة "ريف " في اللغة العربية "حافة " أو " شاطئ"، فيصبح "ريف البحر" هو الساحل أو شاطئ البحر. كما تسمى ضفاف النيل في مصر ريفا أيضا وتعني بالتالي الأرض المزروعة. وتعني في الشرق الأدنى المنطقة الخصبة لتمييزها عن الصحراء. لكن مدلول الكلمة في المغرب ينطبق على المنطقة الجبلية المحاذية لساحل البحر الأبيض المتوسط دون أن يحمل بالضرورة أية فكرة عن الخصوبة أو الزراعة [1].

يسمي الجيولوجيون والجغرافيون كل السلسلة الجبلية الممتدة في شمال المغرب ب" الريف "، من رأس سبارتيل وطنجة غربا إلى رأس " المذرات الثلاث Tres Forcas " وملياية شرقا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهر ورغة ، تقريبا، جنوبا [2]. غير أن المعطيات الجيولوجية والجغرافية تختلف هنا عن المعطيات اللسانية والأنتربولوجية، حيث أن حوالي نصف السكان الأصليين فقط بسلسلة جبال الريف كما يعرفها الجغرافيون ( أي خمسمائة ألف نسمة تقريبا من أصل

---

(1) – يشير **Edouard Michaux-Bellaire** في الكتاب الذي ترجمه من الفرنسية إلى الإسبانية **Clemente CERDEIRA** وعنوانه: *Apuntes para la historia del Rif*, Madrid y Ceuta, 1926, p.8: إلى أن لفظة "الريف" قد يكون لها مدلول عسكري. فمثلا "ريف المحلة " كانت تعني «جانب المعسكر» كخط دفاعي خلال ردع الهجومات المسيحية من إسبانيا من طرف المسلمين في القرون الوسطى. وبالنظر إلى الدور البارز للريف كموطن للمجاهدين ابتداء من القرن السابع عشر، فإن هذا الربط قد لا يجانب الصواب كثيرا. وعلى أية حال فإن الأعمال العديدة والمبعثرة لميشوبيلير كواحد من أكثر علماء الاجتماع المستعربين الذين تمحورت دراساتهم حول شمال إفريقيا، تحكيما لضميره، تزودنا بأكثر المعلومات الدقيقة التي لدينا عن تاريخ الريف ثباتا ومصداقية، رغم أنه لم يزر الريف شخصيا أبدا.

(2) – انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب للاطلاع على وصف جغرافي مستفيض.

مليون ساكن سنة 1960) هم الريفيون بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أي الذين يتحدثون باللغة الريفية: ذْمَزِيغْتْ. لكن يجب أن لا نخلط بين هذه التسمية وتلك التي تطلق على واحدة من اللغتين البربريتين(*) الرئيسيتين أيضا في المغرب وهي تَمَزِيغْتْ بالأطلس المتوسط ووسط وشرق الأطلس الكبير وجبل صاغرو. وفي تقديرنا فإن نسبة التفاهم بين اللغتين لا يتجاوز 50% رغم تشابه اسميهما، ونسبة التفاهم هذه تقل بين اللغتين المذكورتين ولغة ثالثة أخرى، وهي تَشَلْحِيت بغرب الأطلس الكبير وسوس والأطلس الصغير.

لقد حاولنا القيام بدراسة من منطلق كْلُوتُوكْرُونُولُوجي Glotto-chronology للمقارنة بين هذه اللغات البربرية الثلاث بالاعتماد على تصنيف حوالي 200 كلمة من أكثر عناصر المعجم استعمالا [3]. إذ أن " النظرية الكلوتوكرونولوجية " في اللسانيات تحاول أن تبين، عبر دراسة مقارنة، في أي وقت انفصلت واحدة أو أكثر من اللغات المرتبطة، عن بعضها أو عن أصلها الموحد. ويمكن قياس نسبة الانفصال عبر الزمن من خلال جرد لائحة الكلمات الأساسية التي تتسم بالمحافظة ومقاومة التغيير من كلتا اللغتين المنفصلتين، ثم مقارنتهما للوقوف على ما شابهما من تغيير منذ كانتا موحدتين. وقد استنتج اللسانيون أن هذا التباعد يتم بمعدل قار نسبيا وهو 19% من عينة الكلمات المختارة خلال كل ألف سنة. وهكذا وجدنا أن الاختلاف بين تَمَزِيغْت وتَشَلْحِيت يهم 39 كلمة من أصل 200 ، أي بنسبة 19.5 % ، وهو ما يجعل فترة التباعد بين اللغتين يصل إلى حوالي ألف سنة. وهذا الرقم قد تضاعف إلى 76 أي 38% عند مقارنة ذْمَزِيغْث وتَمَزِيغت، وهو ما يعطينا تباعدا يصل إلى ألفي سنة. أما بين ذْمَزِيغْتْ وتَشَلْحِيت فالرقم يصل إلى 107 كلمة أي 53.5% ، وهو ما يعني تباعدا يقدر بحوالي 2900 سنة. ورغم ما قد تعنيه هذه الإحصائيات أيضا، إلا أنها تعكس بشكل صحيح نسبيا، ومن منظور زمني، التوزيع الحالي للغات البربرية في المغرب. كما أنها مؤشر ذو دلالة فيما يخص نسبة التفاهم بين مستعملي هذه اللغات. وقد لا نستغرب، إذن، أن تصبح ازدواجية اللغة شرطا أساسيا لأي بربري يغادر المنطقة التي يعيش فيها، وهو ما يتم بشكل أكبر كل يوم. وكما

---

(*) – حافظنا على استعمال لفظة " البربرية" كما هي في النص الأصلي، رغم أنها لم تعد لها أي مصداقية، بعد أن أصبح البديل هو لفظة "الأمازيغية". (المترجم)

[3] – لقد زودنا بها مشكورا الدكتور جوزيف أبلكيت Josef APPLEGATE الذي يختار أيضا استعمال كلمة لغات بدل لهجات لوصف أهم المجموعات البربرية. ونحن نساير في هذا الاستعمال. وقد اقتبسنا هذه المنهجية في التحليل ( المطورة في الأصل على يد موريس سواديش Morris Swadesh ) من :

**E. Adamson HOEBEL**, *Man in the Primitive World*, 2nd Ed. New York: Mc Grow-Hill, 1958, pp. 564-565.

تفسر أيضا المفارقة التي لاحظناها، حيث يضطر البربر المنتمون لهذه المجموعات اللغوية التواصل فيما بينهم عبر الدارجة المغربية بدل لغتهم الأم.

وعكس ما ذهب إليه بعض اللسانيين [4]، فإن اللغة الريفية لا تسمى " ذَرِيفِيتْ "، حيث تطلق هذه اللفظة على المرأة الريفية، وجمعها هو " ذِيرِيفِيِّينْ "، ومقابلها هو" أَرِيفِي" أي الرجل الريفي، والجمع هو "إِيرِيفِيِّين". ويميل الشبان الريفيون في الوقت الحاضر، وبشكل أكبر، إلى تسمية أنفسهم " إيريفيين " متجاوزين هويتهم القبلية، وهذا بفضل تنامي الوعي، منذ الاستقلال عن طريق الراديو، بوجود مجموعات أخرى بالمغرب. بينما يستمر الكبار في استعمال اللفظتين " إيريفيين" و " إِمَزِيغَنْ " بنفس المعنى. ونميل إلى الظن بأنه من غير المستبعد أن تكون كلمة " إِمَزِيغَنْ " هي الوحيدة التي كان يستعملها الريفيون عندما كان الريف منغلقا على نفسه قبل ربط اتصالات تطبعها الاستمرارية مع الأوربيين.

لقد سبق أن نشرنا تحليلا إحصائيا لأسماء المواقع الجغرافية للقسم الغربي من سلسلة الريف، والتي تبين بما لا يدع مجالا للشك، الأساس الواضح للغة البربرية في تسمية الأماكن في هذه المنطقة الجبلية التي يتحدث سكانها بالعربية في الوقت الحاضر، وأيضا تسمية القبائل والعشائر والسلالات والجماعات المحلية [5]. أما هنا فسنشير فقط إلى التناسب الكبير بين الأسماء والتوزيع اللغوي السائد حاليا، وإلى التأثير الواضح للأسماء البربرية مقارنة مع العربية، سواء منها المتعلقة بالأماكن أو الإنسان، وهذا بشكل متدرج كلما اتجهنا شرقا نحو الريف الأوسط.

ليس لدينا أي شك بأن الجميع كان يتحدث اللغة البربرية بهذه السلسلة إلى تاريخ دخول العرب في القرن السابع الميلادي وحتى بعد هذا التاريخ. وينطبق هذا الاستنتاج المنطقي، طبعا على جميع مناطق المغرب. إلا أن ما لا نعرفه بالتأكيد هو متى تم تعريب قبائل جبالة بعد الحملات العربية الأولى. إننا نميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر لم يستغرق زمنا طويلا لما طال اللغة البربرية من محو كلي بهذه المنطقة. غير أن ما يجدر ذكره بالنسبة لشمال جبالة، في أُنْجْرَة وبني يَدِير ووَادْرَاس وبني مصَوَّر وبني عروس بالخصوص، هو إضافة اللاحقة " أش" في حالات عديدة لأسماء العشائر

---

(4) – لاووست E. LAOUST مثلا في كتابه *Le dialecte Berbère du Rif* الصادر سنة 1927 عن Hesperis، ص.ص.173-208. رغم أن الريفية وربما البربرية بشكل عام، لا تتبع دائما في اشتقاق أسماء اللغات نفس نمط اللغة العربية، إلا أن هناك دلالات حديثة تشير إلى تعميم عبارة ذَرِيفِيتْ لتعني اللغة، كما أنها تعني أية أنثى تتحدث بهذه اللغة.

(5) - **David M. HART**, «*Tribal and Place names among the Arab-Berbers of Northwestern Morocco: A Preliminary statistical analysis*», in Hesperis-Tamuda, I.3. 1960, pp. 457-511.

والسلالات بدل "أولاد" أو "بني". وهكذا تصبح مثلا أولاد الفيلالي " فيلالش". ويعتقد كوليـــن COLIN أن هذه اللاحقة قد تكون ذات أصل لاتيني دالة على جمع الغائب المرفوع عندما تضاف إلى الاســـم، وقدم كمثال على ذلك لائحة بأسماء هذه السلالات [6]. وقد أغنينا هذه اللائحة بقدر لا بأس بـــه مـــن الأسماء الإضافية [7]. وتواجد مثل هذه الحالات ( وكلمات لاتينية أخرى بدون شك بالبربرية ) [8] لـه بالطبع، أبعاد مثيرة. لكننا، وللأسف، وحسب ما نعرفه لحد الآن، لا نملك إلا أن نخمن بشأنه. غـــير أننا لا نجد مثل هذه اللاحقة في أية قبيلة من قبائل غمارة باستثناء واحدة هي بنـــي بُـــوزرَارَا، القبيلـــة الأكثر تأثرا بالبربرية من مثيلاتها الغمارية. كما قدم كَارُو بارُوخا Caro BAROJA [9] أدلة كثيرة بيّن من خلالها أن قبائل غمارة لم تعرّب إلا في تاريخ متأخر أي ما بين القرنين السادس عشر والثـــامن عشر. وهذا يعزز بشكل جيد من الناحية الزمنية ما توصلنا إليه في عين المكـــان حـــول الأســـماء المتعلقة بالمواقع والأعلام. ونسجل غيابا كليا لهذه اللاحقة في قبائل صنهاجة سراير والريف وكَرْط.

وينبغي أن نوضح في هذا الإطار أن عملية تعريب المنطقة الغربية مـــن الريـــف لا ترتبـــط بالضرورة بتاريخ اعتناق السكان المحليين للإسلام، والذي تم في وقت جد مبكر، حيث يعتبر مســـجد الشْرَافَاتْ في " لَخْمَاس"، وهي واحدة من قبائل غمارة، أقدم مسجد قائم إلى عهدنا في المغرب. فـــي سنة 910 م ابتدع الغماريون الذين عرفوا بارتدادهم عن الإسلام في المراحل الأولى من إيمانهم، نبيـــا مزيفا اسمه حاميم، كتب قرآنا بالبربرية وأحل لهم أكل لحم الخنزير. وعندما قتل سنة 927م أُرْغِمُـــوا من طرف الفرع المحلي للدولة الإدريسية على الالتزام بالنهج الإسلامي مرة أخرى، وهو الخط الذي لم يحيدوا عنه منذ ذلك التاريخ. أما بالنسبة للريف الأوسط، فقد أصبحـــت المنطقـــة الواقعـــة وراء الحسيمة al-Husaima سنة 710م مقرا لأول إمارة إسلامية مستقلة بالمغرب.

---

[6]-**G.S.COLIN**,«*Etymologies Maghribines*»,Hesperis, VI.2,1926, pp.55-82; VII.1, pp.85-102. ومن خلال اتصالات شخصية.

[7] - **HART**, op. cit. 1960, p. 466.

[8] - cf. **R. P. Esteban IBAÑEZ**, O.F.M. «*Voces Hispano-Latines en el dialecto Rifeño*», in. Verdad y Vida, March-April, 1947, pp. 365-381.

[9] - **C. BAROJA Julio**, *Estudios Maghrebies*, Madrid, Instituto de Estudios Africanos, 1957; ومن خلال اتصالات شخصية.

## اللغة الريفية واللسانيات

لم تفقد قبائل الريف وكرط أبدا لغتها الريفية، حيث يتم التواصل عبر ذمزيغث في كل أنحـــاء هذه المنطقة رغم وجود بعض الاختلافات الطبيعية التي تهم المعجم والنطق. يقول سكان هذه القبـائل أنه بإمكانهم التواصل بشكل تام أيضا مع آيث إيزناسن قرب بركان ووجدة بالرغم من التمييز الـــذي يضعه رينيزيو Renisio بين لهجة هذه القبيلة وكل من ذمزيغث وتصنهاجيث بصنهاجة سراير، فـــي واحدة من أحسن الدراسات المتواجدة حول اللغات البربرية في شمال المغرب [10].

---

[10] - **A. RENISIO**, *Etudes sur les dialectes berbères des Bni Isnasen du Rif et de la Sanhaja de Srair*, publications de l'institut des Hautes Etudes Marocaines, XXII, Paris: Leroux, 1932.

وهناك دراسة قيمة أخرى أنجزت قبل هذه وهي :

**S. BIARNAY**, *Etudes sur les Dialectes Berbères du Rif*, Publications de la Faculté des Lettres d'Alger, LIV, Paris : Leroux, 1917.

وتأخذ هاتان الدراستان توجها معجميا حسب التقليد الفرنسي في مجال اللسانيات. أما بالنسبة للراغب في تعلم البربريـــة فإن أحسن كتاب للغة هو :

**R.P. Pedro SARRIONANDIA**, O. F. M, *Gramática de la lengua Rifeña*, 2nd Ed. Tangier: Topografía Hispano-Arábiga de la Misión Católica, 1925.

جودة هذا الكتاب تبقى مع ذلك في نظرنا نسبية، وهذا للطريقة الغريبة المســتعملة فـــي كتابـــة البربريـــة بـــالحروف اللاتينيـــة ورغم اتباعها لنموذج ثابت.

مؤلف آخر يمكن اعتباره ملحقا قيما للكتاب السابق وهو حول اللهجة المستعملة في إكزناين هو :

C^mdt **L. JUSTINARD**, *Manuel de Berbère Marocain (Dialecto Rifain)*, Paris : Paul Genthner, 1926.

على العكس من هذا، فإن قيمة القاموسين المؤلفين من طـــرف أحـــد تلاميـــذ الأب Sarrionandia ، وهـــو **R. P. Esteban** IBAÑES ، ولأنهما يعكسان بشكل كبير أبحاث أستاذه، تبقى محدودة. وهذان المعجمان هما :

- *Diccionario Español – Rifeño*, Madrid: Ministerio de Asuntos Exteriores, 1944.
- *Diccionario Rifeño – Español*, Madrid: Instituto de Estudios Africanos, 1949.

كتاب آخر يبقى غير ذي قيمة إطلاقا هو : **Ginés Peregrin Peregrin**, *Rudimentos de Berber Rifeño*, Tetuan, 1944. ولو أن دارسا متخصصا في اللغة البربرية قام بترجمة كتاب Sarrionandia المذكور أعلاه إلـــى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية مع مراجعة عمله فيما يخص كتابة البربرية بالحروف اللاتينية حســـب معـــايير اللســـانيات الحديثة وإضافة قاموس بالمصطلحات العسيرة، لقدم خدمة ثمينة جدا لكل المهتمين بالدراسات البربرية، وهو الهدف الذي لم يتحقق في معجمي IBANEZ.

قد يكون أهم ملخص عام للسانيات اللغة البربرية الذي أنجز لحد الآن هو :

**André BASSET**, *La langue berbère*, London : Oxford University Press (International Africain Unstitute), 1952.

أما الخريطة اللسانية المنشورة في الصفحة 45 من الكتاب :

يمكن التأكيد على وجود أربع وحدات لهجية بالريف الأوسط، حيث تكوّن المنطقة الشمالية والجنوبية الغربية لآيْتْ وَرْيَاغَر الممثلة بإيقُوين وآيث عْمَارْث، والعشيرتين الريفيتي اللسان بآيث يَطْفَت الكتلة الأولى، والمنطقة الجنوبية الشرقية لآيث ورياغر الممثلة بآيْتْ بُوعِيَّاشْ وكل ناحية جبل حْمَام الكتلة الثانية، وإكْزْنَايَنْ وآكْتْ تُوزِين الكتلة الثالثة، وتَمْسَامَان المدرجة ضمن قبائل كَرْطْ الكتلة الرابعة [11].

إن هذا التصنيف، يركز على اختلافات معجمية وصوتية. وإذا كان من السهل على المتمكن من لغة قبيلة ما تحديد الاختلافات المعجمية بها، إلا أن التغيرات الصوتية التي توجد بكثرة في اللغة

---

J. MARTIN, H . JOVER, J. LE COZ, G. MAURER and D. NOIN, *Géographie de Maroc*, Paris : Hatier and Casablanca : Librairie Nationale n. d. (but Ca.1964 ).

فإنها تعطينا صورة خاطئة عندما تشير إلى الازدواجية اللغوية في الريف، إلا إذا كان المقصود بهذه الازدواجية هو استعمال اللغتين البربرية والإسبانية. لكن الأمر غير ذلك لأن المعنى في هذا السياق هو اللغتان الريفية والعربية. في الوقت الذي تسجل فيه معرفة العربية الدارجة بشكل واسع في إكزناين فقط من كل الريف الأوسط كما وصف في هذا الكتاب.

[11] – يقدم **Capt. José Rodríguez EROLA** في رسالته التي لم تنشر والمحضرة لنيل الماجستير سنة 1952 «*Fronteras Linguisticas del Rif*» (أطلعنا عليها مشكورا سنة 1953) تقسيما مغايرا نورده كالتالي :

1) كتلة صنهاجة سراير المتضمنة لقبائل صنهاجة الثمانية الأصليين وتَرْجِيسْت وآيث مَزْدوي.
2) الكتلة الساحلية المكونة من بني كْمِيل وبني بُوفْرَاح وآيثْ يَطْفَت.
3) الكتلة الريفية بتفريعات أربعة هي :
   - ريفية حقيقية ممثلة بعشائر آيث يطفت المتحدثة بالريفية، وإيقوين وآيث ورياغر وآيث عمارث.
   - تمسمان والمتضمنة لتمسمان وأكث توزين وإكزناين وتقرسيث وآيث سعيد وآيث أوريشك.
   - إقَرْعِيِّين / إكَبْذَانَنْ ، ونجد ضمنها قبائل قَلْعِيَة الخمس وإكبذانن.
   - كرط المتضمنة لإيْضَارْسَنْ وآيث بويَحْيي. غير أننا لا نجد للأسف في هذه الرسالة المعايير التي اعتمدت لتبني هذا التصنيف.

قبيلتا إيْضارْسَنْ وآيْتْ بويَحْيي هما الوحيدتان التي يمكن وصفهما بالمتنقلين أو الرحل transhumant في هذه المنطقة (إلى جانب "عرب" أولاد ستوت المتسللين إليها والذين لن نتطرق إليهم هنا لكونهم غير ريفيين)، هذا رغم كل الدلائل التي تشير إلى استقرارهما الكلي بهذه الأرض. أشار جيرار موريز **Gérard MAURER** من المعهد العلمي الشريفي بالرباط، مع ذلك، إلى تحولات محدودة جدا عرفتها قبيلة زَرْقَتْ في صنهاجة سراير (وقدم جاك بيرك وصفا مشابها لمكساوة في كتابه:

*Structures Sociales du Haut Atlas*, Paris : Presses Universitaires de France, 1955.

لذا فإن خاصية التنقل أو الترحال هذه "Transhumance " والمميزة لقبيلة مطالسة وآيث بويحيي تبقى ظاهرة فريدة في المنطقة لغيابها التام في القبائل الريفية الأخرى.

الريفية مقارنة مع اللغات الوطنية المرتبطة بـــها، تبقـــى صعبـــة الإدراك والوصـــف إلا بالنســـبة للمتخصصين في اللسانيات. وقد يعود سبب تميز اللغة الريفية عن باقي اللغات البربريـــة، أو علـــى الأقل، عن اللغتين الرئيسيتين في المغرب، إلى تعقد نظامها الصوتي. ولسنا في حاجة لتفصيل هـــذه التغييرات هنا، لكننا سنقتصر على إدراج بعض الأمثلة البارزة :

1. صوت اللام [ ل ] في اللغة العربية واللغات البربرية الأخرى يصبح راء [ ر ]. وهو مـــا يلاحظ في الكلمات المقتبسة من العربية مع أداة التعريف، هذه الأداة التي تغيب في البربرية(*). كمـــا يختلف صوت الراء [ ر ] في الريفية في بداية الكلمة عن صوت الراء في وســـط الكلمـــة أو آخـــر الكلمة الذي يخفف حتى لا يكاد يسمع (**).

2. صوت اللام المدغمة [ لّ ] يصبح دالا مدغمة [ دّ ] أو دالا مدغمة متبوعة بالجيم [ دّج ].

3. صوت اللام والتاء معا في آخر الكلمة [ لت ] يصبح راءا وتاء [ رت ] أو تـــاء وشـــينا [ تش] (***).

4. تتحول التاء في أول الكلمة [ ت ] إلى ثاء [ ث ] أو ذال [ ذ ] ، وفي آخر الكلمة إلى ثـــاء [ ث ].

أما فيما يخص الاختلافات المعجمية فنجد أسماء القبائل والأفخاذ في الريف تبتدئ عادة بكلمـــة تعني " بني" وتختلف في طريقة نطقها من " آيث " في مناطق آيث ورياغر وإيقوين وآيث عمـــارث وتمسمان وكل قبائل كرط، إلى " أكث " (****) في أكْثْ تُوزِينْ، وإلى " أشْثْ" في إكْزَنَّايَنْ. وتكـــون أسماء السلالات في أغلب الحالات في صيغة الجمع المذكر وتأخذ شكل جذر اســـم الســـلالة وســـط زائدتين هما الهمزة المكسورة في أول الكلمة [ إ ] و[ أن ] في آخرها. الأمر الذي يختلف في اللغات البربرية الأخرى التي تتكون بها الأسماء من كلمتين، مثلا أيْثْ حَدُّو تصبح بالريف إحَدُّوثَنْ، وآيـــثْ سّي علي تصبح إسِغْرِيثَن، وآيثْ مْحَنْدْ أُوذَاوذْ تتحول إلى إمْحَنْدَاوْدَنْ. وتبعا للقاعدة رقـــم 2 أعـــلاه،

(*) – وهكذا تتحول لفظة " المِلح" إلى " رِمْرَحْ ". ( المترجم )

(**) – كما في أغْزَارْ ، أي النهر، حيث لا تنطق الراء الأخيرة، أو ثَنْبِيرثْ، أي الحمامة. ( المترجم )

(***) – تتحول كلمة " تِقَلْفَلْتْ " في تمزيغيت ( أي الفلفلة بالعربية ) إلى " تِقَرْفَشْ ". (المترجم )

(****) – حرف الخاء هنا هو الحرف المنطوق في " إكَاري "، أي الكبش، وهو صوت حنكي احتكاكي مهموس. ( المترجم).

تتحول [ بَنْ . لْ ] العربية إلى [ نْدْ ] أو [ نْدْجْ ] في الريفية، ويصبح مثلا " أولاد بن الحاج محمد "، " ذَارْوَا نْدْجَاجْ محمد " أو على الأرجح " ذَاوَا نْدْجَاجْ مُحند " (*****).

ويجب أن نضيف هنا بعض الملاحظات عن الازدواجية اللغوية لتحيين المعطيات العامة المدرجة عن الواقع اللغوي بالريف. ومنها، أن العربية ليست لغة مكتوبة فحسب، بل تكتسي طابعا طقوسيا دينيا لكونها لغة القرآن، بينما تستعمل الريفية للتواصل اليومي وتغيب عنها صفة الكتابة. وكنتيجة لهذه الوضعية، لم يقرر الريفيون، إلا في حالات نادرة، تعلم اللغة العربية والتحدث بها، رغم أنهم كانوا بالطبع على اتصال بها لمدة طويلة، خصوصا عبر "الطُّلبة" أي حفظة القرآن ومُحَفِّظُوه بالمساجد. وقد استمر هذا الأمر حتى ظهور عبد الكريم حيث ارتفعت نسبة مستعملي العربية. لكن فرص تعلم الإسبانية ما بين 1929 و 1956 كانت أكبر مع ذلك، لسهولتها من جهة، وليتمكن الريفيون من التواصل والتعامل مع المراقبين الإداريين الإسبان الذين عجزوا عن تعلم الريفية، من جهة ثانية. وقد أدى كل هذا إلى المفارقة التي يمكن ملاحظتها في الخمسينات والمتمثلة في كون الذين يستطيعون التحدث بأكثر من لغة يميلون إلى التواصل بالإسبانية أحسن مما يفعلون عبر العربية. غير أننا يجب أن نستثني من هذه المجموعة المهاجرين إلى الجزائر من أجل العمل، وهو ما يفسر التأثر بأساليب العيش الجزائرية من طرف الريفيين مستعملي العربية أكثر من الأساليب المغربية. وقد استغل الريفيون هذا الأمر، أي عدم تمكنهم من العربية لصالحهم حيث كانوا يشتكون في فترة ما قبل 1958 من كون عدم معرفتهم لهذه اللغة يعتبر عاملا معرقلا وسلبيا بالنسبة إليهم، ويصبح أكثر تأثيرا إذا علمنا درجة تمسك الريفيين بمبادئ وتعاليم الإسلام. لكنهم في الوقت الحاضر وعندما يتواجدون بالمنطقة المستعمرة سابقا من طرف الفرنسيين، يفضلون أحيانا، استعمال الإسبانية بدل الريفية التي تحتوي على الكثير من الكلمات العربية، حتى لا يفهمهم باقي المغاربة المتحدثين بالفرنسية. وهكذا، أصبح أمرا مألوفا في وقتنا الراهن، أن نجد ريفيين يتحدثون بثلاث لغات، خصوصا بين الشباب، وبنسبة أقل بين متوسطي العمر. أما كبار السن من آيْثْ وَرْيَاغَرْ، والذين استقينا منهم القدر الكبير من معلوماتنا الميدانية حول المنطقة، فإنهم ما زالوا كلهم تقريبا أحاديي اللغة. فَنْمَزِيغْث بالنسبة إليهم ما زالت جيدة بما فيه الكفاية، كما هي جيدة أيضا بالنسبة لجميع النساء في المنطقة للتواصل على أحسن وجه.

---

(*****) – يبدو هنا تأثر الباحث واعتماده على نطق إكْزْنَايْنْ ( كزناية ) واضحا، إذ أن تسمية " ذاروا ندحاج محمد " تنطق في آيث ورياغر كالتالي : " ذَاوَا نْرْحاجْ محمد " ، وفي بقوية : " ذارُوَا نْرْحاج محمد "، لاحظ أن اللام تتحول إلى راء . ( المترجم )

## إشكالية أصول البربر

إن واحدة من أهم نتائج بحوث كارلْتون س. كون Carlton S. COON حول أصول البربر، هي أنه لا يمكن تفسير خصائص اللون الأزرق لعيون العديد من سكان الريف الأوسط وبقع النمش على وجوههم أحيانا، وشعرهم الأحمر وفكّهم المربع وشفتهم العليا "الإيرلندية" الطويلة، بربطها بوصول شعوب في زمن متأخر يصل إلى عهد الوندال. ونورد فيما يلي، وبإسهاب، عرضا حول أصول البربر، قدمه لنا كُونْ COON مشكورا، وذلك بشكل شفوي أواخر 1962 بالمغرب :

**« كانت منطقة شمال إفريقيا حتى سنة 10000 قبل الميلاد جزءا من المنطقة الوحيشية faunal الإثيوبية، تعيش بها نفس الحيوانات الموجودة بباقي أنحاء إفريقيا. لكنها عرفت قبل نهاية العصر البْلِسْتُوسِينِي بقليل دخول حيوانات من المنطقة القطبية plearctic قديما كالغنازير البرية والوعول والأراوي والدببة والذئاب والأبقار الوحشية. وقد تزامن هذا الغزو الحيواني مع فترة باردة، وظهر في هذا الوقت صنف إنساني جديد بشمال إفريقيا، كان من قصيلة أوربية ( قوقازي ) وواحد من أجداد البربر، وربما واحدا من الأجداد الرئيسيين لهم. من المحتمل أن يكون قد جاء من الشرق الأدنى مع الحيوانات التي كان يصطادها حسب موفيوس Movius، لكن يمكن أيضا أن يكون قد انتقل من إسبانيا كما يعتقد بعض الخبراء، ومن بينهم ماك بُورْني Mc BURNEY مثلا. وهنا يبرز الأفق الأركيولوجي ألايبيروموري Ibero - Maurussian المسمى المولياني Mouillian في الوقت الراهن. هناك 28 هيكلا عظميا لهؤلاء وهم من أفلو بورومل في قسنطينة بالجزائر، وما يفوق 100 هيكل عثر عليها بتافوغالت قرب بركان بمنطقة آيث إيزناسن شرق الريف. وقد تم نشر السلسلة التي عثر عليها بأفلو من طرف فَالْوَا Vallois، ونشرت الآنسة دونيز فِيرِيمْبَاخْ Denise FEREMBACH من معهد البالينتولوجيا الإنسانية بباريز سلسلة تَافُوغَالْتْ. فيما تم الكشف عن هذه المادة الأثرية بتافوغالت من طرف أبي روش Abbé ROCHE. وتبين هذه الهياكل أن سكان هذه المنطقة كانوا طويلي القامة نحيلين أقوياء، لهم قحف دماغ عريض وأعلى جبهة كبير ووجه مسطح وذقن بارز. وهذا النوع هو الذي يمكن أن نراه في البربر الحاليين.**

عرفت هذه المنطقة حوالي سنة 6000 قبل الميلاد دخول جنس آخر. وقد وصل هذه المرة بكل تأكيد من الشرق الأدنى. لقد كانوا " قفصيين"Capsians (*) من الفصيلة المتواجدة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط ويتميزون بقامة متوسطة وجمجمة مستطيلة وعظام دقيقة وربما بشعر داكن وعيون سوداء. وقد استقروا بشكل أكبر في المناطق الجنوبية لشمال إفريقيا، فيما تمركز المولينيون على طول السواحل الشمالية. كما عبر القفصيون الصحراء حيث أصبحوا بها أجدادا للطوارق الحاليين، ووصلوا إلى كينيا وتنزانيا، وهناك عثر لُويس لِيكِي Louis LEAKY على بقاياهم. من المحتمل أيضا أن يكونوا أجدادا لقبائل شرق إفريقيا المعروفة بالحامية وهم قبائل الصوماليين والمَاسَايْ والوَاتُونْسِي ، الخ.

أما ما لدينا عن سكان شمال إفريقيا الذين عاشوا قبل البربر مباشرة، فلا يتجاوز بعض النماذج من الفك السفلي وعظام وجه طفل في التاسعة من عمره من طنجة، وجمجمتين من جبل إغُوذْ Ighud قرب الشمّاعية. هذه البقايا تشبه إنسان بيكين المنقرض من جهة، والبشمان المعاصرين في جنوب إفريقيا من جهة ثانية. وهكذا يبدو الآن من المحتمل أن يكون هؤلاء الناس الذين تواجدوا بشمال إفريقيا قبل البربر هم أجداد البشمان والذين طردوا بدورهم من طرف أجداد البربر في اتجاه الجنوب حيث موطنهم الحالي.

يبدو أن خاصية الشقرة بأنواعها، أي مع اللون الأزرق أو الرمادي أو الأخضر للعيون وخاصيات أخرى تميز البربر المعاصرين، تخضع للقواعد المعروفة فيما يخص التكيف البيئي. أن يكون كثير من البربر الأصليين المعاصرين إلى هذه المنطقة شقرا هو أمر محتمل، لكن هذه الخاصية في حد ذاتها كانت دائما تدوم في المناطق الأقل تعرضا لأشعة الشمس والتي تعرف أقل نسبة من اختلاط الأجناس.»

وهكذا، وحسب اعتقادنا، نكون قد استوفينا هذا الموضوع حقه إلى حد الآن. أما حول ما إذا كانت صفة الشقرة، التي تهم اللون الفاتح للبشرة ولون العيون أكثر مما تهم الشعر، قد جاءت من الشرق الأدنى أم من شبه الجزيرة الإيبيرية، فهذا مرتبط بأصل المولينيين، الأمر الذي ما زال محط نقاش. وعلى أية حال فإننا نجد في الريف الكثير من الأشخاص ذوي الشعر الداكن والعيون البنية ولم نشاهد إلا القليل من ذوي الشعر الأشقر، بينما لاحظنا بالمقابل كثيرين من ذوي الشعر

(*) – القفصية: حضارة نمت وتطورت ما بين الألفيتين السابعة والخامسة ق. م. واللفظة مشتقة من اسم المدينة التونسية التي وجدت بجوارها آثار شاهدة على هذه الحضارة، وهي عبارة عن طبقات لبقايا الحلزون، يصل ارتفاعها إلى مترين، بالإضافة إلى أواني مطبخية. وقد عرفت هذه الحضارة بحضارة الحلزونيات أو الرماديات. وتنقسم ، تبعا لتطور أدواتها، إلى العهد القفصي الأصلي، والعهد القفصي الأعلى، ولكل منهما مميزاته. (المترجم)

الأحمر. ألوان العيون عند الريفيين متعددة ومتقاربة وأغلبها لون ليس بالأزرق الحقيقي ولا البني الحقيقي لكنه أخضر ورمادي وبندقي. وهذه هي الحالة بالتأكيد عند آيْتْ وَرْيَاغَرْ وآيْتْ عْمَارْتْ وإِكْزَنَّايَنْ. ويعتقد كُونْ COON أن آيث عمارث هم الأكثر شقرة من الآخرين، لكننا لم نلاحظ من خلال مشاهدتنا الميدانية اختلافا كبيرا بين القبائل الثلاث بالنسبة لهذه الخاصية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ألوان العيون التي تتعدد وتتقارب كألوان الطيف، فلا شك أن اللون الأزرق كليا يبقى بنفس نسبة الشيوع كاللون الداكن أو البني أو الأسود. ومن خلال ما شاهدناه أيضا، لاحظنا نسبة أكبر للون الفاتح للعيون في الريف مما هو عليه بالنسبة لبربر الأطلس المتوسط. وقد رأينا شخصا واحدا فقط بعينين زرقاوين من سوس أو الأطلس الصغير يتكلم لغة تَشْلْحِيتْ.

لاختلاف لون العيون عند الريفيين دلالة على الاختلاف الكبير فيما يخص مظهرهم الجسدي أيضا. فبالإضافة إلى التنوع الكبير لقامتهم، فإننا نجد أشخاصا بعينين زرقاوين لكن بمظهر متوسطي واضح، وآخرين بشعر وعيون داكنة لكنهم يشبهون المولويانيين الأوائل. على أية حال فإن العديد من الريفيين يبدون بدون شك كالإيرلنديين لتميزهم بالرأس المستطيل والوجه العريض، أي ما يسميه كون CONN « عدم *التجانس الجمجمي* »، والنمش والشفة العليا الطويلة. كما أنهم مثل الإيرلنديين أيضا لأنهم عمليين إلى حد كبير ومجادلون ومشاكسون ميالون للخصام.

يتحدث الريفيون فيما يتصل بموضوع أجدادهم في موطنهم الحالي عن الغول " أَمْزِيوْ " وزوجته الغولة " ذَامْزَا " اللذين كانا من آكلي لحوم البشر، لكنهما غادرا المنطقة منذ زمن بعيد. لقد كانت الغولة أخطر الاثنين، إذ كانت تتنكر في صورة امرأة جميلة لغواية الرجال واستدراجهم إلى مخبئها حيث تفترسهم لاحقا. ولم يتبق من هذا إلا "صخرة الغولة / أَزْرُو نْدَامْزَا " بإِكْزَنَّايَنْ، وبالضبط في إِهَارُوشَنْ. وتعود هذه التسمية إلى كون الجلمود قد نُحِتَ بشكل جعله يبدو وكأنه رأس غولة. لقد كان كُونْ COON نفسه هو أول من أثار الانتباه إلى صخرة الغولة هاته وأظهرها للعالم الخارجي [12]. أما الآن فإنه يعتقد أن من كُنّ يعتبرن غولات بشفاه متدلية وأثداء طويلة تتمايل بشدة حتى يكدن يقذفن بها وراء ظهورهن ، ربما كن من البشمان البدائيين.

أما الأسطورة الأكثر شيوعا عبر المغرب، بدءا من الأجزاء العليا من الريف، أي الجبال الجنوبية لمنطقة آيْتْ وَرْيَاغَرْ وآيْتْ عْمَارْتْ وإِكْزَنَّايَنْ حتى المناطق التي يتعذر الوصول إليها بالأطلس المتوسط، فهي الأسطورة " البرتغالية "، حيث يحتفظ السكان بنسخة رواية محلية أقدم من

[12] - **Carlton S. COON**, *Flesh of the wild Ox*, New York, Morrow, 1932.

وهي رواية مُقْنِعَة عن حياة الريفيين.

مقولة « *كيلْرُوي كان هنا* *Kilroy was here* » المستعملة خلال الحرب العالمية الثانية، وهي « *قبل أن نصل إلى هذه المنطقة كان البرتغاليون* ( أبُورتْقيزْ حسب التعبير المحلي ) *يعيشون في ذلك الكهف*!». قد يكون المعنيون هنا هم البرتغاليون الحاليون الذين وصلوا إلى المغرب في القرن الخامس عشر، وبنوا حصونا على طول الساحل الأطلسي، حيث انتقل خبر غزو النصارى لشواطئ المغرب المسلم إلى المناطق الداخلية. قد يكون هذا التفسير للأسطورة البرتغالية الشائعة ممكنا، لكننا نفضل الاعتقاد بأن " برتغاليي" الداخل هم لغز محلي غامض، لكنه غير إسلامي، أو بالأحرى ما قبل إسلامي، يتواجد بالجبال المغربية، ويعني أي شيء، وأي أمر لم يقم به أو يخلقه السكان المحليون. قد يكون أو لا يكون من فعل أو وضع الإنسان، وتطبعه سمة الصعوبة والإشكال. هذه السمة المتضمنة بوفرة في لفظة "بربري" ذاتها، كما أكد ذلك جين مونلاو Jean Monlaü [13].

[13] - **Jean Monlaü**, *Les Etats Barbaresques*, Série "Que sais-je", Paris: Presses Universitaires de France, 1964, p. 8.

# الهجرة من الريف الشرقي نحو الجزائر

ذ. عـــلال زروالـــي
شعبة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول -وجدة

## مقدمة

إن أولى الصعوبات التي واجهتنا عند دراسة الهجرة من الريف الشرقي ( إقليم الناظور حاليـــا ) نحو الجزائر، هي عدم توفر معطيات إحصائية كافية يمكن الوثوق بها والاطمئنان إليها، للقيـــام بتحليـــل جغرافي حقيقي. لهذا تطلبت دراسة حركات الهجرة مجهودا واهتماما كبيرين مـــن طـــرف عـــدد مـــن المتخصصين، وكذا علماء الاجتماع. وإذا كانت الهجرة الداخلية المؤقتة قد حظيت باهتمـــام كبـــير مـــن طـــرف كـــل مـــن Montagne و Azam و Bonnefous و Robine، والقبطـــان De la Porte des Vaux و Trystran، فإن الهجرة الخارجية لم يتم تناولها إلا بشكل محدود رغم أهميتها، وبالخصوص تلك التـــي مست منطقة سوس والمغرب الشرقي بصفة عامة، وإقليم الناظور بصفة خاصة والذي تناوله Bossard.

سأحاول من خلال هذه الدراسة، تسليط بعض الأضواء على الهجرة التي عرفها إقليـــم النـــاظور نحو الجزائر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، مبرزا في نفـــس الوقت الأسباب التي دفعت قسما كبيرا من سكان هذه المنطقة إلى هجرة أراضيهم للبحث عـــن مـــوارد تكميلية. ثم ما نصيب المستعمر في اتساع موجة الهجرة وموقف السلطات الإسبانية منها؟

## 1- تعود هجرة سكان إقليم الناظور نحو الجزائر إلى منتصف القرن التاسع عشر:

لا يمكن أن نؤرخ لهجرة الريفيين نحو الجزائر بفترة الحماية الإسبانية، لكونها كانت موجودة منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما يؤكد ذلك Duveyrier بقوله : «**في 18 نونبر من سنة 1852، استولى الإسبان على مركب للسلم في ملكية القلعيين والذي كان متجها إلى وهران، وحيث من سنة لأخرى، يأتي عمال هذه القبيلة لكراء سواعدهم إلى المعمرين خلال فترة الحصاد**»[1]. لقـــد كانت العلاقات متينة بين وهران والريف الشرقي، وبالخصوص بعد تزايد حدة الصراع بيـــن القلعيـــن

---

[1] - **Duveyrier H.** (1887), *La dernière partie inconnue du littoral de la Méditerranée : Le Rif.* Ed. Ernest Leroux, Paris, p.142.

والإسبان منذ 1891. وقد ارتفعت وتيرة المبادلات التجارية بين المجالين، لا سيما مع نمورس ومغنية وتلمسان، مقصد الريفيين لشراء الصابون والبن والشاي...وكل ما هم في حاجة إليه [2]. أما Moulièras فيقول في كتابه *"المغرب المجهول"* : « **يمكن أن نراهم** ( سكان الريف) **كل سنة بعمالتنا خلال موسم الحصاد أو جني الكروم** ... **وكانت وهران تستقبل أكثر من** 20000 **مهاجر قادمين للبحث عن العمل لدى المعمرين وبحثنا عن هذا المعدن الثمين النادر بالريف**» [3]. وقد لاحظ كل من Milliot و wenden ( 1933–34 ) أن هذه الهجرة قديمة، تعود إلى أبعد من ذاكرة الأجيال الحاضرة، ويقصدان بذلك الأجيال التي كانت تعيش خلال السنوات الثلاثين من القرن العشرين. ويذكر Bossard ( 1978 ) بأنه في نهاية القرن التاسع عشر كانت توجد بأرزيو بالجزائر قبيلة بطوية التي كان بها 1200 ساكن من أصل ريفي، وبالضبط من قبيلة بني سعيد الريفية، والتي يحتمل أنها هاجرت خلال القرن الثامن عشر. يتبين إذن، أن هذه الهجرة ليست بظاهرة حديثة إلى درجة أنها كانت تمثل تقليدا لدى سكان هذه المنطقة، إذ كانوا يهاجرون إلى الجزائر كلما حل موسم فلاحي يتطلب يدا عاملة مهمة. ونتساءل ما إذا كانت الظروف الطبيعية والاقتصادية بالجزائر أحسن حالا من مثيلتها بالناظور لا سيما أن الهجرة عادة ما تكون من مناطق العسر نحو مناطق اليسر؟

كان إقليم الناظور حتى مجيء الاستعمار الإسباني، ريفيا محظا، أي بلدا بدون مدن، ومن ثم عدم وجود نزوح قروي إقليمي. كما أن المدن المغربية لم تكن لها إلا جاذبية محدودة على سكان هذه المنطقة الهامشية، لهذه الأسباب كان سكانها يتجهون نحو الجزائر.

إن ظهور الهجرة بهذا الإقليم مبكرا لدليل على كثافة التعمير إلى درجة الإحساس بالضغط الديموغرافي. وبالفعل، فإن معظم الدراسات – وهي قليلة بالطبع – التي درست هذه المنطقة، تتحدث عن القرى الكبيرة والعامرة، يكفي أن نذكر أهمها أي تلك التي كانت تضم أكثر من 500 كانون مثل في إجَارْمَاوَاسْ ببني توزين، والسبت بقبيلة بني أُولْشَّك وآيت سيدال، والأربعاء ويزغنغن بقلعية وآيت ملكشن وسيدي داود وبويعقوب بتمسمان. هذه الدواوير كانت تمثل مراكز تجمع سكاني كبيرة شبيهة بالمراكز الحضرية، كما يؤكد ذلك موليراس عند حديثه عن دوار سيدي داود : « **يخيل إلينا سيده**

---

[2] - **Duchaud Ed.** (1909), « *Melilla et les présides* », in bulletin de la société de géographe commerciale de Paris, p.32.

[3] - **Moulièras A.** (1895), *Le Maroc inconnu : exploration du Rif*, Imprimerie Fouque et éditeurs, Oran, p.36.

**داود من بعيد كمدينة، لكن في الحقيقة ليس إلا قرية تتكون من 400 إلى 500 منزل صغير على بعد ربع ساعة من البحر»** [4].

لا شك أن هذا الإقليم بتضاريسه الجبلية شمالا وأحواضه السهبية الجافة جنوبا كان غير قادر على توفير كل حاجيات هذه الساكنة، خاصة وأن بلاد الريف كانت تعيش على اقتصاد الكفاف القائم على زراعة الحبوب الجافة، وبالخصوص زراعة الشعير. لقد كان المحصول ذو المردودية الهزيلة يغطي معظم المساحات المزروعة، ويشكل أساس الوجبات الغذائية كما أكد ذلك محمد بن الطيب (*) الذي زار المنطقة وتجول بمختلف أرجائها. وبالطبع فإن هذه الظاهرة لم تكن خاصة بإقليم الناظور فقط بل كانت عامة بكل المغرب، ولم يكن يتم تناول خبز القمح إلا من حل لديه ضيوف، أو خلال أوقات معينة كالمواسم والأعياد. وبقي الوضع على هذا الحال حتى مطلع السنوات الستين حينما عرفت البلاد بعض التحولات الاقتصادية والاجتماعية. ومهما يكن فإن المنطقة كانت توفر إنتاجا، لكنه لم يكن كافيا كما يشير إلى ذلك موليبراس « **غير أن بلادهم لم تكن عقيمة بما أن القرى والدواوير كانت تحسب بالمئات ...ويأتي الريفي عندنا فقط خلال شهرين للحصول على ما يعيله بالريف خلال السنة كلها دون القيام بأي عمل»** [5].

إلى جانب الحمل البشري الذي كان يعرفه إقليم الناظور والذي يترجم بالبحث المستمر عن موارد خارجية، عرفت هذه المنطقة خلال العقدين الثاني والثالث من هذا القرن ظروفا طبيعية قاسية تمثلت بالأساس في تردد السنوات الجافة (1925 و1930 و1933 و1934 و1940 و1941 و1945) التي كثيرا ما كانت تترتب عنها بعض المجاعات. كل هذا أحدث خللا في المعادلة التي كان يتم تحقيقها بين السكان والموارد، الأمر الذي جعل الهجرة نحو الجزائر أمرا ضروريا خاصة وأنها تتميز بالطلب المرتفع على اليد العاملة سيما بعد عمليات الاستصلاح الزراعي التي عرفتها بفضل التدخل الفرنسي في مجال الزراعة والغرس، وكذا على إثر انسحاب اليد العاملة الإسبانية من الجزائر.. ومن العوامل الأخرى التي كانت تشجع على الهجرة، نذكر الإنتاج الفلاحي المحلي الضعيف الذي لا يمكنه أن يعيل بلادا عامرة بشكل ملائم. وفي هذا الإطار تقول Maria Rosa de Madariaga « **إن السنوات الأربع السابقة لسنة**

[4] - **Moulièras A.** (1895), op. cit. p.104.

(*) - محمد بن الطيب هو الرجل الدرويش والفقيه الذي استطاع أن يتوغل داخل أراضي الريف ويكشف عن كل خباياها سيئة كانت أو حسنة. واستطاع بفضل دهائه أن يستقصي الكثير من سكان الريف لينقل كل هذه المعلومات إلى موليبراس التي دونها في كتابه "المغرب المجهول".

[5] - **Moulièras A.** (1895), op. cit. p.36.

1921 **لم تعط إلا محاصيل هزيلة الأمر الذي أدى إلى ظهور المجاعة في الريف، وكثير من الريفيين ينخرطون في القوات الإسبانية هروبا من الفقر»**[6]. بالإضافة إلى هذا فإن المستعمر الإسباني الذي سيطر على أجود الأراضي لم يخلق مناصب شغل قادرة على امتصاص جزء من هؤلاء المنحدرين الأمر الذي سيضخم حجم البطالة ويرفع عدد المرشحين للهجرة. نضيف إلى هذه العوامل جميعها ضعف مؤسسات الاستعمار الإسباني التي كانت تبدو محتشمة بالمقارنة مع مثيلتها على الضفة اليمنى لوادي ملوية، وهزال الأجور التي كان يدفعها المعمر الإسباني والتي كانت تتراوح بين 3 و5 بسيطات، في حين كانت تتراوح بين 12 فرنكا فيما يخص عملية النكش و25 فرنكا بالنسبة لعملية الحصاد وذلك منذ 1931[7]. وهكذا، فإن ما يمكن أن تقدمه الأرض الريفية، وما يمكن الحصول عليه من العمل بالمؤسسات الإسبانية كان هزيلا مقابل حاجيات متزايدة الشيء الذي أرغم الريفيين على اللجوء إلى الاقتراض من الإسبان أو من اليهود بفائدة كبيرة كما يشير إلى ذلك Milliot : « **خلال السنوات الصعبة، كان الريفي يلتجئ إلى القرض نقدا كان أم عينا، لأن الأمر يتعلق هنا قبل كل شيء بالتغذية. لكن نسبة الفائدة كانت عموما مرتفعة : 15 دورو لتسديد 10 تم اقتراضها خلال ثلاثة أشهر أو 8 عبرات مقابل 5 عبرات تم سلفها في فصل الشتاء»** [8]. على هذا الأساس يمكن القول بأن الهجرة خارج المنطقة لم تكن مجرد عادة اكتسبها السكان، بل هي نتيجة لعوامل متناقضة ومعوقة تتمثل في الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية التي أوجدها المعمر لتجريد السكان من أرضهم، والصناع الحرفيين من أدوات عملهم، حيث لم يعودوا يملكون أكثر من قوة عملهم التي كانوا يبيعونها للمعمر الفرنسي.

## 2- مست الهجرة نحو الجزائر معظم قبائل إقليم الناظور :

لقد كانت الهجرة قوية بين سكان قبائل المناطق الشمالية التي تتميز بكثافة التعمير والتي ترتبط بقدم الاستقرار، والنظام الاقتصادي القائم على الزراعة. لذلك فإن أي نقص في التساقطات كان يحدث خللا بين الإمكانيات الجبلية، وبين الفائض البشري الذي كان يشكل فعلا حملا ثقيلا على الموارد المتواضعة. أما سكان الأجزاء الجنوبية السهبية، فعلى الرغم من فقرهم، لم يشاركوا إلا بشكل ضعيف في هذه الهجرة وذلك لتعاطيهم لتربية الماشية، ثم لأن الرعاة الرحل يكرهون العمل اليدوي لاعتباره من

---

(6) - **Maria Rosa**, (1988), « *L'image et le retour du maure dans la mémoire collective du peuple espagnol et la guerre civile de 1936* », in. L'homme et la société, n°99, p.73.

(7) - **Milliot L.** (1933-34), *L'exode saisonnier des Rifains vers l'Algérie*, B. E. S. M. vol. I, n°4, p.318.

(8) - **Milliot L.** (1933-34), op. cit. p.315.

الأعمال الدنيئة. ولعل هذا ما يشير إليه Raynal بقوله : « **سكان حوض ملوية أقل استعدادا من السكان القرويين المغاربة الآخرين لممارسة أنشطة جديدة وذلك لكونهم رعاة رحلا** » [9]. لكن يبدو أن هذه الوضعية التي يتحدث عنها Raynal قد تغيرت خلال السنوات الثلاثين، حيث نجد هذه القبائل ( مطالسة وبني بويحيي وأولاد ستوت ) بدأت بدورها تصدر أبناءها. وبالفعل ففي سنة 1932 صدرت هذه القبائل الثلاثة 2820 مهاجرا نحو الجزائر، أي ما يمثل 11.33% من مجموع المهاجرين الذين هاجروا على متن الحافلات.

**شكل رقم (1) : توزيع مستعملي الحافلات من مهاجري قبائل الناظور وغيرها سنة 1932**

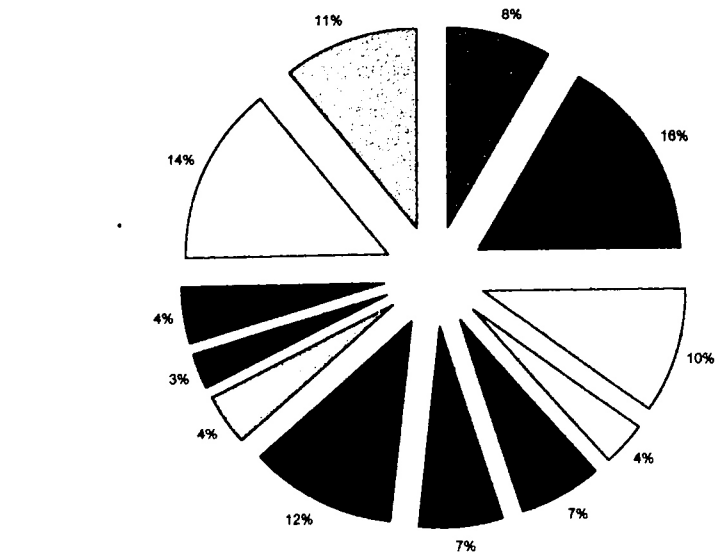


[9] - **Raynal R.** (1934), *Mouvements migratoires récents et actuels dans le bassin de la Moulouya.* B. E. S. M. n°57, p.348.

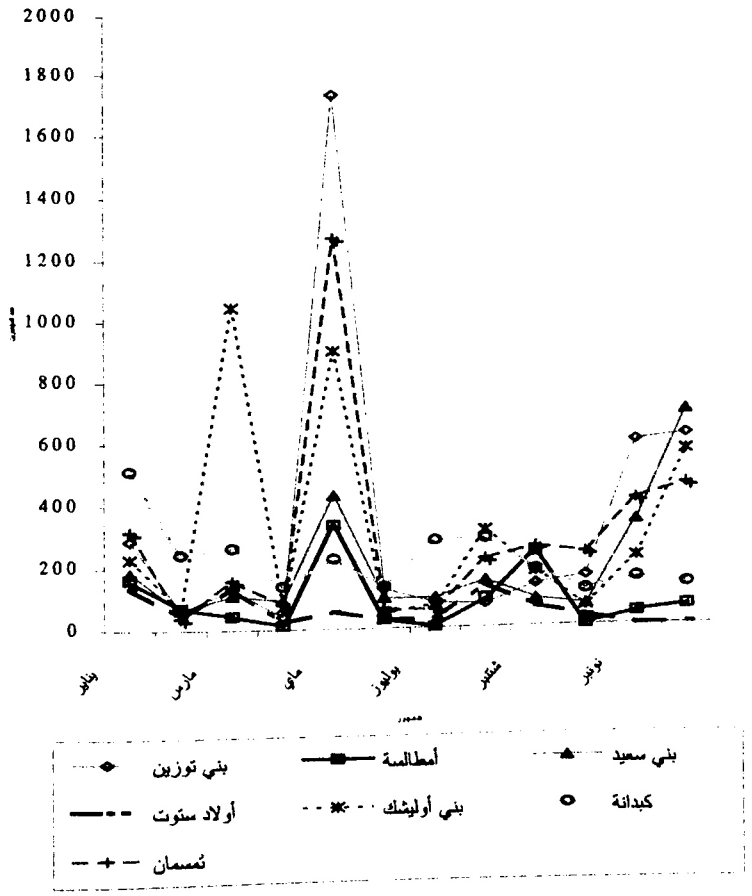


**شكل رقم (2) : حركة مهاجري بعض قبائل إقليم الناظور نحو الجزائر سنة 1932**

المصدر : MILLIOT L. (1934-1933), *L'exode saisonnier des Rifains vers l'Algérie*, p.318

ولا شك أن هذه الظاهرة لم تكن معروفة بهذه المناطق فيما قبل كما يشير إلى ذلك Celerier **«إنها ظاهرة جديدة ونادرة لأن لمطالسيين كجيرانهم بني بويحيي هم قبل كل شيء رعاة متنقلون لم يسبق لهم أن هاجروا من قبل»** [10]. لكن استقصاء بعض مسني هذه القبائل الرعوية والذين سبق لهم أن شاركوا في هذه الهجرة، بيّن أن الرعاة بدورهم رحلوا إلى الجزائر، لكن بأعداد محدودة جدا بالمقارنة مع سكان المناطق الجبلية، وهذا ما يمكن أن نستشفه من خلال الجدول رقم (1).

| | الشهر | 1 | 2 | 3 | 4 | 5 | 6 | 7 | 8 | 9 | 10 | 11 | 12 | 13 |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| السنة 1931 | ماي | 1017 | 1512 | 452 | 578 | 586 | 52 | 214 | 53 | 27 | 313 | - | 610 | 5614 |
| | يونيو | 359 | 267 | 165 | 174 | 224 | 84 | 229 | 27 | - | 47 | 33 | 37 | 1646 |
| | يوليوز | 267 | 279 | 141 | 235 | 398 | 69 | 188 | 66 | 21 | 37 | - | 154 | 1855 |
| | غشت | 510 | 540 | 236 | 499 | 490 | 382 | 453 | 335 | 312 | 306 | 306 | 63 | 4372 |
| | شتنبر | 138 | 163 | 202 | 165 | 81 | 212 | 244 | 122 | 144 | 138 | 152 | - | 1761 |
| | أكتوبر | 308 | 122 | 70 | 189 | 122 | 311 | 205 | 334 | 246 | 280 | 146 | 84 | 2417 |
| | نونبر | 448 | 260 | 93 | 199 | 212 | 99 | 284 | 194 | 385 | 209 | 67 | 203 | 2652 |
| | دجنبر | 497 | 141 | 173 | 176 | 224 | 64 | 237 | 211 | 180 | 263 | 57 | 264 | 2787 |
| **مجموع 1931** | | **3544** | **3284** | **1532** | **2215** | **2537** | **1213** | **2354** | **1341** | **1315** | **1593** | **761** | **1415** | **23104** |
| السنة 1932 | يناير | 287 | 163 | 183 | 137 | 265 | 96 | 228 | 281 | 511 | 316 | 62 | 284 | 2813 |
| | فبراير | 65 | 72 | 68 | 48 | 76 | 134 | 74 | 86 | 243 | 39 | 81 | 14 | 1000 |
| | مارس | 133 | 46 | 112 | 137 | 80 | 79 | 1048 | 50 | 265 | 160 | 68 | 62 | 1340 |
| | أبريل | 43 | 13 | 96 | 24 | 58 | 90 | 73 | 51 | 141 | 83 | - | 69 | 741 |
| | ماي | 1740 | 339 | 436 | 57 | 166 | 252 | 909 | 132 | 229 | 1279 | 44 | 632 | 6215 |
| | يونيو | 130 | 29 | 101 | 29 | 62 | 87 | 54 | 109 | 137 | 66 | 42 | 17 | 863 |
| | يوليوز | 83 | 3 | 100 | 30 | 19 | 54 | 77 | 119 | 286 | 60 | 56 | 41 | 928 |
| | غشت | 77 | 95 | 154 | 138 | 126 | 16 | 316 | 289 | 290 | 222 | 20 | 137 | 1880 |
| | شتنبر | 138 | 241 | 90 | 64 | 67 | 204 | 179 | 111 | 185 | 260 | 72 | 227 | 1838 |
| | أكتوبر | 162 | 2 | 70 | 31 | 48 | 124 | 64 | 87 | 117 | 238 | 120 | 56 | 1119 |
| | نونبر | 602 | 42 | 341 | - | 32 | 238 | 221 | 238 | 154 | 411 | 148 | 292 | 2719 |
| | دجنبر | 622 | 62 | 700 | 3 | 16 | 296 | 569 | 112 | 134 | 457 | 220 | 246 | 3437 |
| **مجموع 1932** | | **4082** | **1107** | **2451** | **698** | **1015** | **1670** | **2912** | **1665** | **2692** | **3591** | **933** | **2077** | **24893** |

1 : بني توزين ، 2 : لمطالسة ، 3 : بني سعيد ، 4 : أولاد منوت ، 5 : بني بويحيي ، 6 : بني سيدال ، 7 : بني وليشك ، 8 : بني بويفرور ، 9 : كبدانة ، 10 : بني شيكر ، 12 : قبائل أخرى ، 13 : المجموع.

**جدول رقم (1) : حركة دخول الريفيين بواسطة الحافلات عبر قنطرة ملوية وطريق بركان**

[10] - **Celerier (1934)**, *Mouvements migratoires des indigènes au Maroc*, B. E. S. M. vol. I, n°4, p.237.

رغم أهمية الأرقام الواردة في هذا الجدول رقم (1)، فإنها ليست ذات دلالة كبيرة، لأنها لا تعبر عن العدد الحقيقي للمهاجرين بسبب عدم انتظام عملية العبور، وتعدد المسالك، فضلا على أن عددا من المهاجرين كان يفضل الإفلات من كل مراقبة. وهذا على عكس ما يقوله Celerier الذي يؤكد على أن النزوح نحو الجزائر هو الحركة المعروفة بكل دقة، وذلك بفضل المراقبة المزدوجة والتأشيرة على جواز السفر عند الحدود. والحقيقة أن قسما مهما من المهاجرين كان يفضل الطريقة السرية حتى لا يخضع للمراقبة الإدارية التي تفرض بطاقة التعريف، والفحص الطبي الذي يتضمن التغلية والاستحمام والتلقيح. إلا أن هذه المسالك كثيرا ما كانت تؤدي بحياة بعض المهاجرين سواء بتعرضهم للصوص وقطاع الطرق، أو بغرقهم في واد ملوية لجهلهم السباحة، ولخطورة معابر ( المشرع ) هذا الواد (*). ونظرا لعدم توفر الأمن، فإن قسما من المهاجرين كان يسلك الطريق البري عبر القنطرة الدولية الرابطة بين منطقتي الحمايتين الفرنسية والإسبانية، إلى جانب هذه المسالك البرية، كانت توجد طريق بحرية تربط بين مليلية ووهران، لكنها لم تكن تصرف أكثر من ربع المهاجرين لارتفاع تكاليف تذكرة السفر التي كان يتراوح سعرها بين 50 و60 فرنكا (**).

## 3- تزايد عدد المهاجرين وموقف سلطات الحماية الفرنسية والإسبانية من اتساع موجة الهجرة:

يبدو أنه من الصعوبة بمكان الحصول على أرقام حقيقية ودقيقة فيما يتعلق بعدد المهاجرين من إقليم الناظور نحو الجزائر. لكن المؤكد أن هذه الحركة كانت مهمة بحيث إن بعض القبائل كانت ترسل حوالي ربع سكانها. فقبيلة بني بويفرور صدرت سنة 1932 حوالي 19% من سكانها، وبلغت النسبة 16% بكل من تمسمان وبني وليشك وكبدانة. أما في سنة 1941، والتي عرفت المنطقة خلالها أخطر مجاعة، فهاجرت جموع كبيرة من بلاد الريف وارتفعت نسبة المهاجرين إلى أكثر من 20%.

---

(*) – لا تزال هذه الأحداث عالقة بذاكرة أذهان المسنين الذين أكدوا لنا هذه الآفات في عدة مناسبات، وكلما تناولنا الحديث عن الهجرة إلى الجزائر. فمعظم الذين هاجروا إلى هذا البلد يتذكرون هذه الأحداث، لأنهم فقدوا خلالها أحد أقربائهم أو أحد رفاقهم. فحسب أحد المهاجرين، كان واد ملوية يهلك عددا لا يستهان به من الأشخاص؛ فعَنْ إحدى الرحلات يقول : سافرنا إحدى المرات في شكل مجموعة (15 شخصا) من دوار أيت سكدال وعندما وصلنا إلى واد ملوية سلكنا معبرا من معابره الموجودة بسهل الولجة، لكن لسوء حظنا جرفتنا مياهه، وهلكت منا ثلاثة.

(**) – كان سعر تذكرة السفر بواسطة الحافلة يتراوح بين 12 و15 فرنكا.

**جدول رقم (2) : نسبة العمال المهاجرين الذكور ببعض قبائل إقليم الناظور سنة 1941**

| القبيلة | المهاجرون الذكور | الساكنة الذكرية | % المهاجرين |
|---|---|---|---|
| تمسمان | 1567 | 7504 | 20.9 |
| بني سعيد | 1544 | 5617 | 27.5 |
| بني توزين | 1193 | 8246 | 14.5 |
| تفرسيت | 301 | 1636 | 18.4 |
| **المجموع** | 4605 | 23003 | 20 |

المصدر :

**Aziza M.** (1994), *Le Rif sous le Protectorat espagnol (1912-1956), marginalisation et changements sociaux : naissance du Prolétariat*, (thèse de Doctorat),Paris, p.321,(inédite).

رغم أن هذه النسب تبدو كبيرة فيرجح، أنها حقيقية. ومما يدعم ما نذهب إليه هو أن أعداد المهاجرين بوهران وحدها كان يفوق 20000، وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر. وفي 1904 قدرت الجمعية الجغرافية لمدريد عدد المهاجرين نحو الجزائر بحوالي 50000، وقدرهم Milliot سنة 1932 بأكثر من 36000، وبالطبع فإن 69% منهم كانوا يسافرون بواسطة الحافلات. وإذا أضفنا إلى هؤلاء المهاجرين بطريقة قانونية أولئك الذين كانوا يفضلون الهجرة على الأقدام، عبر المسالك غير المراقبة فإن العدد، ولا شك، سيتجاوز 45000 مهاجر. هذه الكتلة البشرية ستساهم بشكل أو بآخر، بواسطة الأموال التي تجلبها والتي قدرها Milliot بحوالي 55 مليون فرنك فرنسي سنة 1932، في التقليص من حدة الأزمات الاقتصادية نتيجة السنوات العجاف وسياسة النهب التي سلكها المعمر الإسباني. وهكذا ستوفر الهجرة نحو الجزائر موردا ماليا مهما كانت الأسر الريفية في أمس الحاجة إليه، خاصة وأن سلوكاتها الاستهلاكية قد تغيرت بفعل غزو المنتجات الأوربية كل منطقة الناظور، وقبول الريفيين الدخول في المبادلات من النوع الرأسمالي. وهذا ما أشار إليه Dechaud بقوله :« **المغاربة الذين كانوا في البداية لا يشترون إلا المنتوجات الضرورية، أصبحوا يتطلعون إلى شراء حاجيات جديدة بفضل المال الذي يأتون به من خلال إقامتهم بالجزائر : لقد رأوا فوتهم الشرائية ترتفع** »[11]. هذا وستساهم هذه الهجرة في التخفيف من حدة الاضطرابات السياسية والاجتماعية، الشيء الذي سيسهل على الإسبان التوغل داخل البلاد والسيطرة عليها، كما يشير إلى ذلك بلكندوز : « **لقد كان لهجرة**

[11] - **Duchaud Ed.** (1909), op. cit, p,p.2-3.

**الريفيين نحو الجزائر مظهر سياسي مهم حيث كانت تعتبر وسيلة من وسائل التهدئة ووسيلة للحد من المشاكل الاجتماعية لبعض المناطق. إن إرسال الريفيين نحو الجزائر يعني توفير مدخول للعديد من الأسر وهذا ما يشكل صمام أمن ناجع بالمناطق المضطربة »** [11].

إزاء هذا التدفق البشري من الناظور نحو الجزائر، نتساءل عما إذا كانت الأوضاع الاقتصادية بهذا البلد أحسن حالا من مثيلتها بالريف الشرقي، وهلا تتوفر الجزائر على يد عاملة بعين المكان؟ في الواقع أن الجزائريين رفضوا العمل بمزارع وحقول انتزعت منهم بالقوة من طرف المعمرين الفرنسيين، وفضلوا العيش بما يدره عليهم الرعي من دخل هزيل. هذا الرفض هو الذي جعل الأوراش الفرنسية تشكو من النقص الكبير في اليد العاملة ومن ثم كان من اللازم البحث عنها لملء هذا الفراغ، فكان الاعتماد أول الأمر على الإسبان، ثم فيما بعد على المهاجرين القادمين من جبال الريف والمغرب الشرقي بصفة عامة، والريف الشرقي بصفة خاصة، حيث ينفرد هؤلاء بعدة مزايا عن باقي اليد العاملة. فهم لا يترددون عن القيام بأي عمل يعرض عليهم كالنكش والاجتثاث والحصاد والجني، رغم أن كل هذه الأشغال شاقة ومرهقة. لقد كان الريفي يتحمل كل هذه الأشغال لما تدره عليه من مال ثم لحبه لخدمة الأرض ولمهارته وحذاقته ومعرفته بالأمور الفلاحية. ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في الدفع بهذه الهجرة نجد السياسة الإسبانية المتشددة والجائرة، لذلك كان الريفيون يجدون في الهروب من منطقتهم خلال مدة معينة متنفسا مهما، لا سيما وأن فرنسا كانت تعاملهم بشكل أحسن، لضمان استمرارية العمل بضيعات المعمرين، وبمغارس الكروم التي غطت كل مجال منطقة وهران. وبالطبع فإن هذا الإفراغ البشري من الريف، وهذه الحركات التراقصية بين الريف والجزائر، كانت تسهل على إسبانيا فرض قبضتها على البلاد. لهذه الأسباب، ولغيرها، نهجت سلطات الحماية الإسبانية سياسة لينة تجاه المهاجرين نحو الجزائر، ولم تكن أبدا مستعدة لتطبيق قرار منع الهجرة المغربية نحو هذا البلد المجاور الذي أصدرته فرنسا سنة 1928، وذلك تجنبا لانتقال عدوى الاضطرابات التي كانت تعيشها بلاد الريف. لكن سرعان ما تخلت فرنسا بدورها عن هذه السياسة بموجب قراري 27 أكتوبر من سنة 1931 و11 يناير 1933 على إثر اتساع موجة الهجرة السرية إلى الجزائر حيث بلغ الأجر اليومي بوهران 30 فرنكا، وهكذا، ونظرا لعدم توفر فرص الشغل بالإقليم استمرت هجرة الريفيين نحو الجزائر حتى نهاية فترة الحماية الإسبانية كما يظهر ذلك من خلال الشكل الموالي :

---

(11) - **Belguendouz M.A.** (1987), « *L'émigration des travailleurs marocains* », in. La grande encyclopédie du Maroc, Fasc : géographie humaine, p.37.

**شكل رقم (3) : التغيرات السنوية للمهاجرين نحو الجزائر ببعض قبائل إقليم الناظور**

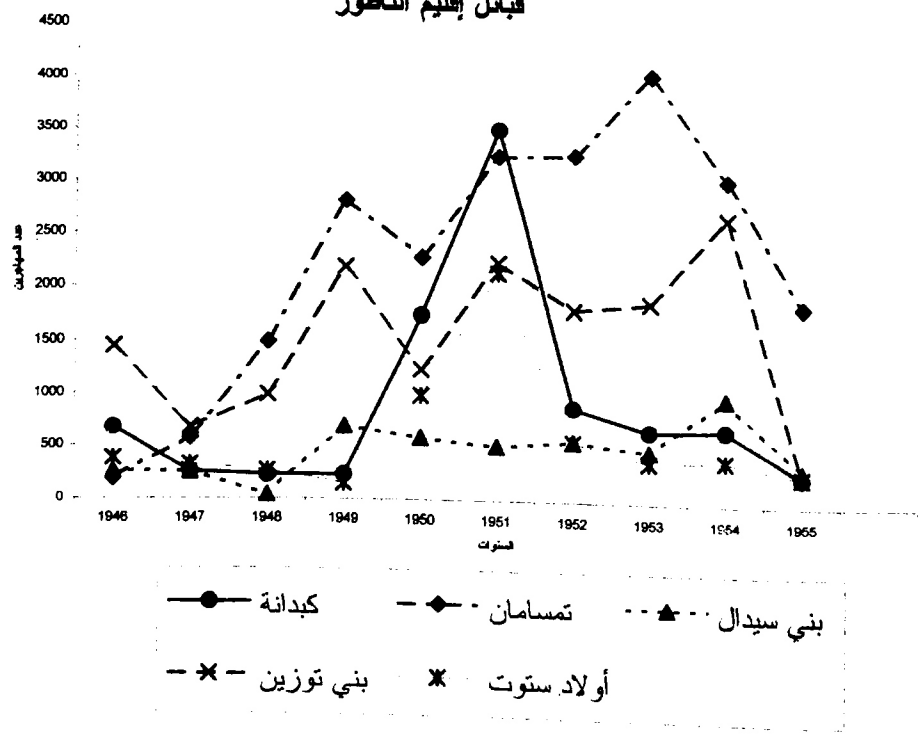

## خاتمـــة :

كان المجتمع الريفي قبل الحماية، وخلالها، مجتمعا تقليديا يعيش بواسطة فلاحة معاشـــية هدفها الأساسي تغطية حاجيات الأسرة. لكن هذه المنطقة كثيرا ما كانت تعرف خللا بين الحاجيات والســـكان، الشيء الذي كان يدفعهم إلى البحث عن موارد تكميلية ليس فقط داخل إقليمهم، ولكـــن أيضـــا ببعـــض الجهات المغربية الأخرى، بل وخارج البلد كذلك. لهذا لم تكن هجرة الريفيين نحو الجزائر تعبيرا عـــن انفتاح فكري، ولكنها كانت رغبة في الحصول على شغل يمكنهم من إعالة أسرهم. وبالفعل فـــإن هـــذه الظاهرة التي مست مختلف الفئات العمرية كانت توفر مدخولا هاما شكل صمام أمان بالنسبة لسكان هـــذه المنطقة التي لا تتعدى بها التساقطات المطرية 300 ملم في السنة، وهي كميات دون المســـتوى الأدنـــى الذي تتطلبه الزراعة الجافة ( 400 ملم )، والتي يقوم اقتصادها على بنيات تقليدية غـــير قـــادرة علـــى مسايرة النمو الديموغرافي، وبالتالي التوازن بين المنتوجات المحلية ومتطلبات السكان. لهذه الأســـباب، شجعت السلطات الإسبانية هجرة الريفيين التي اتخذت حجما أكبر وطابعا أوسع، إلى درجة أنها أصبحت من أكثر المظاهر إثارة وتعبيرا عن الأزمة التي يعيشها إقليم الناظور. فإذا كانت هذه الهجرة قد مكنـــت الريفيين من تجاوز الصعوبات التي عرفها الريف الشرقي خلال فترة الحماية، فإن هذه المنطقة ســـتعرف صعوبات جديدة مع بداية استقلال المغرب وتوقف الهجرة نحو الجزائر التي أصبحت مستقلة (*). وهـــذه الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية هي التي ستفرض على سكان إقليم الناظور البحث عن منطقة بديلة لا سيما أن الهجرة أصبحت لدى الريفيين تقليدا وعادة. وبالفعل سيتجه مهاجرو هذا الإقليم نحو دول أوربـــا الغربية التي عرف اقتصادها حركة تنموية هامة، وكان في حاجة ماسة إلى يد عاملة أجنبية.

(*) – لم تتخذ هذه الهجرة طابع الاستقرار النهائي إلا بالنسبة لفئة قليلة من السكان الذين استقروا بصفة نهائيـــة بـــهذا البلد المجاور، رغم التراقص السنوي بين الريف والجزائر، لكن في سنة 1975 تم طرد هؤلاء المغاربة بشكل جماعي على إثـــر استرجاع المغرب لصحرائه.

# حفريات معرفية في ذاكرة الشمال المغربي

ذ. أحمد إحدوتن
المدرسة العليا للأساتذة
تطوان

**تقديـــم**

لأسباب موضوعية، وأخرى ذاتية، تراكم على ذاكرة الشمال الكثير مـــن الغبـــار والصـــدأ. وبالتالي فهي في حاجة إلى عملية استعادة سوية لا مرضية، إلى إنجاز حفريات معرفية موضوعية لا متواطئة. وهي ضرورة علمية لا سيكلوجية اختزالية، تنزاح إلى التخصص في " مكيجة " فضـــاءات تاريخ وجغرافية ضيقة / تاريخ فرد أو مجموعة أفراد.

تأسيسا على منهجية تأريخية جديدة (!) نسميها " منهجية اذكروا موتاكم بخير "، وكمـــا قـــال المفكر عبد الله كنون « **ما رأي القارئ المنصف في سكوت العارفين حين يتكلم غيرهم، أليس هو وكتمان الشهادة سواء؟**» [1]، فإن رصد معطيات الحاضر مرهون إلى حد كبير برصد تفـــاصيل ذاكرة الماضي القريب على الأقل. وفي هذا السياق نقترح عليكم نصوصا ناطقـــة، وأخـــرى قابلـــة للاستنطاق، رجال ورجال :

1- الفقيه الرهوني وآثاره العلمية ؟!

2- الأستاذ محمد داود : ليسجل التاريخ.

## 1- الفقيه الرهوني وآثاره العلمية ؟!

### 1-1 ) تمهيد :

خلف لنا الفقيه أحمد الرهوني الكثير من الكتابات والنصوص جلها مختصرات. ومن ضمنـــها نقترح عليكم نصوصا واردة في مؤلفين. الأولى واردة ضمن مراجعته وتقديمه لكتاب " *دليل الإسباني السالك مسلك معرفة مذهب مالك* " [2] سنة 1926. وهو من تأليف رئيس المحكمة العسكرية الإسـبانية

---

(1) - **محمد داود** ، مختصر *تاريخ تطوان*، تقديم عبد الله كنون، طبع معهد مولاي الحسن للأبحـــاث، 1953، ص. ص. 1-4.

(2) - **El Coronel Manuel del Nido**, *Guia del Español que comprende el camino del conocimiento de la escuela Malikita ...: derecho musulman Censorado por Kadi el Kodal. Ministro de Justicia : Sidi Ahmed el Erhoni*, Editorial Hispano Africa, Tetuan, 1927, 515 p.

بتطوان الكورونيل " مَانُويلْ دِلْ نِيدُو طْرِيسْ ". والثانية واردة ضمن كتابه " *الرحلة المكيـــة* " ســنة 1937 [3]. وهي الرحلة التي نظمها إلى مكة، الجنرال فرانكو لبعض من أهل شمال المغرب مباشــرة بعد تمرده انطلاقا من كتامة بشمال المغرب يوم 18 يوليوز سنة 1936، وترأسها الفقيه الرهوني.

الفقيه المؤرخ الرهوني كان يعرف – أكثر من غيره – أن ما يكتبه سيشكل بعد حين وثــائق ومصادر للتاريخ. وهكذا " ساعدنا " في التعرف على المجهودات العلميـــة للكورونيـل الفقيـه (!)، والجنرال العظيم (!) الذي بتنظيمه الرحلة إلى الحج " قدم أول وردة للمغاربة..." (!)

**2-1 ) نص مراجعة الرهوني لكتاب الكورونيل الفقيه (!) :**

**1-2-1 ) معطيات حول الكتاب :**

كتاب الكورونيل " مانويل دل نيدو طريس"، " *مسلك الإسباني السالك مسلك مذهـب مـالك ، وهو جامع الأقوال الفقهية في الأحكام الشرعية المسلمة* "، قدم له وراجعه الفقيه أحمـــد الرهونـــي، قاضي القضاة ووزير العدل بمنطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب. والكتاب عبارة عن نصـــوص بالعربية مع مقابل لترجمتها بالإسبانية. إضافة إلى ملحقات جد ناطقة ما بين صفحـــات 465 و 510، عالجت من منظور استعماري إمبريالي مكشوف النقاط التالية :

- أعراف القبائل بالشمال.
- الوسائل الممكنة للسيطرة على الشمال.
- الاستعمار الفلاحي للمنطقة.
- الهجرة الإسبانية واحتواء الأراضي.

**2-2-1 ) نص الرهوني الذي قدم به لكتاب الكورونيل :**

**« الحمد لله وحده.**

**بعونه تعالى راجع الواضع اسمه الكتاب النفيس الذي ألّفه المؤلف المحقق البارع في علم الحقوق الكورونيل دِلْ نِيدُو طْرِيسْ، رئيس المحكمة الشرعية العسكرية بتطوان وسماه بالحقوق الإسلامية أي أحكام الشريعة الإسلامية. فوجده كتابا حافلا مملوءا بالأحكام**

---

من مؤلفات الكورونيل دا ، نيدو Del Nido :

1. *Apuntes para el oficial de intervencion y de tropas coloniales.*
2. *Codigo de justicia militar.*
3. *Mision politica y tactica de las fuerzas indigenas.*

[3] – الفقيه أحمد الرهوني، *الرحلة المكية : 1937*، من منشورات معهد الجنرال فرانكو، المطبعة اللبيرالية، تطـوان، 1941، 232 ص.

**والمسائل الفقهية (...) وبناء على ذلك أضع هنا شهادتي بأن هذا المؤلف قد أصاب في هذا الكتاب إصابة حسنة وأحسن نقل تلك النصوص، وبأن كل من يطالعه من الإسبانيين وغيرهم يطلع على حظ وافر من الأحكام الإسلامية، بحيث تحصل له قوة كبيرة على حل قسم من المسائل التي تناط بمراقبته»** (ص.4).

20 **نوفمبر** 1926، **أحمد بن محمد الرهوني لطف الله به.**

**1-2-3 ) ملاحظات أولية :**

**أ** – حدد الكورونيل " دل نيدو" الأهداف من تأليف الكتاب بقوله : «**بدون دراسة التشريعات المغربية لا يمكن تهدئة مناطقنا (...) بمعنى أنه بدون دراسة التشريعات الإسلامية والأعراف القبلية لا يمكن أن نستعمر منطقتنا...**» (ص.ص. 11-12). وفي ذلك، يدعم الكورونيل دل نيدو طروحاته بالفلسفة الاستعمارية الفرنسية، من خلال تأكيده على أهمية طروحات أحد مشاهير جنرالات فرنسا المسمى " دوق إيسلي " Duque Isly في مجال استعمار وتهدئة الجزائر.

**ب** – الكورونيل " مانويل دل نيدو " هو أحد مجرمي حرب الريف. وقد أهدى كتابه إلى مجرم حرب آخر أعلى منه رتبة، وهو الجنرال "بيرنكر" Berenguer : رئيس أركان القوات الاستعمارية الإسبانية بشمال المغرب. واستخدام مفهوم مجرمي الحرب راجع إلى كونهما ممن ساهموا في استعمال الأسلحة الكيماوية في حرب الريف. لقد نشر الكتاب في يناير 1927، «**وما بين** 1927 **و** 1930، **اجتاحت جميع القبائل** [ بشمال المغرب] **موجة من الإرهاب، وفي كل صلاة كان الأساقفة يحمدون الله على الجرائم التي ارتكبت وعلى القمع المسلط على الريفيين**»[4]. وقد ساهم الكورونيل في ذلك بشكل مباشر باعتباره رئيس المحكمة العسكرية بتطوان. «**وفي الوقت الذي كان صراخ المعذبين في مصالح المراقبة الإسبانية ما زال يسمع واحتجاجات آلاف الريفيين المعتقلين**»[5]، كان الفقيه الرهوني يراجع ويقدم لكتاب الكورونيل الفقيه، وبالتحديد يوم 20 نوفمبر 1926.

---

[4] - **Miguel MARTIN**, *El colonialismo Español en Marruecos : 1850-1956*, Ruedo Iberico, Paris, 1937, p.86.

ترجمة عبد العزيز الوديي، منشورات التل، الرباط، 1988.

[5] – نفس المرجع، ص.88.

ج – كيف تحول الكورونيل، رئيس المحكمة العسكرية بتطوان، إلى " فقيه " مالكي؟ ذلك ما لم يوضحه الفقيه الرهوني الذي لم يتعلم الإسبانية ( انظر نص الرحلة المكية، ص. 34). إذن كيف راجع النصوص الفقهية التي ترجمت من العربية إلى الإسبانية؟

د – ملحقات الكتاب هي عبارة عن برنامج مرحلي للمستعمر الإسباني بشمال المغرب بعد حرب الريف. وقد تم إبراز الملحقات بعناوين بارزة على غلاف الكتاب، وكذلك اسم العلامة الرهوني الذي راجع الكتاب وشهد على نفسه بأهميته؟!

**1-3 ) نصوص من كتاب " الرحلة المكية " : تأليف الرهوني 1937.**

يقول الفقيه أحمد الرهوني : « **كنت جالسا بجناني في ليلة الرابع والخامس من شهر شوال 1355، فسمعت في المذياع التطواني أن الجنرال فرانكو قد هيأ باخرة جميلة لركوب الحجاج المغاربة من سبتة إلى مكة، وأن الحجاج المذكورين سيكونون تحت رئاسة العلامة سيدي أحمد الرهوني، فكاد عقلي يطير فرحا من هذا التشريف الكريم. وفي الغد استدعاني المقيم العام وهو السياسي الكبير حبيب المسلمين** (ص.5) **وصديقهم في القديم والحديث الضون " خوان بيكبيدر"** (ص.6) **وأخبرني بأن أمر ترشيحي صدر بموافقة فخامة الرئيس الفنرالسيمو فرانكو. ثم أعلمني أنني رشحت أولا، قبل السفر للحج، الطواف على مستشفيات إسبانيا وزيارة المجاريح المغاربة الذين بها وتسليتهم** (ص.20) (...) **ثم نرفع تشكراتنا القلبية للبطل الأكبر الشجاع، ذلك الرئيس المحبوب من جميع القلوب رئيس دولة إسبانيا العامية لمنطقتنا، رئيس رؤساء إسبانيا حامي حمى الوطنية من تلاعب الشيوعيين** (ص.21)، **حامي حمى الوطنية الفنرالسيمو فرانكو حبيب المسلمين في جميع الأقطار** (...) **فليحيى المساعد البطل الصنديد الفنرالسيمو فرانكو ولتحيى إسبانيا الجديدة. وليحيى سعادة المقيم العام وجميع من معيته، الله أكبر، الله أكبر...**(ص. 30) (...) **يوم 11 يناير شرعنا في الطواف على المستشفيات وملاحظة أحوالها فلاحظنا من حسن تنظيمها ونقاوة فراشها ولذة مطاعمها الشيء المدهش، والممرضات كأنهن البيض المكنون يطفن عليهم** [ الجرحى المغاربة ] **بأكواب وأباريق وكأس معين، فسألناهم عن حالهم فأخبروا أنهم في نعم شاملة وأنهم يتمنون مع الدقائق أن يبسترا** [ يتعالجوا ] **من الجراحات ليعودوا إلى الصفوف والكفاح** (ص.36). **وفي يوم 19 يناير 1937، استقبلنا الفنرالسيمو فرانكو بمدينة " سلمنكا "، بما فطر عليه من البشاشة وجمال الوجه وحسن الخلق، وألقيت كلمة التحية عليه وهي قولي :**

يا فخامة الرئيس إن سعادة نائبكم المقيم العام "خوان بيكبيدر"، قد انتدبني باسمكم لرياسة الحجاج الذين يحجون في هذا العام تحت إحسانكم (...) كي أبلغ العالم الإسلامي بمقدار محبتكم وتعظيمكم لجميع المسلمين (...). وردا على الخطاب القيم الذي وجهناه إلى فخامة رئيس الدولة الإسبانية الجنرالسيمو فرانكو، ألقى علينا خطابا يتضمن تصريحات خطيرة تدل على ما يكنه فخامة الرئيس من صدق المحبة والتعظيم للمسلمين عموما (ص.36). ومما جاء فيه : أهنئكم بترشيحكم (...) بلغوا جميع المسلمين الذين يحضرون في تلك البقاع المباركة احترامي وعرفوا عني كل مسلم أني صديق المسلمين من صميم قلبي وأني سأهيئ لهم جامع قرطبة ونواحيها حتى يكون لهم ككعبة يقصدونها من كل فج للعبادة والعلوم (ص. 213) ...

قدم المركب المسمى "المغرب الأقصى" إلى سبتة يوم 24 دجنبر 1936. فقصفته طائرات الشيوعيين، فسلم المركب وماتَ أناس وتهدمت ديار ... (ص.38) (...) فقامت مظاهرة عارمة في جميع المنطقة وخصوصا تطوان ضد هذه الحركة العدائية ضد الإسلام وأهله (ص.39). ولما عزمنا على السفر أعطاني المقيم العام ألفي ريال بالتثنية ومائتي ليرة إنجليزية (ص.44). وفي يوم 29 يناير 1937 أقلع بنا المركب من سبتة بـ 190 راكبا ثم التحق بهم ما يناهز التسعين بمدينة مليلية. ويوم 30 يناير وصلنا إلى طرابلس واستقبلنا خليفة الحاكم الإيطالي وهناك التحق بنا 217 فردا من الحجاج (...) (ص.59). نحمد الله ونرجو أن يوفق الجنرال فرانكو ورجال دولته للاتحاد على ما فيه صلاحنا الديني والدنيوي (ص.60) (...).

وفي بور سعيد بمصر شهد حراس الميناء أنه لم يمر أي مركب حامل للحجاج مثل مركبنا، وشهدوا بكرم الجنرال فرانكو ورجال الدولة الإسبانية الوطنية (...) وصاروا يسألون الحجاج عن حالهم مع الجنرال فرانكو ونوابه، والكل يجيب بالثناء العاطر على سياسته وحبه للإسلام وأهله، ويدعو له بالنصر على أعدائه الشيوعيين، أعداء الإنسانية، فينعجبون من ذلك أن يرون آثار الصدق في الأخبار (ص.69).

وصلنا إلى ميناء مدينة جدة 14 فبراير 1937. وسئلنا عن أحوال إسبانيا الحاضرة وعن أحوال الجنرال فرانكو ورجاله وعن أحوالنا معه، فأجبنا بأن إسبانيا جيدة وبأنها سائرة نحو التقدم وأن أحوال فرانكو ورجاله مستقيمة وأنه منصور على أعدائه وهو عازم على مساعدتنا على تحسين أحوال منطقتنا (ص.112) (...). والعودة كانت عبر طرابلس ثم مدينة نابولي، وزرنا روما ووجدنا لديهم يوم عيد خطب فيه الدوتشي، الذي صرح أنه يحب المسلمين وأنه

**يعد نفسه في هذا العصر حامي الإسلام (...) وكان الناس ينظرون إلينا باحترام كبير، وذلك في الحقيقة ناشئ على وعايا الدوتشي موسوليني** (ص.218) (...) **ومن هناك إلى سبتة، فتطوان في يوم 29 مارس 1937، التي عاشت عيدا كبيرا فرحا بعودة الحجاج. ويوم 31 مارس أطلق البراح في المدينة أن لكل حاج أن يصحب من شاء من أحبته وإخوانه إلى إشبيلية لملاقاة الجنرالسيمو فرانكو حتى بلغ عددهم 1200 فردا** (ص.220). **وعند وصولنا إلى إشبيلية يوم الجمعة وجدنا فخامة الجنرال فرانكو محفوفا بأركان حربه وأعوانه الصادقين في استقبالنا ومما قاله فخامة الرئيس فرانكو : إنني أعد نفسي سعيدا بتوجيه هذا المركب إلى البلاد المقدسة، وأن هذه هي أول وردة أقدمها للمسلمين الذين أحبهم محبة خصوصية من أعماق القلب. ثم قام الجنرال فقمنا معه وزار وزرنا معه وامتطى صهوة سيارته وصار بها إلى صلمنكا تصحبه السلامة في الحال والترحال** (ص.221). »

1-3-1 ) ملاحظات أولية :

أ – بعد شهور قليلة من عودته من الحج، وفي إحدى محاضراته حول تطـــوان وتاريخـــها، كتب الفقيه أحمد الرهوني في جريدة الريف : ســأتحدث « **كمعاصر تاريخي بعيدا عن السياسة وأصولها وفروعها بعد السماء عن الأرض** »[6] ؟!

ب – كتب الجنرال فرانكو بعد انتهاء حرب الريف في 25 ماي 1925، وهو الذي مجده حتى الهذيان الفقيه الرهوني في كتابه " الرحلة المكية "، كتب يقول : « **إننا نترك ميدان القتال وفي قلوبنا الرغبة في فرض عقاب رادع على المجرمين** [ المغاربة الريفيين ] **لم تره الأجيال قط** »[7].

ج – بدأت سنة 1937 في منطقة الحماية الإسبانية سلسلة من مواكب الحج إلى مكة على نفقة الجنرالات المتمردين. وخلال الرحلة الأولى قصف المركب " دي كمياس " الذي سمي مـــن جديـــد ب" المغرب الأقصى" من طرف الطيران الجمهوري، واستغل ذلك إلى أقصى حد من طرف الدعايـــة الفاشية [8].

د – وفي سياق حملة دعائية تتأسس على استخدام الورقة الدينية بهدف توريط المغاربة فـــي حرب أهلية قذرة، يقول المقيم العام " خوان بيكبيدر"، الذي صنفه الفقيه الرهوني ب " السياسي الكبير

---

[6] – جريدة *الريف*، دجنبر 1937، السنة الأولى، العدد 35، ص.1.

[7] – ميكيل مارتين، *الاستعمار الإسباني في المغرب*، م. س. ص.85.

[8] – نفسه، ص.159.

حبيب المسلمين في القديم والحديث"، يقول : « **إننا لا نحتاج إلى تعليقات لأن الشعب المغربي مثل الشعب المسيحي يعرفان أن هؤلاء الشيوعيين الملحونين يريدون إبادتنا من العالم، غير أنهم لن يحققوا ذلك لأن المسلمين والمسيحيين يكافحون معا في هذه الحرب المقدسة** » [9].

هـ – انتهت الحرب الأهلية الإسبانية فاتح أبريل 1939، وبدأ مسلسل التصفية والتعذيب والنفي، سواء في إسبانيا أو الريف، وهي أول وأحسن الورود التي وعد فرانكو بتقديمها إلى المغاربة [10].

**1-3-2 ) خلاصة تركيبية :**

" الرحلة المكية " هي رحلة تندرج بشكل مكشوف ضمن الحملة الإعلامية الفرنكاوية لتهدئة وتأمين القواعد الخلفية للجيوش الإسبانية بشمال المغرب من جهة، ومن جهة ثانية توريط المغاربة في حرب أهلية قذرة باسم محاربة الشيوعيين، أعداء الدين الإسلامي والمسيحي! وإذا استحضرنا أن رئيس الرحلة الفقيه الرهوني هو مؤرخ كذلك، استبعدنا عدم علمه بالأهداف الدعائية للرحلة... وللحديث بقية.

## 2 – الفقيه محمد داود : ليسجل التاريخ.

**2-1 ) تمهيد :**

من كتابات المرحوم نقترح عليكم ثلاثة نصوص :

**النص الأول**، وهو عبارة عن شهادة للعلامة عبد الله كنون في حق الأستاذ محمد داود، أوردها في تقديمه لكتاب " مختصر تاريخ تطوان" [11]، وهو « **كتاب لأم كريم وصديق حميم أعده مثل نفسي (...) هؤلاء أصدقاؤنا ونحن أعرف الناس بأحوالهم وهم شخصيات تاريخية إن كنا نخفل عليها الآن، فإنه سينتبه لها غدا كثير من المحتمين ... ونكون قد جنينا جناية تاريخية وأدبية معا.**» (ص.3).

**النص الثاني** : "*ليسجل التاريخ : براثين الاستعمار* ". عنوان جد دال لمقالة فسر فيها الأستاذ داود معاناته كمدير لمجلة السلام (1934) [12]، الذي منع من توزيع المجلة، وبتواضع العلماء

---

[9] – نفسه، ص.161. :

[10] – نفسه، ص.164.

[11] – مختصر *تاريخ تطوان*، م. س.

[12] – **محمد داود**، مجلة السلام، العدد 10، 1934، ص.ص. 60-65.

الملتزمين قال : «**هذا ويعلم الله أننا نكره التحدث عن أنفسنا ولكن الضرورة وحفظ الحوادث للتاريخ تضطرنا لذلك**»

**النص الثالث**، هو عبارة عن قراءة تقويمية لسنة من عمر مجلة السلام / من العمل الثقافي الإعلامي، تحمل عنوان " *ختام السنة الأولى* " [13]، ونسميها بمحنة العمل الإعلامي. وغير ذلك فما زالت الكثير من المعطيات الواردة فيها تحافظ على راهنيتها. يقول الأستاذ محمد داود : «**بكل أسف نعتذر عن عدم تمكننا من تنفيذ سائر البرنامج، ويعلم الله أننا ما تأخرنا عن ذلك إلا مكرهين.**»

2-2 ) شهادة عبد الله كنون في الأستاذ محمد داود:

«**أصبح لزاما علي بصفتي مدير معهد مولاي الحسن للأبحاث، أن أكتب مقدمة أو تصديرا أو كلمة تعريف على الأقل للكتب المجازة (...) وهذا العمل وإن يكن مجرد التزام التزمته من أول كتاب صدر عن المعهد، فإنه تقليد حسن لا نجمل مخالفته ... ولكنني حين التزمت هذا العمل وأخذت بهذا التقليد لم أفكر أنني سأكون مضطرا في يوم من الأيام لتقديم نفسي بنفسي (...) وقد اضطررت إلى هذا الموقف الآن، لأن الكتاب الذي حاز جائزة المعهد في هذه السنة، وأنا أكتب كلمة تعريفه هذه هو كتاب لأم كريم وصديق حميم أعده مثل نفسي (...) وما رأي القارئ المنصف من سكوت العارفين حين يتكلم غيرهم أليس هو وكتمان الشهادة سواء.**

**وأزيد هذه النقطة بيانا لأنها مسألة تاريخية، ونحن بصدد تقديم كتاب تاريخي، فأقول : هؤلاء أصدقاؤنا، ونحن أعرف الناس بأحوالهم، بماضيهم وحاضرهم، وبأدق المعلومات عن حياتهم، وربما وربما للتكثير عرفنا دخائل نفوسهم، وهم شخصيات تاريخية، إن كنا نغفل عنها الآن فإنه سينتبه لها كثير من المهتمين برجالات هذا العهد وبناة صرح نهضته العتيد، فلا شك أننا إذا لم نعرفهم للناس ولم نطلعهم على مجريات أحوالهم، سنكون قد جنينا جناية تاريخية وأدبية (...)**

**وبعد، فإن الكتاب الذي بين يدي الآن هو مختصر تاريخ نطوان للأستاذ محمد داود، ولا أزيد على الأستاذ شيئا من الصفات، فإن هذه الصفة لمن يحقق مدلولها نهاية في التقدير. وقد عبرنا مرة في جميع أنحاء المغرب لا نطلقها إلا على داود. لم تكن هناك صحافة وطنية ولا**

---

[13] نفسه، ص. ص. 65-66.

أندية ولا مجال آخر تظهر فيه هذه الصفة مستعملة في أحد غيره، وإنما في المجتمعات الخاصة والرسائل المتبادلة بين هذه الفئة من الإخوان العاملين في ميادين التعليم والوطنية إذ ذاك كان الجميع يحبي الصديق السيد محمد داود بالأستاذ!

هذه واحدة، وأخرى لا تقصر عنها وهي أن الأستاذ داود من أول المؤسسين للتعليم الحر بالمغرب (...) ثم لا ننسى أن الأستاذ داود كان من الرواد الأولين في عالم الصحافة الأدبية (...). هذا إلى أن الأستاذ محمد داود يعتبر مثال الوطنية الصادقة والعمل الصامت (...) وكانت الحركة الوطنية تعتمده وتستشيره في المهام، وكثيرا ما تعمل بإشارته لما أوتيه من أصالة النظر وقوة الحجة فضلا عن إخلاصه الذي لا يمتري فيه أحد.»

2-3 ) ليسجل التاريخ : براثين الاستعمار

«من سياسة المستعمرين الفرنسويين أنهم حين يريدون محاربة الوطنيين المغاربة لا يقابلونهم وجها لوجه في الغالب وإنما يعمدون إلى أذناب الاستعمار وبراثينه فينفخون فيهم من روحهم وينفذونهم مراكب هزلية يتوصلون بها إلى ما يريدون (...). وبعد أن انتهت حفلة عيد المولد النبوي بسلام، أصدر حاكم طنجة المندوب التازي أوامره بنفي أشخاص وسجن آخرين، نعم نفي أناس وسجن آخرون لأنهم حملوا الراية المغربية ومروا بها في الأسواق، وحكام طنجة لا يسمحون بأن يحمل في الأسواق غير الراية الصهيونية، نعم الراية الصهيونية اليهودية. أما صاحب هذه المجلة كاتب هذه السطور فقد أصدر هذا المندوب قرارا بمنعه من دخول منطقة طنجة وقد كنت أزورها مرة كل شهر لتفقد أملاكي التي من ريعها أعيش ولتعهد تجارتي التي من فيضها أنفق على هذه المجلة وغيرها من المهمات الوطنية. ولنثبت هنا نص قرار النفي بلفظه عن الصفحة 461 من العدد 10 من الجريدة الرسمية لمنطقة طنجة، وهذا نصه :

الإيالة الشريفة - مندوب الجلالة الشريفة بمنطقة طنجة - قرار - إن مندوب الجلالة الشريفة بطنجة، نظرا للفصل الرابع من ظهير رجب عام 1342 الموافق ل 16 فبراير 1924 الصادر بتنظيم إدارة طنجة، ونظرا لتقرير رئيس إدارة البوليس المؤرخ في 2 يوليو 1934 المتعلق بحوادث فاتح يوليو، ونظرا لنتائج البحث الذي أجراه خليفتي المندوبية في الحوادث المذكورة ولما أثبته أن المسمى محمد داود المغربي الجنسية الساكن بتطوان مدير مجلة السلام الذي يتردد مرارا إلى طنجة (...) وحيث أن في وجود المذكور بطنجة خطر على الأمن العام، قرر :

الفصل الأول : ينفى المسمى محمد داود المغربي الجنسية من منطقة طنجة.

الفصل الثاني : لمدير منطقة طنجة أن ينفذ القرار.

حرر بطنجة 9 يوليو 1934

محمد التازي لطف الله به.

ونحن لا نعلق على هذا القرار الهزلي لأننا لا نحترمه ولا نعطيه أي أهمية. وهكذا أصبحت ممنوعا من الاتصال بإخواني وأصدقائي بمدينة طنجة المنكوبة. وبعد فلتعلم أيها المندوب في قصرك بين جواريك وغلمانك ولكن الويل لك كل الويل يوم الحساب العسير (...) أما نحن وإخواننا المنفيون ففي سبيل الله والوطن نضحي بهنائنا ورفاهيتنا، وفي سبيل محاربة الظلم والاستبداد نستحلي النفي (...).

وبهذه المناسبة نثبت هنا للتاريخ، نص الأمر الصادر من فرنسا بمنع دخول مجلتنا "السلام" إلى المنطقة المغربية المنكوبة بالنفوذ الفرنسي وذلك نقلا عن الصفحة 680 من العدد 1125 من الجريدة الرسمية، للدولة المغربية الشريفة المحمية، الصادر بتاريخ 18 ماي 1934، وهذا نصه :

أمر في منع المجلة المسماة "السلام" من الدخول إلى المنطقة الفرنسوية بالإيالة الشريفة. من الجنرال دوك ماكارتي القائد الأعلى للجيوش المغربية مؤقتا (...) ونظرا للمطلب عدد 189 الموجه في 13 ماي 1934، من طرف الوزير المفوض المعتمد بالإقامة العامة وحيث أن المجلة التي عنوانها السلام الصادرة بتطوان باللغة العربية من شأنها أن تشوش النظام العام وتضر بالأمان المتعلق بجيوش الاحتلال نأمر بما يلي :

أن المجلة التي عنوانها "السلام" يمنع إدخالها إلى المنطقة الفرنسوية بالإيالة الشريفة، وكذلك عرضها في المحلات العمومية وتعليقها أو بيعها وعرضها للبيع وكذلك تمنع أية جريدة تسلك مسلكها السياسي صادرة بعنوان آخر بمساعدة جميع أو بعض العاملين لجريدة السلام (...)

الرباط 16 ماي 1934

الجنرال دوكماكارتي

هذا وبعلم الله أننا نكره التحدث عن أنفسنا ولكن الضرورة وحفظ الحوادث للتاريخ تضطرنا لذلك وعليه وبهذه المناسبة أذكر أيضا أنني بعد أن أصدرت العدد التاسع من هذه المجلة سافرت إلى المنطقة السلطانية بالمغرب لأغراض تعلقت لي بها (...) فاستدعتني دائرة

البوليس، وبعد طردي أرجع لي جواز السفر مكتوب عليه : اخرج صاحب هذا الجواز من منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب لأنه منفي عنها، فليت شعري في أي غار اختفت الحكومة المغربية ؟؟؟

وكذلك كان مع شقيقي التاجر الأمين أحمد داود الذي طرد من فاس (...) ثم أن جمعية الطالب المغربية انتدبتني وصديقي الأستاذ عبد الخالق الطريس صاحب جريدة " الحياة " سابقا لتمثيلها في مؤتمر " طلبة شمال إفريقيا المسلمين "، الذي تقرر عقده بتونس، فطلبنا من القنصلية الفرنسية التأشير على جوازي سفرنا فامتنعت من ذلك وصرحت لنا بأننا ممنوعان من دخول القطرين الجزائري والتونسي أيضا (...) فليسجل التاريخ.»

2-4 ) نص " ختام السنة الأولى – أو – محنة إعلام مغرب الأربعينات

« نختم السنة الأولى من مجلة " السلام " بمثل ما افتتحناها به من حمد الله القوي المعين. ثم نتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى جميع إخواننا الذين عاضدونا " أدبيا " في مشروعنا هذا حتى تمكنا من تذليل الصعاب والتغلب على العقبات الكأداء التي اعترضت سبيلنا. ثم بكل أسف نعتذر عن عدم تمكننا من تنفيذ سائر البرنامج الذي كنا وضعنا تنفيذه نصب أعيننا، ويعلم الله أننا ما تأخرنا عن ذلك إلا مكرهين. وأن الفضل والمنة لله على توفيقه لنا وتثبيته إيانا حتى أخرجنا للوجود هذه المجلة التي وإن كانت في نفسها صغيرة ومحدودة في دائرة ضيقة، إلا أننا إذا استثنينا " مصر " ونظرنا إلى باقي القارة الإفريقية كلها، لم نجد لها مثيلا في عدد صفحاتها وتنوع موضوعاتها وتعدد صورها، وإن كانت هناك مجلات أخرى لا تقل عنها وطنية وإخلاصا وسمو مبدإ وعزة نفس.

وإذا كان لنا أن نبدي أسفنا من شيء فإنما هو الناحية المادية التي أتعبتنا كثيرا فقد كان عدد المشتركين في السنة الأولى لا يتجاوز مائة واحد بكل أسف. ولم نقبض من أي فرد قريب أو بعيد، أو أية هيأة وطنية أو حكومية، درهما واحدا زيادة على الاشتراك المنشور على غلاف المجلة. نعم لم نتلق أية إعانة أو تنشيط مادي إلا من شخصين اثنين لا ثالث لهما واسم كليهما " أحمد " فقد اشترك كل منهما بعشر نسخ (...) المداخيل في الغالب تقرب من المصاريف، ولكنني مع ذلك فقد سددت العجز مرارا من جيبي الخاص، دون أن آخذ من أي مخلوق سنتيما واحدا وأنني قد اضطررت لذكر هذا، لا افتخارا به ولكن تكذيبا بل تحديا لبعض أفراد قيل لنا إنهم ذكروا أنهم قدموا لهذه المجلة إعانة مادية. (...) وقد كنا ارتكبنا طريقة قصدنا بها حفظ كرامتنا وكرامة مهنة الصحافة أيضا، وهي أننا لم نتملق بها لأحد لا من

الرؤساء ولا من الأغنياء ولا من الموظفين، ولم نوجهها إلا لمن طلبها منا أو رأيناه يستحق أن نهديها إليه دون مقابل، إما لعلمه أو لفضله أو لخدماته الإسلامية. وقد كنا نوزع في هذا السبيل عدد غير قليل.

ويجمل بنا أن نثبت هنا أن صندوق "السلام" لم يدخل إليه سنتيم واحد لا من ملك ولا أمير، ولا من باشا ولا وزير. وأذكر كلمة قالها عطوفة الأمير شكيب أرسلان حفظه الله، وهي "اعلم يا ولدي أنك إذا استطعت أن تجعل مداخيل مجلتك موازية لمصاريفها، فاعتقد أنك أتيت بالمعجزة في هذا العصر..."».

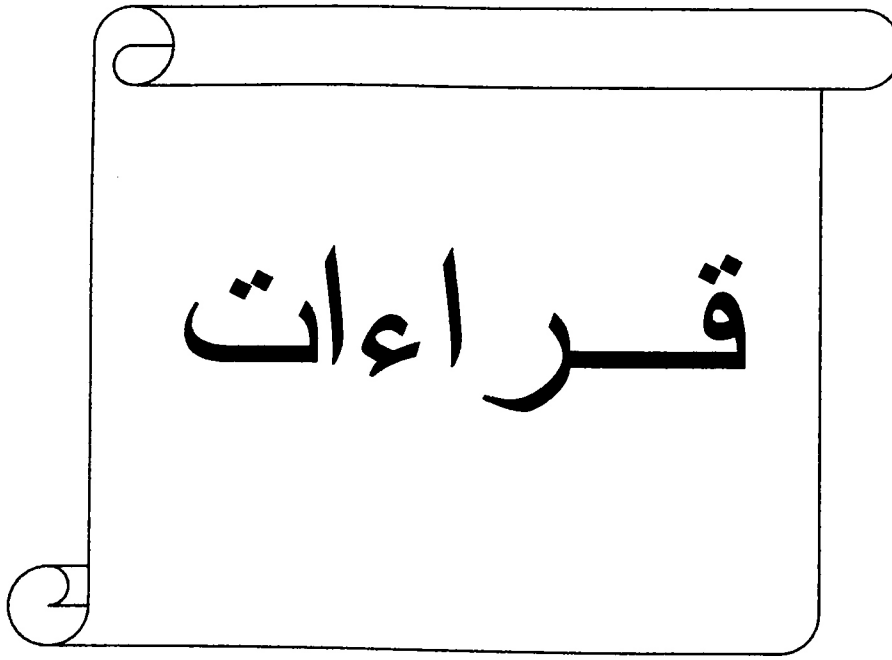
قـــراءات

فصول منسية من تاريخ المغرب

# إمارة بني صالح في بلاد نكور

الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي

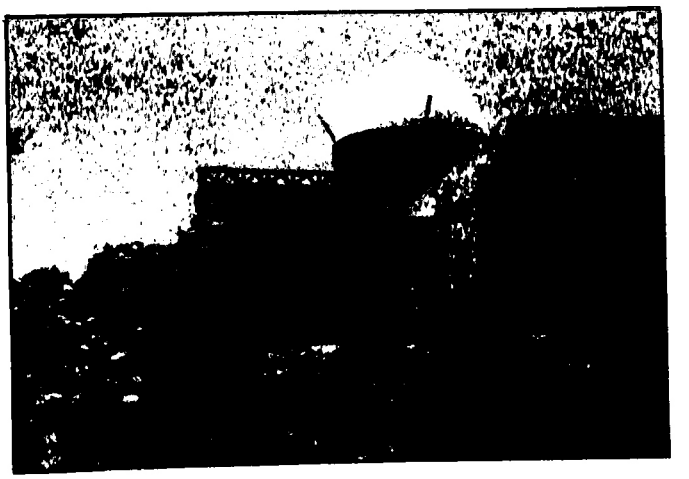

أحمد الطاهري

# إمارة بني صالح في بلاد نكور

**تأليف الدكتور أحمد الطاهري**

**قراءة محمد أونيى**

***« ما كان لمِصْبَر طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن »***

**عبد الرحمان بن خلدون، *العبر*، ج.6**

تعززت المكتبة التاريخية المغربية مؤخرا بصدور كتاب جديد للدكتور أحمد الطاهري تحت عنوان : " **فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور**" [1]. يقع هذا المؤلف في 254 صفحة من الحجم المتوسط بما فيه المقدمة وقائمة المصادر والدراسات، وملحق خاص بالخرائط والرسوم، وشجرة آل صالح، والفهرس الموزع على بابين، كل واحد منهما يضم ثلاثة فصول.

وقد زينت هذه الطبعة الأنيقة، على الواجهة الأمامية لغلافها الخارجي، بصورة ضريح سيدي صالح الذي يوجد بقبيلة تمسامان، وعلى الواجهة الخلفية للغلاف تظهر صورة المؤلف وهو في إحدى زياراته للميدان المدروس، وبجانبها نقرأ نبذة عن سيرته الذاتية والعلمية التي أثمرت عشرات الدراسات والأبحاث باللغة العربية واللغات الأجنبية، منشورة وغير منشورة.

استهل الكاتب هذه الدراسة الهامة **بمقدمة** عرف من خلالها بالقاعدة البشرية الأولى التي قامت عليها أركان إمارة بني صالح، ويتعلق الأمر بنفزة؛ المجموعة القبلية الأساسية التي تمحورت حولها باقي الفروع الأخرى من صنهاجة وزناتة وغمارة ( مصمودة ) في أعرق تجمع حضري و« **أول وأقدم حاضرة إسلامية أنشئت ببلاد المغرب**» (ص.5)، الأمر الذي أهلها – أي حاضرة نكور – لتلعب أدوار طلائعية في النمو الحضاري والعمراني والسياسي والديني في الجناح الغربي من دار الإسلام. وينطبق نفس الحكم على إشعاعها الثقافي؛ فقد أشار الكاتب إلى أن الحفريات التاريخية التي أجراها في أمتن متون المصادر العربية « **قد أسفرت عن مفاجآت غير منتظرة فيما يتعلق بالبواكير المؤصلة لجذور الثقافة المغربية الأندلسية، إذ تبلورت بادئ ذي بدء بنكور**...»

---

[1] – **أحمد الطاهري**، *فصول منسية من تاريخ المغرب : إمارة بني صالح في بلاد نكور*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1419 هجرية/1998.

(ص.6)، ناهيك عن ازدهار نشاطها الفلاحي والحِرَفي واتساع رقعة مبادلاتها التجارية أفقيا وعموديا، الشيء الذي انعكس على بنيانها الاجتماعي كبروز دور العامة الذين شكلوا " في سابقة مثيرة للانتباه" الدعامة الأساسية « **للسلطان في مواجهة تجاوزات أرباب الدواوين ومتنفذي الجند...**» (ص.7).

لكن، على الرغم من هذه المكانة التاريخية والحضارية التي تبوأتها إمارة بني صالح، فإن « **القدامى والمحدثين قد أحجموا عن التأريخ لها، إهمالا أو بدعوى شح المادة التاريخية، فيما يشبه مؤامرة صمت يمكن الرجوع بأصولها إلى القرن الرابع الهجري**» (ص.7)، مؤامرة صمت سبق وأن ندد بها أيضا المناضل السياسي والمؤلف المغربي المرحوم محمد سلام أمزيان، في دراسة له لم تنشر بعد عن إمارة نكور، يعود تاريخ إعدادها إلى سنة 1974.

أما الدراسات والمقالات القليلة التي سبق وأن طرقت هذا الموضوع، فلا يمكن – في رأي الباحث – التعويل عليها، إذ مرت عليه مرور الكرام، كما أن نتائج بعض المحاولات الأركيولوجية التي أجريت بالمنطقة المعنية، لم تكن بأحسن منها. وإنما الكل « **قد اقتصر قديما وحديثا على ترديد مقتطفات من النص الشحيح الذي احتفظ به البكري ضمن مسالكه، فيما يشبه أسطوانة متكررة**» (ص.8).

كان على الدكتور الطاهري إذن، أن يتشجم عناء البحث من أجل إبراز ما أسماه بالفصول المنسية من تاريخ هذه الإمارة، وانتشالها مما نعته –خطأ– مؤرخو المدرسة الأوربية بالقرون المظلمة. وذلك بالقيام بجولات وصولات في أمهات المصادر ومختلف المخطوطات بدءا من تآليف التاريخ وكتب المسالك والممالك والنحل والملل، ثم مرورا بكتب التراجم والطبقات والأنساب، وانتهاء بكتب اللغة والآداب ولحن العوام وما إلى ذلك من النوازل والشروط والمواريث والوثائق والأحكام، فضلا عن متون الحكمة والسياسة والفلاحة والموازين والمكاييل. على أنه لابد أن نضيف إلى هذه المادة المصدرية أهمية المعاينات الميدانية التي قام ولا زال يقوم بها الباحث. وكونه أيضا من أبناء المنطقة يتقن لغته الأمازيغية التي أفادته في ضبط كثير من المواقع الجغرافية المذكورة في المصنفات القديمة، بل لم يتوان عن تصحيح أسمائها الأمازيغية التي تعرضت للتحريف والتصحيف من طرف النقلة والنساخ. هذا علاوة على استئناسه بالمصادر الأندلسية الأولى وتخصصه في تاريخ الإسلام بصفة عامة، وتاريخ المغرب الوسيط بصفة خاصة. كل هذا جعل من الكاتب الباحث المناسب في الموضوع المناسب.

## الباب الأول : حوليات التطور التاريخي من النشأة إلى السقوط.

في **الفصل الأول** من هذا الباب، تتبع الكاتب "حيثيات النشأة والتأسيس" الخاصة بإمارة بني صالح، فسلط أضواء جديدة على قضيتين تعتبران من الأهمية بمكان:

- القضية الأولى تتعلق بالكيفية التي تمت بها عملية تأسيس إمارة بني صالح. فعلى عكس الدراسات التي تعرضت لهذه النقطة، والتي زعم معظمها أن عملية التأسيس قد تمت بواسطة غزوعسكري على يد قائد يمني من حمير في الجيش العربي الفاتح، فإن الأستاذ الطاهري وجد **« أن المصادر المتداولة لا تتحدث عن أية سيطرة من هذا القبيل ولا عن تفاصيل العمليات التي أدت إلى إخضاع المنطقة عسكريا»** ( ص. ص.16-17 )، وإنما ذلك تم – ابتداء من سنة 62 هجرية – في إطار " الصلح والمسالمة " بين " يُلْيان " حاكم سبتة وما والاها كالريف، والقائد العربي عقبة بن نافع (ص.18) الذي فضل أن ينهج في هذه الناحية من المغرب نهجا سلميا تمثل في تركيزه على نشر تعاليم الإسلام بواسطة بناء رباطات دينية كرباط نكور الذي شيد قبل تأسيس مدينة نكور نفسها.

- القضية الثانية ترتبط بهوية مؤسس إمارة نكور، صالح بن منصور. ففي الوقت الذي بات أصله العربي أمرا مسلما به بين الدارسين، يفاجئنا الدكتور الطاهري برأي مخالف ومثير سيخلخل كثيرا من المسلمات التاريخية التي بنيت على هذا الاعتقاد. فالكاتب يرى أن الأصل العربي اليمني الحميري المنسوب إلى الأسرة المؤسسة لإمارة نكور، ما هو إلا إدعاء رسمي ومقصود من طرف أمرائها. ثم تناقله – ولو عن غير اقتناع – مؤرخو الأندلس (ص.23). ولإثبات صحة هذه الأطروحة الجديدة، قام الباحث برصد عدة مؤشرات دالة، نخص بالذكر منها رواية أبي عبيد الله البكري التي تواترت في شتى الدراسات التاريخية التي تداولت أنساب بني صالح. فهذه الرواية – يقول الأستاذ الطاهري – « **لم تصرح فعلا لا بنسبهم العربي ولا بقدومهم فاتحين من المشرق»** (ص.24). كما أن بعض المتأخرين كالمؤرخ الزَّيَّاني في ترجمانته، أكد أن صالح بن منصور إنما « **دخل المغرب من إفريقية»** (ص.23) وليس من المشرق العربي كما ذهب ابن خلدون وابن الخطيب نقلا عن روايات ضعيفة، فضلا عن عدم زيارتهما للمنطقة كما فعل اليعقوبي سنة 278 هجرية. فلا عجب إذا انفرد هذا الأخير في كتابه " البلدان " بنص فريد من نوعه جاء فيه – يقول الطاهري – أن صالح بن إدريس وكذلك صالح بن سعيد كان « **يدعي أنه من حمير»** (ص.25)، في حين أن الرواية المحلية التي وقف عليها اليعقوبي نفسه، تحكي أن أصل صالح بن

سعيد والأسرة المؤسسة للإمارة من « **أهل البلد نفزي**» (ص.22)؛ أي أنه أمازيغي من شمال المغرب.

فما هي إذن، الدوافع التي أدت بآل صالح إلى نكران أصلهم الصنهاجي النفزاوي وادعاء النسب العربي؟ يجيبنا الكاتب بأن الأمر يتعلق بظاهرة « **مألوفة**» سادت خلال القرن الثالث الهجري بعموم الغرب الإسلامي (ص.27)، وخاصة عقب التحول المذهبي الذي شهدته المنطقة، والذي يكمن من جهة، في أفول المذهب الخارجي الذي يجيز « **تأمير غير العرب من مسلمي الشعوب الأخرى**» (ص.25)، ومن جهة ثانية، في تنامي المد العلوي الزيدي (المعتزلي) الداعي إلى حصر الإمامة في آل البيت (ص.26)، وهو ما يعني سحب البساط من تحت أقدام أمراء بني صالح. ففي ظل هذا التحول العقائدي إذن، يصبح – في نظر المؤلف – تبني النسب العربي أمرا لا محيد عنه لآل صالح قصد إضفاء طابع الشرعية على حكمهم، وبالتالي ضمان استمراره. أما ما عدا ذلك – يستطرد الكاتب – فإن صالح بن منصور لا يعدو أن يكون « **من أوائل الذين أسلموا وتفقهوا بقيروان إفريقية، ومنها توجه بإيعاز من القائمين غربا نحو نكور، حيث تستقر فروع من بني جلدته نفزة، للقيام بمهمة إدماج هذه المنطقة في دار الإسلام**» (ص.29).

ليس هذا فحسب، بل يبدو أن المؤلف قد تمكن من الكشف عن هوية طارق بن زياد، واضعا بذلك حدا للبس الذي ظل يكتنف، ولمدة طويلة، انتماء فاتح الأندلس؛ فهو استنادا إلى بعض المصادر « **بربري من نفزة**»، أي حسب الباحث، متأصل في صنهاجة وبلاد نكور (ص.34)، وتحديدا ينتهي نسبه، تبعا لرواية ابن عذاري، إلى ابن زياد بن «...**يطوفت بن نفزاو**» (ص.33، هامش رقم 130).

أما بالنسبة للغموض الذي تثيره عبارة « الافتتاح » الواردة، في المصادر التاريخية الأولى، مقرونة بذكر أخبار حلول صالح بن منصور بتمسامان، فيرى الكاتب أن الأمر يتعلق بالافتتاح الذي تم « *صلحا* » واختيارا، وليس «*عنوة*». وهذا ما خول لصالح بأن « **يستخلص نكور لنفسه**» ويبسط نفوذه – في إطار عقد الإقطاع الموقع مع دمشق – على صنهاجة وغمارة إلى حدود دائرة « يليان » صاحب سبتة، والذي سيعمل طارق بن زياد قائد طنجة، على استدراجه للمشاركة في فتح الأندلس (ص.35).

بيد أن سياسة " الصلح والمسالمة " هذه، والتي كانت إدارة بني أمية تنهجها في دمشق تجاه شمال المغرب، ستتوقف ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك. ذلك أن الولاة الأمويين اتبعوا – في الغرب الإسلامي– سياسة جبائية جائرة إلى درجة أنهم تجرأوا على « **تخميس البربر وزعم أنهم**

**فيء المسلمين**» كما يذكر الكاتب نقلا عن ابن عذاري (ص.36). وفي نفس السياق، تصدى الكاتب لمقولة أوردها البكري، فحاول أن يردها إلى نصابها بعدما زاغت بها تأويلات المتأخرين عن الجادة والصواب. ويتعلق الأمر بإشارة البكري إلى أن أهل نكور « **ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام**». فهذا كلام حق يراد به باطل. فإذا كان الأمر يتعلق فعلا – يوضح الطاهري- بثورة اندلعت في منطقة نكور، وشارك فيها العامة بكثافة، فإن الهدف منها لم يكن هو الردة عن الإسلام كما زعم مؤرخو المذاهب والملل، وبالأخص منهم مؤرخي السنة، وإنما هي ثورة شاملة ضد شطط السياسة الأموية بصفة عامة، وقيام صالح بن منصور بتوسيع ضريبة الخراج الشرعية على الأرض الفلاحية، وغيرها من المغارم غير المعهودة بصفة خاصة.

ودون أن ينساق مع التفسير العقائدي والعرقي الضيق كما فعل البعض، ووفاء لمنهج أستاذه الدكتور محمود إسماعيل في تفسير ثورة الخوارج في بلاد المغرب تفسيرا ماديا، فإن الدكتور أحمد الطاهري يؤكد على الطابع الاجتماعي لثورة نكور، وعلى أسبابها الاقتصادية مهما التبست في لبوس مذهبي خارجي. أجل، لقد كان قائد هذه الحركة شخصا من نفزة نكور يدعى داوود الرندي، وواحدا من زعماء المذهب الخارجي الصفري المعادي للسياسة الأموية في الغرب الإسلامي، ومع ذلك لم يكن التيار الخارجي متجذرا في بلاد نكور. وإنما سرعان ما انقلب أهل المنطقة ضد هذه الدعوة التي لم يألفوها و « **قتلوا الرندي واستردوا صالحا**» (ص.40)، ثم عادوا لينتظموا من جديد في سلك الخلافة الأموية وليتشبثوا بمذهب أهل السنة والجماعة، لكن هذه المرة في إطار تبعية صورية للولاية الأندلسية الممركزة بقرطبة، بدل صاحب إفريقية كما كان سابقا، « **مما شكل سابقة مثيرة للانتباه**» تكشف – يواصل الكاتب – عن بواكير الاندماج الحضاري بين العدوتين المغربية والأندلسية (ص.42).

مجمل الكلام، أن العبد الصالح، صالح بن منصور سيستمر أميرا على تمسامان وقبائل صنهاجة وغمارة إلى غاية وفاته سنة 132 هجرية، وهو تاريخ يتزامن مع انهيار الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية.

في **الفصل الثاني** الذي أفرد لنكور وهي « **في عصرها الذهبي**»، سلط الكاتب أضواء جديدة حول مسار انتقال نظام المُلك في الإمارة. فأكد أن ذلك كان يتم بالوراثة وبموافقة أهل البلد. كذلك كان الأمر، مثلا، بالنسبة للـ-تصم الذي ورث السلطة عن أبيه صالح بن منصور، لكن المنية باغتته في نفس السنة من ولايته، ليخلفه أخوه إدريس الذي استكمل بناء الإمارة، لكن الموت لم يمهله هو

أيضا حتى يكمل بناء العاصمة التي شرع في اختطاطها في عدوة الوادي. ولذلك استمرت قاعدة حكمه بتمسامان حيث الموضع البحري المعروف بسيدي إدريس ما يزال يحتفظ بذكراه (ص.48).

بعد إدريس، آلت الأمور إلى ابنه سعيد عام 143 هجرية/760م الذي استكمل تشييد مدينة نكور على بعد خمسة أميال من الشط، لتصبح مقرا جديدا للإمارة بدل تمسامان (ص.50).

وبعد ذلك أخذت العاصمة تتسع، فأخذت حدود الإمارة تتسع أيضا إلى أن بلغت ناحية الغرب أحواز تِيكِيسَاس المتاخمة لدولة الأدارسة (ص.56)، وتعمقت في الداخل حتى حدود قبائل أوربة. أما في الشرق، فترامت حدودها على طول مجرى وادي ملوية، من أقصى الشمال عند مصب النهر في البحر الأبيض المتوسط، إلى أقصى الجنوب والوسط حيث لامست، من جديد، في هذه الجهة، أطراف الدولة الإدريسية (ص.58)، ليصبح مجموع الرقعة الجغرافية التي احتلتها إمارة بني صالح من الشرق إلى الغرب حسب التقويم القديم « **مسيرة عشرة أيام**» (ص.58).

بعد وفاة سعيد بن إدريس سنة 188 هجرية/804م، جاء من بعده ابنه صالح الذي في عهده تعرضت نكور لغارة النورمان (المجوس) « **القادمين من بلاد اسكندنافيا خلال هجومهم الأول سنة 230 هجرية /844م على العدوة المغربية**» (ص.59).

يرى الكاتب أن إمارة نكور استطاعت أن تستوعب هذه الضربة الأولى من نوعها، وحظيت، فوق ذلك، بمؤازرة صاحب قرطبة الذي انتقم من الأعداء، حيث بعث إليها « **برأس زعيم المجوس**» (ص.60)، وذلك إما اعترافا بالجميل وردا للدَّين الذي كان لآل صالح على حكام قرطبة بحيث ساعدوهم على تأسيس إمارتهم بالأندلس، أو "طلبا للرضى" وتقربا من نكور التي كانت ما زالت سيدة الموقف في الحوض الغربي من المتوسط.

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهذه الحملة الأولى، فإن غارة النورمانديين الثانية عام 244 هجرية/858م والتي تمت على متن اثني وستين مركبا، كانت أشد وطأة وأكثر خطورة؛ فقد « **استغرق مقامهم لنهب المدينة وتخريبها وطمس معالمها ثمانية أيام كاملة**» (ص.61)، ولم يتنفس صالح الصعداء إلا بعدما طرد الغزاة بمساعدة جموع من البرانس الذين قربهم إليه، وأنزلهم بجوار الساحل بمَسْطَاسَة (ص.62). ويبدو أنه أخذ العبرة، فعمد إلى تحصين نكور بإحاطتها بأسوار دفاعية. بيد أن بوادر الاضمحلال والاختلال التي دبت في رحاب " دار الإسلام "، عرفت طريقها أيضا إلى كيان الإمارة النكورية . ومن أبرز مظاهر هذا التداعي والتدهور، انشغال الأسرة الحاكمة بالنزاع حول السلطة فيما يشبه حربا أهلية انخرط فيها بعض المنشقين من البيت الحاكم. وبعد وفاة صالح، اتقدت الفتنة أكثر حيث أعلن العبيد " الصقالبة " عصيانهم، وبنو يصليتن بتمسامان

تمردهم، الشيء الذي كاد أن يعصف بآل صالح لولا مؤازرة العامة لسعيد بن صالح الحديث العهد بالسلطة.

بعد هذه المحنة، حاول سعيد أن يلم الشمل، ويجرد حملة واسعة النطاق على الناحية الشرقية لرد القبائل التي خرجت عن الطاعة : « **انطلقت الحركة من نكور وتمسامان لغزو بلاد بطوية المعاقبة ثم عرجت على معاقل بني ورتدين في قلوع جارة وهددت بمن اجتمع إليها من القبائل** [الصنهاجية والغمارية] **إلى مونيسة وزنانة**» (ص.70).

وفي هذا السياق كذلك، حلل المؤلف علاقات أمراء بني صالح بالدولة الإدريسية، والتي قامت على مبدأ حسن الجوار، مبينا أن أمراء نكور اعتمدوا على الزواج «السياسي» كوسيلة للتقرب من الشرفاء الحسنيين من آل البيت (ص.70). ولقد كانت الغاية من هذه المصاهرة مع الأدارسة – يذكر الكاتب – هي تلمس « **بعض الشرف لأسرة بني صالح الحاكمة، دعما لمكانتها المعنوية في أوساط القبائل**» (ص.70)، كما قد لا يخلو الأمر من دهاء سياسي واستراتيجي هادف كتعزيز النفوذ تحسبا لعبث رياح المد الشيعي الفاطمي التي بدأت تهب على المنطقة ابتداء من سنة 297 هجرية/909م (ص.72).

في **الفصل الثالث**، استعرض الباحث مختلف أطوار الصراع الفاطمي – الأموي الذي خيم على الحوض الغربي من العالم المتوسطي، وكان وبالا على إمارة نكور التي تحولت إلى قاعدة أموية أنيطت بها مهمة « **مقاومة المد الشيعي بالعدوة المغربية**» (ص.81)، سيما بعد إعلان قيام الخلافة الأموية بالأندلس سنة 316 هجرية. وبمعنى آخر، أن نكور التي كانت دائما هي صاحبة المبادرة، أصبحت تابعة لقرطبة. وهكذا، « **بقدر ما تألقت قرطبة وامتد إشعاعها إلى الآفاق البعيدة، خفت ذكر نكور وطالها الإهمال**» (ص.82). كما تكالبت عليها حملات متكررة جاءتها من كل حدب وصوب، كالحملة العبيدية ( الفاطمية ) الأولى تحت قيادة مصالة بن حبوس الذي تمكن من الدخول إلى نكور رغم استماتة أميرها سعيد بن صالح في الدفاع حتى الموت سنة 305 هجرية/917م. ثم الحملة الفاطمية الثانية التي شنها في سنة 323 هجرية « *صندل الفتى*» الذي قتل الأمير أبا أيوب إسماعيل المتحصن بقلعة « *إكري*» بتمسامان و« **وضع السيف في أكثر أصحابه**» (ص.89).

وعقب كل حملة، كان أهل نكور ينتفضون ضد الوصاية الشيعية. ففي المرة الأخيرة تمكنوا من قتل قائدها « *مرمازوا* » و« **بعثوا برأسه بعدما استأصلوا شأفة العامية، إلى الخليفة الأموي بقرطبة**» (ص.89)، فيما شبهه الكاتب ب« **رسالة عتاب على انقلابه عليهم**» لما وقف

أرجاء البلد حيث – يستطرد الكاتب –« **ما زالت عشرات المطامير محفوظة في شكلها الأصلي**» (ص.115).

لم تكن نكور « **خزانا للحبوب**» يموّن الحواضر الأندلسية وغيرها من الجهات المجاورة فحسب، بل اشتهرت كذلك في تربية المواشي والبهائم، وبالأخص الخيول (ص.117). أما الثروة الغابوية، فأكد الباحث على أنها كانت مصدرا هاما لتجارة الخشب الجيد المطلوب أساسا لصناعة السفن وتشييد البنيان، الشيء الذي يفسر – في نظره – الانحصار الشديد لهذا الغطاء الطبيعي، وظهور بقايا من الأحراش وغيرها، تشهد عن الانقراض البيئي بالمنطقة (ص.117).

بيد أن هذه " المرحلة الذهبية " من تاريخ إمارة نكور ما لبثت أن تغيرت رأسا على عقب، وذلك ابتداء من نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين، لتظهر بوادر التراجع وأعراض الاختلال على أكثر من مستوى، كاندلاع المجاعة، وتبدل وضعية الأرض التي صارت عبارة عن إقطاع تمليك لحلفاء قرطبة الجدد في العدوة المغربية، ومنهم موسى بن أبي العافية وأعقابه، زيادة عن تراجع مظاهر العمران، واللجوء إلى التحصن في القلاع ووراء الأسوار الدفاعية، عكس ما كان سائدا من قبل، من حركية عمرانية مفتوحة ومراسي تجارية نشيطة. وهي الفكرة التي حللها الدارس في **الفصل الخامس** الموسوم ب" التجارة والعمران الحضري"، حيث بدأ بتقصي أخبار المسالك والمواقع الجغرافية على طول الساحل المتوسطي المغربي. فاستنتج بأن هذا الشريط البحري مثّل إحدى أبرز المحطات البحرية في الغرب الإسلامي، موضحا أن بعض المواقع السابقة عن الإسلام، ظلت قائمة ونشيطة طوال العقود الأولى من القرن الهجري الثاني، وأهمها "مرسى تمسامان" الذي تشير المصادر العربية إلى أن صالح بن منصور قد نزل به في الافتتاح الأول. كما كان أول محطة مغربية استقبلت عبد الرحمن الداخل الأموي الهارب من المشرق في طريقه إلى الأندلس.

هنا يميز الكاتب بين "مرسى تمسامان" الذي كان يقع قرب مصب وادي أمقران في البحر المتوسط، و"مدينة تمسامان" التي كانت توجد – حسب تحريات الأستاذ الطاهري– في الداخل عند مخنق الوادي على بُعد بضعة أميال من الشط. إن ما يدعم هذا الاعتقاد، ليس فقط ما تداولته الحوليات التاريخية من أخبار مؤكدة، وإنما أيضا ما تفصح عنه أسماء المواقع والمواضع (الطوبونيميا) من دلالات معبرة ومنطقية. لكن مع وجوب تصحيح هذه الأسماء المحلية التي طالها التحريف والتصحيف. ولذلك ما فتئ الكاتب يكرر الدعوة إلى إعادة تحقيق بعض المصادر المتداولة كمسالك البكري، وتاريخ ابن خلدون، بل وضرورة إجراء تنقيبات أثرية جديدة لتكتمل الصورة

التاريخية الحقيقية. وبهذه الدعوة يلتقي الدكتور الطاهري مع الدكتور عبد الله العروي الذي ألح في كتابه "مجمل تاريخ المغرب" على وجوب اعتماد الأركيولوجيا لإعادة كتابة تاريخ المغرب.

بعد ذلك، انتقل الكاتب إلى الحديث عن ظاهرة البناء والتمدن الحضري، فميز بين معلَمَتَين. أولاهما « **رباط نكور**» الذي شيد لغرض التعبد ونشر الدعوة الإسلامية، وذلك بالقرب من الساحل، عند ملتقى نهري غيس ونكور بطرف الموضع المعروف ب« **أكدال**» الذي ذكره البكري، والذي اشتقت منه – حسب اعتقاد الطاهري – تسمية « **أجدير**» الحالية (ص.127).

وثانيهما «**سوق**» أقيمت على بعد خمسة أميال جنوبا من الساحل، وبالضبط على الضفة اليمنى لنهر نكور، ثم سرعان ما ظهرت، في الضفة المقابلة النواة الأولى لمدينة نكور التي سيقترن اسمها بالإمارة، وذلك منذ أواخر العقد الثالث وبداية الرابع من القرن الثاني الهجري على يد إدريس بن صالح ثم ابنه سعيد الذي استكمل البناء، ونقل دار الإمارة من « **تمسامان**» إلى الحاضرة الجديدة لنكور، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (ص.127).

وعلى غرار "مرسى تمساماَن" الذي كان بمثابة نافذة بحْرِية لمدينة تمساماَن، فإن " المزمة " اتخذت كميناء بحري لحاضرة نكور.

لم تكن " المزمة " – التي تألقت بعد تخريب نكور– النقطة البحرية الوحيدة الرابطة بين العدوتين المغربية والأندلسية، وإنما أورد الكاتب مراسي كثيرة. ففي ناحية الشرق من المزمة، كان هناك مرسى تمساماَن الآنف الذكر، ثم مرسى كرط، ويليه "مرسى مليلية "، فمرسى ملوية. أما في جهة الغرب، فتتحدث المصادر عن "مرسى بقوية " (بوزكور أو بوسكور حسب النطق المحلي)، ومرسى بادس ومرسى يلش أو ياليش كما شاع في المصادر المتأخرة، والمعروف ب" قوس قزح"، وهي ترجمة للتسمية الإسبانية Cala Iris، بينما ما زال السكان المحليون يطلقون عليه اسم « **سيدي يليش**» (ص.145).

إن كثافة هذه المراسي وديناميكيتها التجارية، جعلت الكاتب يدعو إلى ضرورة «**التحفظ من الفكرة الشائعة في جزء هام من الدراسات الأوربية حول النشاط البحري العربي الإسلامي الوسيط إذ عادة ما دأبت على نعته بالقرصنة البحرية**» (ص.140). ويتضح من خلال دراسة نكور في عصرها الذهبي، أنها لعبت دورا رياديا في التجارة الدولية، سواء في اتجاه الشرق صوب إفريقية وما وراءها، أو بين الشمال والجنوب عبر طريق « **سجلماسة – نكور – المزمة**» الرابطة بين بلاد السودان جنوبا، وبلاد الأندلس وباقي أوربا شمالا. وآية ذلك، الإشارات الواردة في

مضمرات المصادر، وتنوع القطع النقدية التي عُثِر عليها بالمنطقة (نقود أغلبية وفاطمية، بالإضافة إلى دراهم فضية نكورية منتشرة...، ص147).

وأخيرا تناول **الفصل السادس** والأخير مسألة النسيج الاجتماعي ومظاهر الحياة الثقافية. وقد عالجها الكاتب في نقطتين:

- النقطة الأولى، حاول من خلالها إبراز ملامح النظام الاجتماعي بالمنطقة. فأكد على أن الوحدات القبلية التي كان يقوم عليها هذا النظام لم تكن واضحة المعالم، ولا ثابتة في المجال والزمان، وإنما تعرضت للتداخل والخلط والتشرذم في صيرورة تختفي فيها « **عدد من التركيبات العشائرية أو تضمحل وتنقرض في أكثر من محطة على مدار تاريخ المغرب الوسيط**» (ص.ص. 167-168)، علاوة على « **ذوبان الأعراف واختلال الطوائف تحت وقع التطور الاقتصادي**» مما أفضى إلى ظهور « **أشكال ونظم أخرى للانتساب والهوية**» (ص.168).

ولم يفت الكاتب في هذا المضمار أن يسجل أن الاهتمام بتواريخ القبائل والعشائر ليس من ابتكار الدراسات الأنتربولوجية والسوسيولوجية الحديثة، كما يعتقد البعض، وإنما للقدماء فيها كتب ومصنفات تحتوي على « **ترسانة من المصطلحات والأدوات المفهومية الكفيلة بفتح الأغلاق المرتبطة بأكثر من زاوية في الموضوع**» (ص.168). من هذه المصطلحات مثلا:

« **الأسر والعصائب**» و« **البيوت والفصائل**» و« **القبائل والعمائر والبطون والأفخاذ**» (ص.168)، وغيرها من المصطلحات الدالة على اللفوف والتشرذم القبلي مثل « **التشعب**» و« **التعزب**» (ص.169).

بعد هذه اللمحة النظرية، حاول الكاتب أن يعيد بناء صورة الخريطة الأولى التي ارتكزت عليها إمارة بني صالح. فأكد مرة أخرى بأن نفزة كانت بمثابة التجمع القبلي الأول الذي عمر بلاد نكور « **منذ البدايات الأولى لاندماجها في دار الإسلام إلى مستهل القرن الرابع الهجري**» (ص.170). ولا يستبعد الكاتب أن تكون لنفزة فروع، وربما أصول في إفريقية (تونس)، أو ما وراءها من أحواز طرابلس ترجع إلى عهود ما قبل الإسلام.

ومن بين بطون نفزة نكور التي تحدث عنها الكاتب هناك « **بني ورياغل وكزناية وبني يصليتن**». فإذا كان هذا البطن الأخير قد اختفى نهائيا بعدما تقمص اسم مكان فأصبح يقال له قبيلة تمسامان، فإن بني ورياغل وكزناية ما زالتا تحتفظان بنفس تسميتهما وتستوطنان ذات المنطقة (ص.175).

ومن بين الفروع النفزاوية التي وقع إهمالها أكثر من طرف المصادر التاريخية، يذكر الكاتب « **بني يطوفت**»، أو أيضا « **بني بطفت**»، القبيلة التي تستوطن أحواز بادس (ص.177)، إلى غير ذلك من الفروع النفزية الصنهاجية والزناتية والغمارية التي اندمجت مبكرا في إمارة نكور.

على الرغم من هذا الزخم القبلي الذي يفرض نفسه على الدارس، فإن الكاتب لا يسقط في التحليل العرقي أو القبلي المحض، وإنما يتجاوزه ليبرز دور العامل الاقتصادي والاجتماعي في رسم التشكيلة الاجتماعية بحاضرة نكور ومرسى المزمة « **وفق تراتب طبقي**»، حيث ميز بين مفهومي « **الخاصة**» و« **العامة**» باعتبارهما، في نظره، طبقتين اجتماعيتين تبلورتا استنادا إلى موقعهما من الثروة، ودورهما في النشاط الاقتصادي (ص.193).

وعلى غرار دراساته السابقة عن عامة قرطبة وعامة إشبيلية، تحدث الدكتور الطاهري عن عامة نكور المكونة أساسا « **من السوقة والحرفيين الذين قدموا أولى صور الصراع الاجتماعي الحضري ذي العمق الطبقي بالغرب الإسلامي**» (ص.194). دون أن ينسى ذكر مكانة اليهود الذين كان لهم في نكور باع طويل في المعاملات التجارية، كجلب عبيد « **الصقالبة الفصيان**» من الأندلس. ولا أدل على الشأن الكبير الذي بلغه اليهود في نكور، من تسمية أحد أبواب السور المحيط بالمدينة باسم « **باب اليهود**».

وابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري، وطوال القرون اللاحقة، تغيرت الخريطة الإثنية تغيرا جذريا، حيث تفككت الوحدات المكونة لنفزة لتتصهر في قالب قبلي جديد أصبح منذ ذلك التاريخ يدعى « **بلاد بطوية**» (ص.201). وهو الاسم الذي سيختفي بدوره تدريجيا ليحل محله مصطلح « **الريف**» الذي اكتسى، بالإضافة إلى دلالته الجغرافية، حمولة تاريخية ميزته عن باقي الأقاليم في الشمال المغربي.

- النقطة الثانية كانت بمثابة محاولة من طرف الكاتب لترميم حلقة مفقودة من جذور تاريخ الفكر بالمغرب الأقصى، والغرب الإسلامي عموما،والتي تصادف القرون الثلاثة الهجرية الأولى من تاريخ إمارة بني صالح. وذلك بانتشال ما يمكن انتشاله من الآثار من طي النسيان. فأكد الباحث على أن نكور كان لها قصب السبق في مذهب أهل الجماعة والسنة، والاعتناء بالمذهب المالكي. كما استبحر مشايخها في علوم الوثائق والشروط واللغة والآداب، وخاصة الشعر الذي « **كانت له سوق نافقة ببلاد نكور التي تألقت منذ وقت مبكر في مجال الإبداع الفني والأدبي**» (ص.212).

وبما أن الجذور الأولى للأدب المغربي قد تبلورت في نكور قبل أن تنتقل آثاره إلى الأندلس، فإن الكاتب يرى بأن الوقت قد حان لإعادة النظر في ما اصطلح عليه بالأدب الأندلسي، ذلك أن معظم رواده هاجروا من نكور إلى العدوة الأندلسية إما طوعا أو قسرا.(ص.213)

وفي هذا الإطار أيضا، يسوق المؤلف أكثر من دليل على براعة أهل نكور في علوم الحساب والفلاحة واستخراج المياه الباطنية. بل أكثر من ذلك، فإن فنون الموسيقى بلغت شأوا عظيما حتى أن أمهر الموسيقيين والمطربين كانوا ينتقلون من نكور إلى قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية.

وبشكل مثير تمكن الباحث من إماطة اللثام عن أحد منابع تراثنا الشعبي الذي ما زال يقاوم من أجل الحفاظ على البقاء بعدما عرف على مر العصور « **مصيرا مؤلما**» (ص.216)، وذلك من جراء الازدراء من طرف الكتاب القدامى، والرفض من قبل الخاصة. ويتعلق الأمر بالشعر الأمازيغي المسمى محليا " إزران " الذي تتغنى به خاصة الفتيات، مصحوبا بالرقص على إيقاع الدف و" القصبة " أو الناي، في حلقات ليلية في مختلف الحفلات والأعراس، والمشهور محليا بغناء « **رَاللِّي بُويَا** »[2] أو « **أرَايَسْ**».

يقول الدكتور الطاهري في هذا الصدد: « **والغريب في الأمر أن التقصير بالليل وفي هوز الدار بقرض الشعر باللغة المحلية ارتجالا مصحوبا بالرقص والدك والزمر، بمشاركة الأحداث والنساء من أهلي العريس والعروس، قد اخترق قرونا من الزمن ليستمر إلى اليوم مظهرا بارزا في تقاليد أهل نكور والأحواز، ومما يثير الانتباه أن المشاداة بالكلام الساقط الذي قد ينتهي بالعراك والتدْمية، ما زال هو الآخر من ضمن الأمور المألوفة في مثل هذه التحليقة المتعارفة**» (ص.217).

وفي ختام هذه المراجعة السريعة، لا يسعنا إلا أن ننوه بهذه الدراسة الجادة والجديدة، والتي مهما حاولنا أن نقرب مضمونها من القارئ، فإن ذلك لن يغنيه عن الرجوع إلى هذا الكتاب القيم.

---

(2) – تحتاج الآهازيج الشعبية بالريف إلى دراسة علمية، بدل الاكتفاء بتأويلات هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة. وربما أن الأصل في تسمية هذا الفن هو « أراللي يراللي بويا » (Aral-li iaral-li buia) كما سجل ذلك المراقب الإسباني " إميليو بلانكو إيزاكا " Emilio Blanco IZAGA، وليس كما يشاع خطا : « للاّبويا »، وكأن الأمر يتعلق بمناجاة أو رثاء امرأة !

انظر :

**Emilio Blanco IZAGA**, "*Las dansas Rifeñas*" , AFRICA, 1946, n° 56-57, Agos. Sept, p.70.

وتجدر الإشارة كذلك، إلى أن هذا الصنف من الدراسة التي أنجزها الدكتور الطاهري والتي تعنى بأصول التأسيس وتأسيس الأصول إن جاز التعبير، يكون الشغل الشاغل لصاحبها هو استنطاق المسكوت عنه في مضمرات المادة المصدرية، وانتشال جوانب مهملة من تراثنا التاريخي، القمينة بمراجعة كثير من المسلمات المغلوطة.

عندما يلتزم الباحث بهذا الخط المنهجي المحفوف بالمنزلقات، فإنه يحاول أن يتقيد في تحليلاته وحفرياته بما تفصح عنه المادة المنتشلة، وذلك تجنبا لمخاطر التعميم، والسقوط في الخطاب التأملي الخالص.

قد يكون هذا الحرص المنهجي، هو الذي جعل الأستاذ أحمد الطاهري يتحاشى الإطناب والتفاصيل في بعض القضايا، إنما اكتفى في معظم الأحيان بلفت أنظار الدارسين إلى بعض الجوانب المنسية، تاركا لهم مجال الخوض في جزئياتها. من ذلك مثلا، الطبيعة القانونية لأرض نكور. ففي البداية ذكر الكاتب أنها انضمت إلى دار الإسلام « **طلعا**» واختيارا لا « **عنوة**» (ص.32)، لكنه يعود، في مكان لاحق، فيؤكد أنها تنتمي إلى الأراضي « **المستغلصة**» التي ينطبق عليها حكم أحد العلماء (الونشريسي) الذي أشار إلى أن بعض أراضي المغرب الأقصى « **أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة**» (ص.105).

كذلك الشأن بالنسبة للأصول القبلية التي شكلت القاعدة البشرية الأولية التي تأسست عليها إمارة بني صالح، حيث حلل الكاتب بعناية الأخبار المتعلقة بالبطون القبلية الثلاثة « **بني وريا غل وكزناية وبني يعلبتن**»، في حين ترك الحبل على الغارب فيما يخص أخبار " بقوية " الأولى، وخاصة مدى إسهامها في بناء النواة الأولى لأمارة بني صالح. فدور " إبقُّوين " ظل غامضا ولم يتضح نسبيا، إلا عند الإشارة إلى اتساع الإمارة غربا. مع أن بقوية (بقيوة) تعد من أقدم الأسماء المنصوص عليها في المصادر سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده. فهل يعني اقتصار البكري على ذكر « مرسى بقوية» أن الأمر يتعلق بقبيلة كانت في ذلك الوقت قد آلت إلى التلاشي والانكماش؟ أم أن الأمر، على العكس من ذلك، يتعلق بكتلة قبلية صنهاجية قائمة بذاتها استأثرت منذ الافتتاح الأول، بالمجال الممتد من تخوم حوض نكور إلى أحواز بادس وما جاورها من ديار بني يطفت؟

وإذا كان الأستاذ الطاهري قد أفادنا كثيرا في التعرف على أصل ومعنى كثير من الأسماء المحلية الخاصة بالمواقع والأعلام، فإنه نبه أحيانا، إلى أن بعضها يبقى مجرد قراءة ممكنة و« **لا تسمو إلى مستوى الحقيقة**» (ص.137، هامش رقم 70)، كقوله مثلا أن اسم « **المزمة**» الذي

سيقترن بمرسى نكور، ينسب للجزيرة الصغيرة الواقعة داخل البحر قبالة المرسى المذكور، أي حجرة نكور ! (ص.135)، في حين قد يكون العكس صحيحا.

أما الافتراض الذي قدمه الباحث بشأن أصل تسمية منطقة أجدير القريبة من مدينة الحسيمة الحالية، باعتبار التسمية اشتقت من كلمة " أكدال " التي أوردها البكري، فيبقى افتراضا مقبولا. لكن هل يصح أن نطبق نفس التأويل فيما يخص وجود أسماء مشابهة في المناطق المجاورة، كأجدير تمسامان أو أجدير كزناية؟ علما بأن كلمة " أجدير "، أو أجدال / أكدال وأكادير هي من أسماء الأماكن الأمازيغية التي لها معنى العلو والارتفاع، أو صفة الحصن والمنعة (*). ولذلك نرجح أن تكون تسمية أجدير بني ورياغل مشتقة من لفظة " ثْجَذِيرْثْ "، أي تصغير لأجدير، وهي اسم مكان يقع بمرتفعات نفس القبيلة. كما تجدر الإشارة إلى أن مفردة أجدير ترد مرسومة في النصوص الإسبانية الحديثة على شكل " Axdir ".

من جهة أخرى، هناك بعض الأسماء في حاجة إلى الكشف عن أصولها الايتيمولوجية، مثل " نكور" و" غيس ". كما أن اسم أحد أبواب السور الذي كان يحيط بحاضرة نكور، وهو " باب سليمان " بقي ملغزا. فهل لا يمكن أن نفترض أنه تحريف لكلمة " تمسامان "، فصارت " سليمان " تماما كما حصل لبقية الأسماء؟ أم أن هذا الاسم يحيل على سليمان بن عبد الله، أحد دعاة الحركة العلوية الزيدية بالمغرب قبل مجيء إدريس الأول؟

ولم تكن إشارة البكري إلى أن نهري غيس ونكور، كانا يلتقيان قبل مصبهما في البحر (ص.127)، لتمر دون أن تثير انتباه الأستاذ الطاهري الذي اعتبر ذلك مؤشرا على تحول بيئي كبير بالمنطقة [3]. وهذا ما سيثير، لا محالة، حفيظة الجغرافيين، وربما يدفعهم إلى تعميق البحث بخصوص هذه النقطة.

---

(*) – **أحمد التوفيق**، " *حول معنى اسم طنجة* "، ضمن كتاب : طنجة في التاريخ المعاصر 1800 – 1956، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ومدرسة فهد العليا للترجمة بطنجة، الرباط، 1991، ص. 37.

[3] – انظر أيضا، **أحمد الطاهري**، "*بواكير العمران الحضري ببلاد نكور بين الأركيولوجيا والتوثيق*"، مجلة حوليات الريف، العدد الأول، السنة الأولى، 1998، ص.11، هامش رقم 13.

# شخصيات

# و

# أعلام

﴿ صورة المرحوم : دادي بن مسعود ﴾

# دَادِي بن مسعود

د. محمد أونيى
الحسيمة

ولد دادي بن مسعود بُوكَر، بقرية تَافَنْسَا، بقبيلة بقوية، وبها توفي ودفن بضريح سيدي عبد الله أُموسى.

كان سي دادي واحدا من أبرز الأعيان الذين تمتعوا بنفوذ قوي داخل جماعة تَافَنْسَا التابعة لفخذ إزَمُّورَنْ، أحد الأرباع الثلاثة المكونة لقبيلة بَقُّويَة، أو بَقِّيوَة، كما هو شائع.

اشتهر سّي دادي بن مسعود بتجارة المساحلة و" التهريب " كجُل أعيان الفِرَق القبلية الريفية الساحلية في عهده، والذين كانوا على اتصال – إن بصفة دائمة أو متقطعة – بإسبانيّي حجرة نكور ( Peñon de Al Hucemas )، وبادس ( Peñon de Velez )، مما أكسبهم ثروة وجاها، وجعلهم محط اهتمام من قبل دوائر سياسة الاستقطاب والتغلغل السلمي الإسبانية، بل وحتى الفرنسية، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولا غرو، فقد كان اسم " دادي " من بين أبرز الأسماء المحلية في الريف التي تتداولها المراسلات الدبلوماسية الأجنبية، وخاصة منها تلك المتعلقة بملف ما سمي ب " القرصنة الريفية " والمنسوبة، تحديدا، لإبَقُّويَنْ.

دخل سي دادي في " خدمة " فرنسا. فكان لا يتوانى عن التردد على قنصلها بتطوان، ومفوضيتها بطنجة، سيما لمّا تدهورت علاقة القبيلة مع إسبانيا، وتعقدت أكثر عندما لجأ رجال بقيوة إلى حجز الرهائن ذوي الجنسيات الأوربية المختلفة، واشترطوا، مقابل إطلاق سراحهم، الإفراج عن إخوانهم البقيويين الذين أسرتهم الحاميات الإسبانية، بل وحتى الذين سَجَنهم المخزن بطنجة.

في أكتوبر سنة 1897، سافر دادي بن مسعود على متن سفينة أوربية جاءت خصيصا لنقله إلى طنجة للتفاوض في النازلة. سافر دادي ومعه رسالة تضمنت من بين ما تضمنته، " مطالب بقيوة "، كتبها أحد الرهائن من أصل برتغالي. فقد أبرق من طنجة، النائب الأول المكلف بأشغال سفارة فرنسا بالمغرب، السيد " الريفو " A. RIFFAULT ، إلى وزارة خارجية بلده بتاريخ 10 أكتوبر 1897 قائلا :

**« وجهت ال " كُوسماو " صباح اليوم حاملة دادي بطلب من ممثلي إيطاليا والبرتغال. إن الريفيين لعنودون اليوم أكثر من قبل في رفضهم للمال. وقد كتب القائد البرتغالي رسالة**

**الأسارى الجماعية يصرح فيها بأن بقيوة يريدون إخوانهم وليس المال، ويرجونه أن يتمشى على هذا المعنى.»**

انتهت هذه القضية بتبادل الأسرى بين الجانبين. لكن ذلك لم يمنع المخزن المركزي من تنفيذ حملته " التأديبية " ضد من تسميهم الوثائق المخزنية ب " فُسّاد " بقيوة لمعاقبة هذه الأخيرة ظاهرا، ولإفشال التدخل الفرنسي في هذه النقطة المغربية باطنا.

مع مطلع القرن العشرين، التحق سي دادي بباقي " الأوليغارشيين " المحليين لخدمة مصالح إسبانيا في المنطقة. فكان هؤلاء يقبلون، على الرغم من كونهم أعيانا، المعاش الشهري البالغ 75 بسيطة على حد تعبير جرمان عياش.

هكذا، أصبح سي دادي موضع ثقة الحاكم العسكري لجزيرة نكور. ولا أدل على ذلك من موافقة هذا الأخير على خروج ابنه الطفل " إنريكي اركيس " Enrique ARQUES – الذي سيصبح مؤرخا وكاتبا وصحفيا مرموقا – صحبة دادي وشخصيات محلية أخرى، بالإضافة إلى الجغرافي الفرنسي " دِلْبْرِيلْ " Delbrel، إلى قبيلة بقوية في رحلة استكشافية للمنطقة، في غضون سنة 1907.

لقد وصف " إنريكي" – فيما بعد – في كتاب : " Tres Sultanes a la porfia de un reino " مظاهر الأبهة والثراء عند سي دادي في ذلك الوقت، في مقطع دال، جاء فيه :

**«هذه الليلة سنتعشى في دار سي دادي وفيها سنبات ... نستريح في هدوء في هذا المنزل الذي تتوفر فيه كل وسائل الرفاهية الممكنة ...هنا في هذه القاعة الفسيحة يتجلى بذخ رجل مُثْرٍ كبير يريد أن يتفوق على خشونة الآخرين ... سي دادي ينعم في لباسه وفراشه نعم التطوانيين... شخصيته ومنزله يكشفان عن رغبة في التفوق على الآخرين ... وله أيضا في تطوان منزل كبير وزوجة تنتمي إلى أكبر العائلات ... وربما كانت هذه الزوجة سبب التغيير الذي طرأ على سي دادي بدءا من اللباس وانتهاء باللحية ... يضع على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة على طربوش أحمر، استبدل اللباس الريفي بقفطان فاخر وسلهام أزرق، والجومية بالمسدس، وفي البيت استبدل الحصر بالزرابي والستائر الحريرية، وفراش النوم المصنوع من القصب بالناموسية ذات التاج المذهب، والصينية النحاسية بالصينية الفضية. كما أنه هذّب حركاته وأخضعها لأسلوبه المتحضر الجديد، يعبر عن أفكاره بالعربية الصافية دون أن ينسى لهجته الريفية.»**

وقبيل اندلاع الحرب الريفية، وفي إطار الحلول السلمية التفاوضية، استدعى "موراليس" Morales عدة أعيان من القبائل لاجتماع سري في مدشر بُومَجَّان. وكان من بين الشخصيات

الحاضرة، سي دادي المترجم له، وذلك في محاولة من مورايس، لتكوين "حزب" موالي للإسبان مقابل مائة دُورُو إسبانية لكل شخص، كمبلغ للانطلاق في تنفيذ المهمة.

وعندما اندلعت شرارة المقاومة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1921، انحازت بقوية إلى صف آيث ورياغل، فعاد سي دادي من تطوان ليلتحق بالمقاومة، كما فعل ابن قبيلته الرايس مسعود بن علال الملقب ب " سيبرا " (Cevera )، والذي كلفه ابن عبد الكريم بشراء السلاح من أوربا عبر طنجة، حيث كان يقيم شريكه عبد الكريم ولد الحاج علي، من مدشر إِتْسُولِيِّنْ التابع لإزمُّورن.

لقد كان " سبيرا " – الذي سُمّي كذلك لشبهه الكبير بالأميرال الإسباني " Cervera " – ولُوعا بشؤون البحر والتجارة الساحلية. ولا غرو فقد كان أصغر الذين أُلقي عليهم القبض سنة 1897 بحجرة نكور (انظر هذا العدد، ص.61، هامش رقم 3). اشترى سنة 1919 مركبا جعل له علما إسبانيا لتسهيل رحلاته البحرية، ثم توفي مقتولا سنة 1925.

أما عن حقيقة الأدوار التي قام بها سي دادي إبان المقاومة المغربية بالريف، فما زالت مجهولة. بيد أنه من المؤكد لدينا أن الزعيم الريفي كلفه بمهمة سياسية كبيرة في خضم المفاوضات التي كانت، سنة 1923 ، جارية على قدم وساق بين القيادة الريفية وإدارة الحماية الفرنسية، بشأن الخلاف حول نهر ورغة الذي كان يرسم الحدود بين المنطقة الفرنسية والمنطقة الإسبانية حسب معاهدة الحماية لسنة 1912.

عُين سي دادي، إلى جانب مبعوثين سريين آخرين، لم يكن لأحدهم علم بالآخر، للذهاب إلى الرباط قصد مقابلة المقيم العام، والاتصال بجلالة السلطان محمد بن يوسف. لكن المقيم العام الفرنسي ، المارشال " ليوطي " حال دون تحقيق هذه المهمة المسندة لـ" سي دادي".

ففي رسالة له بتاريخ 30 أبريل 1923، كتب " ليوطي" إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، مخبرا بأنه وصل إلى « **الرباط قادما من طنجة وتطوان المسمى دادي بن مسعود من أصل بقيوة الريف، والذي طلب رؤيتي والتمس مقابلة السلطان، مدعيا أنه كلف بمهمة لدى صاحب الجلالة، من طرف عبد الكريم** ...». ثم ذكر المقيم الفرنسي مختلف التبريرات التي جعلته يُفشل مهمة سي دادي، منها أنه مبعوث سري من طرف دولة أوربية ( لعله يقصد إسبانيا ) تريد معرفة فحوى المفاوضات الجارية، وكذا نوايا فرنسا إزاء عبد الكريم.

بعد انتهاء حرب الريف التحريرية، وبسط إسبانيا سيطرتها على كل شمال المغرب، أصبح سي دادي، على غرار جل أعيان القبائل، قائدا تابعا لسلك إدارة الحماية الإسبانية، إلى غاية وفاته سنة 1933.

## المصادر والمراجع المعتمدة :

- **محمد أزرقان**، *الظل الوريف في محاربة الريف*، ص.5، (مخطوط دونه أحمد سكيرج).
- **مصطفى بوشعراء**، *التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن وثائقهم*، ج.1، عبد الله بنسعيد، حياته ومراسلاته، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991، وثيقة رقم 24، ص. 92.
- **جرمان عياش**، *أصول حرب الريف*، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، ص.158.
- **محمد خرشيش**، *المقاومة الريفية*، سلسة شراع، الكتاب رقم 22، دجنبر 1997، ص. 15 وما بعدها.
- **د. آمنه اللوه**، "*حول استراتيجية النبأ عند المغاربة*"، مجلة البحث العلمي، العدد 42، السنة 1994-1995، ص.ص. 149-150.

- **Hubert Jacques**, *l'Aventure rifaine et ses dessous politiques*, Editions Bossard, Paris, 1927, p.26.
- **Angelo GHIRELLI**, " *Monografía de la Kabila de Bokoia*" , in. Archivos del Instituto de estudios africanos, 1955, año VIII, n° 32.
- **Juan PANDO**, *Historia Secreta de Annual*, 3° Edición, Madrid, Marzo de 1999, p. 134.

# وثائـــــق ونصوص

## تـــقـــديـــم

نظرا لما حظي به باب " **نصوص ووثائق** " من **مجلة حوليات الريف** في عددها الأول، من تأييد وتحبيذ من قبل القراء، ولا سيما الأساتذة الباحثين والطلبة الجامعيين، فإننا عمدنا، في هذا العدد الثاني، إلى إغنائه بمجموعة من الوثـائق الجديدة، بعضها مصحوبة بتحقيق أو تعليق، وبعضها الآخر قدمت كما هي، حفاظا على نصها الأصلي، دون تعديـــل أو تصحيح.

**المجموعة الوثائقية الأولى** من هذا الملف، تتكون من عينات قمنا بفرزها من بين عشرات الوثائق المنســـوخة عن أصولها المخطوطة، والتي توصلت بها المجلة من عند الأستاذ أحمد الحسوني، المحامي بالحسيمة، أو من لدن السـيد محمد أشهبار، الأستاذ بنفس المدينة. ونورد هنا هذه العينات تباعا، بحيث تبرز أهمية الملكية العقارية لدى ورثة أبي علي الحاج حسون، شيخ زاوية أدوز ببقيوة ( إقليم الحسيمة )، وما حظيت به هذه المؤسسة من هبات و "إقطاعات" مخزنيـــة منذ الفترة السعدية، وذلك اعتبارا لمكانتها ودورها دينيا وسياسيا.

**المجموعة الوثائقية الثانية** : وافانا بها الزميل الدكتور مصطفى الغديري، الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة، وهي تتعلق بحدود مليلية المحتلة (القرن 19). وقد تفضل الباحث بتحقيقها بما يغنينا عن كـل تعليق.

**المجموعة الثالثة** : اخترناها نحن، إما انطلاقا من بعض الكتب النادرة، أو مما نسخناه سابقا من أرشيف بعـض المكتبات العامة الوطنية.

- الموضوع الأول عبارة عن نص دال للحسن الوزان (القرن 16)، يصف فيه أهمية البحر في تاريخ مدينة بـادس المندثرة.

- الموضوع الثاني عبارة عن مراسلات مخزنية تعود إلى النصف الثاني من القرن 19 تتعلق بمســـألة حراسـة السواحل المغربية بالريف، وبالأخص قضية " التهريب " و" القرصنة " التي حيكت ضدها كثير من الدسائس الأجنبيـــة. والهدف من هذه الوثائق " البحرية "، هو أن يقف القارئ على أهم المنعطفات الحاسمة التي عرفتها هاتان النازلتان، أقصد التهريب وما سمي بالقرصنة. وكذا ردود فعل الدول الأوربية إزاءهما، وطبيعة الحلول العملية التـــي حـاولت السـلطة المركزية المغربية اقتراحها أو تطبيقها، بدل الاكتفاء بإلقاء اللوم، كل اللوم، على القبائل الريفية التي شـــكل، ولا يـــزال، البحر جزءا من كيانها، ومجالا حيويا في حياتها.

**المجموعة الرابعة** : عبارة عن شهادات حية رواها أصحابها، انطلاقا من تجارب شخصية لها ارتبـــاط وثيـــق بالبحر وشؤونه، وتتراوح بين الأحداث الجسام من حجم حرب الريف، وبين المعيش اليومي المألوف، أو حسب المـــؤرخ الفرنسي فرناند بروديل، الزمن الطويل والزمن القصير. إن هذه " الوثائق " الشفوية ما كانت لتصلنا لولا التفات الأســـتاذ المرحوم الرايس محمد بودرة الذي أجرى عينات من الاستجوابات مع الذين أدركهم من رجالات المقاومة الريفية بقيـــادة محمد بن عبد الكريم الخطابي. فكان الأستاذ، رحمة الله عليه، يحرص على تدوين كل شاذة وفاذة يدلـــي بـــها الشـــخص المُستجوب. حرص تحول إلى سر ورثه الابن عن أبيه، حيث قام الأستاذ عبد الحميد الزايس، أحد زملائنـــا فـــي هيئـــة المجلة، بالحفاظ على هذه النصوص، ومراجعتها. ومنها اخترنا، للقراء، ما يتصل بمحور العدد.

فإلى هؤلاء جميعا، أساتذة وباحثين، ممن أغنوا هذا الملف بأبحاثهم، أو أثروه بوثائقهم، تتوجـــه، هيئـــة مجلـــة **حوليات الريف**، بجزيل الشكر.

**رئيس التحرير**

## المجموعة الأولى:

### أ) وثائق الأستاذ أحمد الحسوني، المحامي بمدينة الحسيمة :

الوثيقة الأولى :

**« الحمد لله يعرف شهوده الموضوعة اسماءهم عقب تاريخه معرفة كافية ويشهدون مع ذلك بأن حفائد سيدي ابراهيم بن عبد العليم بن الولي الصالح الزكي الناصح الشيخ البركة أبي علي حسون وحفيد ابي ( كـــذا ) سيدي عيسى بن أبي سالم سيدي ابراهيم بن الحسن سيدي علي بن عيسى السيد أحمد بن علي بن يعقوب بن عيسى بن يعقوب بن محمد بن مَحَمد بن عيسى بن يعقوب بن مَحمد ابراهيم بن عبد العليم بن الشيخ البركة أبي علي حسون المذكور أعلاه سيدي علي بن عمر قاضي بادس، وابن عمه مَحمَد بن سعيد هما ( ... ) سيدي عيسى بن ابراهيم المذكور أعلاه كلاهما نسبا واحدا ويرثا بعضهم بعضا. وأما السيد أحمد العياشي هو من أولاد السيد عيسى بن ابراهيم بن عبد العليم بن الشيخ البركة ويقسمان السيد ابراهيم المذكور وأخيه عيسى المذكور إنصافا فيما بينهما لا فضل لأحدهما على الآخر بصدقة جدهم، ومن دعا بخير هذه الدعوة من أهل أدُوزْ فدعوته باطلة. شهد به من أعرفهم وتحقق بمعرفتهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وتحقق بيقينهم في شهر الله ربيع الأول عام عشرة سنة بعد الألف.**

**وشهد بذلك سيدي محمد بن مَحمد الخطيب البادسي** ( ويليه توقيعان غير مقروءين )، ثم عبارة : **اعلم بثبوته** ( وتوقيع ثالث غير مقروء).

يحمل الإشهاد بمطابقة هذه النسخة لأصلها، طابع السلطة البلدية المحلية المعنية، وإمضـــاء المساعد الثالث، نيابة عن رئيس المجلس البلدي بالحسيمة، بتارخ 27 فبراير 1985.

الوثيقة الثانية :

« الحمد لله، نسخة رسم واحد والأعمال بالاعلامين عقب الثبوت نصه الحمد لله شهداء هذا الرسم الموضوعة أسماءهم عقب تاريخه لم يزالوا يسمعون سماعا فاشيا ذائعا مستفيضا على ألسنة السادات أهل العدل وغيرهم منذ أن ( كذا ) بعقولهم وميزوا بأذهانهم وأن الشقيقين السيد عيسى والسيد عبد العزيز ابني ابراهيم الأدوزي البكري البقوي حبسا معا جميع ما يعرف لهما من الأصول الثابتة لهما بقبيلة بقيوة جبلا ووطاء عامر وغامر سقويا وبعليا بياضا ومغترسا ودورا وجميع ما يطلق عليه اسم ملك وله خطر وبال وذلك على أولادهما الذكور فقط دون الإناث وعلى أعقاب أولادهما، فإذا انقرض الأب رجع الابن مقامه ولا يدخل الابن مع الآباء فإذا انقرضوا عن آخرهم ولم يبق منهم عقب فيكون ذلك حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا على جميع زاوية أدوز لا يبدل ذلك عن حاله ولا يغير عن سبيله حتى يرثه قائما على أصوله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. كما يعلمون ويتحققون أن الأراضي المحبسة لم تزل تحاز بما تحاز به الأحباس وتحترم بحرمتها بحيث أنه لم يقع فيها ولا في بعضها فوت بيع ولا هبة ولا تفويت إلى الآن، وحتى الآن يحققون ذلك ولا يشكون فيه وقيدوا بذلك شهادتهم مسئولة منهم في أوائل رمضان المعظم من عام إحدى وتسعين وألف سنة. المكرم الحسين بن علي البقوي ومحمد بن عبد العزيز البقوي، الطالب يحيى بن عبد القادر بن بكور الأدوزي، عبد العزيز بن سعيد أمغار الأدوزي، محمد بن محمد بويحيى الأدوزي، ابراهيم بن عيسى الأدوزي، سليمان بن علي البقوي، المرابط محمد بن محمد البكري الأدوزي، عبد الله بن علي البقوي الحرشوني، ابراهيم بن عيسى بوتغرت، أحمد بن عبد الله البقوي، محمد بن الحاج مسعود العبد الرحمان، يحيى بن بكور العبد الرحمان، الريس عيسى بن يوسف البقوي، عبد الله بن عبد الرحمان البوزكري، سعيد بن عيسى بن يوسف البقوي، عبد الله بن علي البوذيري، الريس محمد بن علي البقوي، عبد الله بن أبي بكر الريفي ومحمد بن عمر البنصري، الحاج أحمد بن عيسى صبور الأدوزي، محمد بن أحمد العبد الرحمان، علي بن أحمد العبد الرحمان، علي بن بخلف العبد الرحمان، عبد الكريم بن عبد الرحمان البقوي. شهدوا لدى من قدم لذلك بموجبه فثبت. الحمد لله أشهد الفقيه الأجل المدرس العلامة البركة الأعدل القاضي بثغر تطاون وحوزه وهو محمد بن سعيد بن قريش أعزه الله تعالى وحرسه، بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام بصحته عنده واكتفائه لديه بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب به ذلك من ذكر وفي التاريخ أعلاه محمد بوسجادة وفقه الله بمنه ومحمد الديماني وفقه الله ( كذا ) وبعده الحمد لله وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، اعلم بثبوته عبد الله تعالى محمد بن سعيد بن قريش وفقه

الله بمنه وبعده الحمد لله اعلم بأعماله عبد ربه عبد الكريم بن سعيد بن طريفة وفقه الله بمنه وبعده الحمد لله اعلم بأعمال الاعلامين عبد الله تعالى محمد بن محمد بن قريش وفقه الله بمنه قابلها بأصلها بمماثلته ( واسلم ) واشهد بها الفقيه الأجل العالم العلامة المدرس الفذ نائب قاضي تطاون وهو عبد الله بن سعيد أعزه الله تعالى بمنه وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام وبصحة المقابلة والمماثلة وثبوتها لديه بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر. في منسلخ ذي الحجة متم أربعين ومائة وألف. محمد بن محمد بن الطاهر بن طريفة وفقه الله بمنه آمين، ومحمد بن المسمى بن أحمد وبخط من يجب. الحمد لله اعلم بثبوته نائب قاضي تطوان وهو عبد الله بن سعيد، قبلت من أصلها مماثلة حرفا حرفا من غير زيادة ولا نقصان واشهد بها الفقيه الأجل وهو ( توقيع غير مقروء ) بصحة المقابلة والمماثلة عنده وثبوته لديه بواجبه تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر. في شهر الله صفر الخير عام إحدى عشر ومائتين والف.»

الوثيقة الثالثة :

**« الحمد لله نسخة رسم واحد والثبوت عقبه نصه الحمد لله أشهدوا على أنفسهم لدى واضع اسمه عقب تاريخه أعيان حفائد الشيخ الولي العالم الزاهد الناسك المبرّك به في الحياة وبعد الممات السيد الحاج علي بوحسون نفعنا الله ببركاته آمين، منهم سيدي علي بن مَحمد من حومة توريرت وسيدي علي بن محمد من حومة اماسن والمرابط قاسم بن علي بن يعقوب والمرابط عيسى تزروالت والسيد ابراهيم ابن محمد من حومة تسويت والسيد سعيد امغار انهم اتفقوا على محجة الطريقين التي الآن تَجُوزُ على الْوَادَرْ توريرت المذكورة وتنحدر إلى خندق حجر الزيت بلُغَات أهل البلد، النافذ لتعتبت وللغابة لرعاية المواشي وغيرهم، أنهم نزعوها وتركوها لكون محجة اسرافيل المارة تحت مدشر زاوية أدوز كافية عنها لأنها تلاقيها في خندق حجر الزيت المذكور المنحدرة من اسرافيل المذكورة مع ملك ورثة بويحيى البادسي، وينحدر في ملك المرابط عيسى بن ابراهيم المذكور، ويجوز أعلا الجنانات القديمين تتصل بحائطهم جنان المرابط عيسى تزروالت المذكور وجنان سيدي سعيد امغار المذكور مع جنان أيضا المرابط ( كذا ) القائد وينحدر إلى خندق حجر الزيت المذكور ويقطع منه ويصعد كما هو معروف ومشهور بعد ملاقاته بالطريق المنزوع في الخندق المذكور، يتصرفوا فيه بجميع المواشي وغير ذلك ويجوز اعلا الجنان سيدي علي بن محمد المذكور من حومة اماسن يسمى جنان الَغْبَرْ ويسمى ايضا جنان أسفل حجر الزيت المذكور واسقطوا المحجة المذكورة باستكفائهم عنها بمحجة اسرافيل المذكورة، لكون نفعتها واحدة بحيث لم يعارض أحد في ذلك من أعيان الجماعة من أهل نسبهم ولا من غيرهم معارضا قط اسقاطا كليا ابديا سرمديا واشهادا صحيحا تاما عرفوا قدره شهد به عليهم وهم بحال الصحة والطوع والجواز ( كذا ) في أول شهر المعظم ربيع النبوي عام تسعة وثلاثين وألف. واعلم به سعيد امغار وفيه ضرب ساقط في السطر ستة عشر منه أحمد بن يحيى العلوي البقويي ومحمد بن علي العلوي البقويي ( كذا ) وبعده بخط من يجب الحمد لله أعلم بثبوته عبد ربه عبد الكريم بن سعيد الفقيه الأجل المحافظ للأصل نائب القاضي بمدينة تطاوين وهو ( توقيع غير مقروء ) أعزه الله وحرسها بصحة المقابلة المذكورة ( كذا ) وثبوت الأصل عنها ( كذا ) أواسط شوال عام إحدى وثلاثين ومائة وألف.»**

( توقيع غير مقروء ) ، ( توقيع غير مقروء )

وفي أسفله طابع السلطات المحلية المغربية بالحسيمة تشهد بمطابقة النسخة لأصلها بتاريخ 3 أبريل 1996، ويليه إمضاء رئيس الجماعة الحضرية.

ب) وثائق السيد محمد أشهبار، الأستاذ بمدينة الحسيمة :

الوثيقة الأولى :

ظهير إقطاع من الأمير السعدي الغالب بالله لمرابطي زاوية أدوز

**« بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على مولانا وسيدنا محمد وعلى آله**

**عن أمر ( كذا ) الغالب بالله أمير المومنين بن أمير المومنين الشريف الحسني ( كذا ) ليثبت له في صفحة النزاهة والتنويه السامي ( كذا ) ويجرى له في ديوان البارة اسمه واجب الرّفع ولنسيم زاويته في السهل والجبل سمة التوقير والاحترام والمحاشات المحكمة ( المعهودة) الابرام المستمرة مُعزا بالله ( كذا ) وأقطعنا له ( كذا ) خمسة عشر زوجا ببقوية ( كذا ) عليها وثماني بوَرْغَة أربع منها ( كذا ) وأربع ببني ( كذا ) بما لها من الزكاة والأعشار وما سوى ( كذا ) الله من اللوازم لبيت المال عمّره الله وصرفنا على أخيه يحيى بن سعيد أربع ازواج ببقوية جارين في ذلك على مألوف عوائدهم ومعلوم ( كذا ).»**

الوثيقة الثانية :

ظهير أحمد المنصور الذهبي لحفدة أبي حسون شيخ زاوية أدوز بقيوة

**« بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله**

**يُستمد حملته حفدة الولي البركة أبي حسون ( كذا )**

**لا يُفرق عليهم عادة من عوائدهم بوجه، والواقف عليه يعمل بمقتضاه ( كذا ) وكتب بذلك في أوائل ربيع الثاني من عام تسعين وتسعمائة.**

**الحمد لله يشهد من يضع اسمه عقب ( كذا ) معرفة أحفاد الولي الصالح المتبرك به في الحياة ( كذا ) العام أبي حسون البقوي النازلين بزاوية أدوز قرب جزيرة بادس المعرفة التامة ( كذا ) فصدّوا الكفار فخصمهم لصفه الذين ببادس ويجتمعون في سنة مولانا محمد صلى الله عليه وسلم ( كذا ) شهادته مسئولة منه في سادس ربيع الثاني عام تسعين وتسعمائة...»**

الوثيقة الثالثة :

**« الحمد لله..... عن أمر عبد الله أمير المؤمنين وناصر ( كذا ) يستقر هذا الكتاب ( كذا ) أهل زاوية أدوز بقبيلة بقيوة ويتعرف منه ( كذا ) الله وقوته وشامل يمنه ( كذا ) أننا جددنا لهم حكم ما بأيديهم من ظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم ( كذا ) اتباعهم المتضمنة توقيرهم واحترامهم وتعظيمهم واكرامهم فقد أبقيناهم على عادتهم المعروفة وطريقتهم المألوفة فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة أو يحدث في امرهم نقصا أو زيادة فهم موقرون ومحترمون. تجديدا تام الرسم نافذ الحكم لا يزال بعون الله جديدا ولا يزيده القدم إلا تأكيدا والواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه والسلام في ثالث وعشرين من شعبان عام ( 1400 هجرية / 1593م).»**

الوثيقة الرابعة :

**« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما...**

**من فضل الله سبحانه ثم من بركة سيدنا أيده الله ونصره ولكل خير وسلام هيأه(كذا ) جعلنا مسطورنا هذا بيد الفقيه الحسيب المشارك اللبيب ( كذا ) دعوة المصطفى صلى الله عليه وأكرم مجيب الأنبل والأمثل الأجمل الأكمل ( كذا ) عبد العزيز بن ابراهيم بن أبي زيد حفيد شيخ المشايخ وقطب غادي أهل الطريقة ( كذا ) وصاحب الراية في موكبهم ( كذا ) وموقعهم الشامخ ولي الله تعالى ومنبع أسراره ومطلع أنواره ( كذا ) أدوز فاض الله علينا من كراماته المتلاطم الأمواج المضمحل العجاج العذب الورود للوجود والافراج يتعرف ( كذا ) بحول الله وقوته وعزيز قدرته وصالح إرادته أننا أبقيناه وإخوته المتصلين به ( كذا ) على ما يتعرف لسلفهم الأنقى وجدهم الأرقى من جميل التوقير والاحترام على متن المبرة والإكرام والإجلال والإعظام تنويها بحسبهم الباهر ونسبهم الطاهر ( كذا ) واحتفاء بقدرهم العلي ومقدارهم الجلي وفخرهم العريم ( كذا ) الصميم، واقرارا بما لهم من الفضل ( كذا ) والمزية على كل ( كذا ) بالأولوية والأخروية واعتراف بحقوقهم الواجبة على كل مومن من الجن والإنس، في الظاهر والباطن في المعنى والحس. وكيف وهم آل من طلعت عليه بعد الأنبياء النجوم ( كذا ) من قال في حقه الصادق المصدوق عليه صلوات الله ما تعاقب العموم والغيوب ( كذا ) وصحبته بوبكر وما غدا في الإجماع ( كذا ) لاتخذت أبا بكر خليلا وناهيك بشرف أول من آمن بوحي الله على التحقيق...( كذا ) .»**

مجهول المصدر والتاريخ

## المجموعة الثانية :

# وثائق تتعلق بحدود مليلية المحتلة في القرن 13 الهجري 19 الميلادي

إعداد وقراءة وتعليق: د. مصطفى الغديري
أستاذ بكلية الآداب بوجدة

الوثيقة الأولى :

**«بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبه ونعم الوكيل ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**

**إلى القبرنادور [1] حاكم أمليلية السلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى، أما بعد ؛ فسيدي ، أيده الله ونصره [2]، بلغه خبر وقع بينكم وبين خدامه قلعية على حفر كنتم تحفرونه ، فوجه أيده الله خديمه القائد أحمد بن عبد الصادق الريفي [3] لينظر الواقع بينكم وبينهم ويأتي بالخبر اليقين ليكون سيدي على بصيرة فيما بينكم وبينهم، وأمر الخديم المذكور بالملاقاة معكم ، وأنتم جاوبونا بما كان وكيف الواقع والسلام في ثاني صفر الخير عام 1218 هـ.**

**وصيف الأعتاب الشريفة محمد بن عبد السلام بن علي السلاوي المكلف بأمور الأجناس [4]**

**وفقه الله لطاعته آمين»** . (وعليها ختم لايتضح ما بداخله )

والوثيقة التي يوافق تاريخها 24 ماي 1803، محفوظة بالأرشيف التاريخي الوطني الإسباني ( A.H.N)، وتوجد صورة شمسية منها عند الأستاذ مصطفى الغديري.

---

(1) – **القبرنادور**: كلمة إسبانية **GOBERNADOR** ، ومعناها : العامل أو الحاكم .

(2) – يعني السلطان العلوي مولاي سليمان الذي حكم المغرب مدة ثلاثين سنة **(1792–1822م)**

(3) – **أحمد بن عبد الصادق الريفي** : كان في هذه الفترة باشا مدينة طنجة .

(4) – كاتب الوثيقة محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري الوزير المكلف بالعلاقات مع الأجناس، وعامل الثغور على عهد المولى سليمان، وجه هذه الرسالة إلى حاكم مليلية في شأن حفر الإسبان قنوات صرف مياه المستنقعات التي كانت تهدد السور الغربي من المدينة. انظر: الأستاذ **حسن الفكيكي**، *المقاومة المغربية للوجود الإسباني*، ص. ص. 383-384 ، وقد استثمر الباحث هذه الوثيقة في دراسته هذه، كما نشر فقرات منها في الدراسة نفسها. وانظر أيضا : **خالد الصغير**، *المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر*، ص:47.

الوثيقة الثانية :

**« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه [ كذا ]**
( الطابع السلطاني بداخله : " محمد بن عبد الرحمن الله وليه " )

**محبنا المرابط البركة الأرضى السيد محمد الحضري [1] وفقنا الله وإياك، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .**

---

(1) – السيد محمد الحضري، المخاطب في الرسالة : هو من قبيلة بني سعيد بإقليم الناظور، وبالضبط من قرية حضرية أو إحضاريا ( أو إحطاريا، بالطاء المهملة، كما ينطق بها أهل القبيلة ). وهذه القرية تقع بمشيخة إزعوما حاليا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط. ويبدو – من خلال الوثائق الموجودة بين أيدينا – أن هذا الرجل كان من أعيان منطقة الريف. وكان السلاطين العلويون الذين عاصرهم يسندون إليه النظر في الأمور المتعلقة بالريف عامة، بل امتد نفوذه إلى كافة الناحية الشمالية والمغرب الشرقي. إذ نجد هؤلاء السلاطين يستشيرونه في شؤون أحواز وجدة، وقبائل بني يزناسن وأنكاد، كالقيام بالصلح بين القبائل المتخاصمة، أو استشارته في سلوك بعض القواد والأمناء مع الرعية في إيالاتهم، أو القيام بإجراء تحقيق في قضية معينة عندما يقع اللبس في حقائق بعض الوقائع، كقضايا الأحداث البحرية التي كانت تقع بين سكان الريف وبين النصارى على سواحل المغرب الشمالية، تلك التي كانت تعرف الاصطدامات البحرية، وسقوط الأسرى في أيدي سكان المنطقة .

وأقدم وثيقة اطلعنا عليها في الموضوع هي رسالة سلطانية وجهت إليه كجواب عما كان الحضري قد ذكره في مراسلة له إلى السلطان يخبره بأن القوات الإسبانية قد نزلت في جزر كبدانة واحتلتها. وهذه المراسلة لا تحمل تاريخا محددا، ولكن نفهم من الحدث أنها وجهت إليه في بحر سنة 1264 هـ/ 1848م ( أي بعد احتلال الإسبان، مباشرة، هذه الجزر في شهر يناير سنة 1848 م ) على عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام. كما وجهت إليه رسائل عديدة في عهد هذا السلطان تحمل خاتمه السلطاني، وأخرى من ابنه الأمير المولى محمد بن عبد الرحمان، وأخرى من وزرائه. والشيء ذاته نجده على عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان ( كهذه الرسالة التي بين أيدينا )، ثم رسائل أخرى من السلطان الحسن الأول. وقد نشر الأستاذ عبد المجيد بنجلون كثيرا من صور هذه الوثائق – والتي توجد أصولها عند السيد حسن أوشن) – في كتابه :

*Fragments D'histoire Du Rif oriental, Et Notamment Des Beni Said Dans La Deuxième Moitié Du XIX^è Siècle, D'Après Documents De Mr. Hassan Ouchen* . Ed. Rabat 1995.

إلى جانب هذا، له مراسلات عدة مع قناصل وممثلي الدول المعتمدين بطنجة، من أمثال القنصل الإنجليزي الداهية John Drummond Hay ( الذي امتدت مدة تمثيله للتاج البريطاني بالمغرب من سنة 1845 – 1886 م ). كما له مراسلات مع شارل جاجير اشميث (Jagers Chmid ) قنصل فرنسا بطنجة، ومع نائبه (Mr. Cotelle )، تارة يراسلهم بتوقيع صريح ، وتارة أخرى بتوقيع رمزي يمثل شفرة سرية بينهم، كأن يمضي بهذا الرمز « محبكم X^...X^». إذ نجد عبارات في مراسلاته مع هؤلاء الأجانب تنم عن أسرار مخابراتية، وهو ما يجعله يخفي اسمه وإمضاءه الحقيقي. كما نجده يطلب منهم عدم إفشاء الأسرار التي بينهم، حتى لا يؤذيه المخزن ... وبالإضافة إلى كل هذا

**وبعد؛ فإنا رشحنا أخانا الأرضى مولاي العباس - حفظه الله - لعقد المعادنة مع جنس الصبنيول [2]، وكان من جملة ما اشترط عليهم الخروج من تطوان، إذ عنوا لذلك وطلبوا الوفاء بما كان وقع الفصل عليه حياة مولانا المقدس بالله [3] في حدود مليلية، فأجابهم لذلك اقتفاء**

---

نقف في كتابات بعض المؤرخين الإسبان تشير إلى أن هذا الرجل كان صديقا لإسبانيا، في وقت كانت الدولة الإسبانية تستفز المخزن المغربي وتبحث عن ذريعة للإستيلاء على أهم الثغورالمغربية الإستراتيجية. انظر على سبيل المثل كتاب المؤرخ الإسباني **Jeronimo Becker**: *Historia de Marruecos*, Madrid, 1915 ، حيث يقول عنه في ص. 233 :

**«... Morabito Sid Mohammed el-Jadri antiguo amigo y confidente de nuestra plaza... »**

وترجمة هذه العبارة :« **المرابط السيد محمد الحضري صديق قديم وأمين السر لساحتنا ».**

فلا ندري كيف نفسر هذه التناقضات في هذه الشخصية؟ فهو المحب الأرضى للسلطان، والصديق الودود لممثلي الدول الأجنبية، وأمين السر للإسبان، وعين المخزن على منطقة الريف والمغرب الشرقي ... إنها شخصية جد معقدة للمحلل والدارس .

ونظرا إلى الأدوار التي لعبها هذا الرجل بالمنطقة في القرن التاسع عشر، وإلى الملابسات التي تحيط بحياته، فإننا بصدد إنجاز دراسة شاملة للكشف عنه من خلال الوثائق التي وصلت إلينا. أما وفاته فقد كانت في شهر ربيع الثاني عام 1301 هجرية / فبراير سنة 1884 م.

وقد ذهب الباحث الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور إلى أن وفاته كانت سنة 1309هجرية. ويبدو أن فيها خلطا بين محمد الحضري هذا وبين ابن أخيه المقدم محمد أحضري الذي ولي مكان عمه، وقد قتل هذا الأخير على تراب قبيلته بني سعيد في التاريخ الذي حدده الأستاذ الفاضل ( وردت إشارة الأستاذ بنمنصور في الوثائق الإدارية ج345/7 رقم الوثيقة 981 هامش 106 ). وسنوضح ، إن شاء الله، وبتفصيل، كل ما يتعلق بحياة هذا الرجل في القريب العاجل .

[2] - **المولى العباس** : هو شقيق السلطان، وهو الذي ترأس المفاوضات الإسبانية / المغربية إثر احتلال الإسبان مدينة تطوان 1276 هجرية / 1860 م. ينظر كتاب :

**J. BECKER**, *Historia de Marruecos*, p p. 263 – 272.

ولمزيد من التفصيل عن هذه المفاوضات ينظر كتاب : **خالد الصغير**، *المغرب وبريطانيا في القرن التاسع عشر*، ص.ص. 179–208، الطبعة الثانية، 1997، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

[3] - تشير الوثيقة إلى التسوية التي تمت بين المخزن المغربي على عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، وبين الحكومة الإسبانية في موضوع توسيع حدود مليلية بتاريخ 24 غشت 1859 م المترتبة عن الأحداث التي عرفتها سواحل قبيلة قلعية، والتي تم فيها الاستيلاء عن بعض السفن الإسبانية. واشترط الإسبان طول هذا التوسع على الحدود الغربية للمدينة مقدار رمية مدفع لتعيين الحدود الجديدة، إلا أن ذلك لم يدخل في حيز التنفيذ على عهد السلطان المذكور لوفاته بعد ذلك مباشرة، وبالضبط يوم 29 غشت 1859م، لينفذ بعد نهاية حرب تطوان، كما تشير هذه الوثيقة؛ إذ سيدخل حيز التطبيق سنة 1962 م، في إطار الشرط الخامس والسادس من معاهدة الصلح لخروج الإسبان من مدينة تطوان. ولمزيد من التفصيل ينظر المراجع الآتية :

- *Historia de Marruecos* .p.p. 233 -290

**بما عقده مولانا الإمام - رحمة الله عليه - وجريا على استخلاص ذلك الثغر من أيديهم [4]، وأمضينا فعله في ذلك لما رأينا فيه من المصالح التي لا ينكرها عاقل، وارتكابه ( كذا ) الضررين ، وقد كتبنا لقبيلة كَلعية [5] كتابا أمرناهم فيه بالوقوف على جعل الحدود على ما وقع عليه الفصل مع مولانا، قدس الله روحه وبرد ضريحه، وتأخير إخوانهم الذين بها إلى ما يليها من البلاد [6] وأكدنا عليهم في ذلك، وبيّنا لهم ما فيه من المصالح، وحذرنا عاقبة المخالفة، ووجهنا لهم ابن عمنا الأرضى سيدي محمد بن عبد الجبار، ومعه قائد أرحى [7] وخمسون فارسا للوقوف على ذلك، وكتبنا لخديمنا الطالب احمد الداودي [8] بأن يتوجه هو وخديمنا الشيخ ميمون [9] ويباشروا ذلك حتى يتم على ما ينبغي، وأنت من أهل الخير والدين**

---

- **خالد بن الصغير**، *المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر*، ص.ص.125-208 ؛ **حسن الفكيكي**، *المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية*، منشورات كلية الآداب بالرباط 1997، ص.ص.405 - 410 .

(4) - تشير الوثيقة إلى مدينة تطوان التي كانت تحت سيطرة الإسبان وقت كتابتها.

(5) - كانت قبيلة قلعية، آنذاك، تشمل كل القبائل المنضوية حاليا تحت اسم دائرة قلعية، وكانت أجزاؤها تسمى بأخماس القبيلة وهي : خُمُس مَزُوجة، خُمُس آيث شيكر، وخمس آيت بوغافر، وخمس آيت بويفرور، وخمس آيت سيدال. ولم يتم تسمية هذه الأخماس بالقبائل إلا بعد الاحتلال الإسباني في العقد الثاني من هذا القرن. إذ كان لقبيلة قلعية قائد واحد في القرن التاسع عشر كما تشهد على ذلك الوثائق التي بين أيدينا.

(6) - وتعني هذه العبارة مصادرة أراضي ومباني الأهالي الواقعة داخل المجال المتفق عليه مع الإسبان، كما تحث السكان على التخلي عن هذه الأراضي والرجوع إلى ما وراء الشريط الحدودي المتفق عليه. وقد أورد المؤرخ الإسباني **J. Becker** فقرة من الاتفاق الذي تعهد فيه السلطان بتوسيع حدود مليلية. انظر ص:229 - 230 في كتابه *Historia de Marruecos* ، كما أورد تطبيق ذلك عمليا بحضور ممثلي المخزن المغربي وممثلي السلطات الإسبانية ( انظر ذلك في الكتاب نفسه ص : 289- 290 ).

(7) - **قائد أرحى** : قائد الكتيبة المكونة من 50 فارسا أو جنديا.

(8) - **الطالب أحمد الداودي** : كان في هذه الفترة عاملا على مدينة وجدة كما توضح رسالتان سلطانيتان، الأولى بتاريخ 24 ذي الحجة عام 1277 هجرية / 3 يوليوز 1861 م، في موضوع النزاع على الأراضي الكائنة بسيدي موسى بن عبد العالي بأحواز وجدة بين هذا العامل وبين مجموعة من أعيان بني يزناسن. والثانية بتاريخ 15 ربيع الثاني 1278 هجرية / 20 أكتوبر 1861م في الموضوع ذاته. ومن خلال هذا النزاع نفهم أنه من وجدة أو من أحوازها، ( نص الرسالتين منشور بكتاب : **إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي**، *تاريخ وجدة وأنكاد في نوحة الأمجاد*، الجزء الثاني، ص، ص.126 ،129، طبعة أولى 1409 هجرية / 1989 م ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ).

(9) - **الشيخ ميمون** : هو ميمون بن البشير بن مسعود اليزناسني من أبناء البشير أومسعود المشهور ببني يزناسن، كان أبوه من قواد بني يزناسن في النصف الأول من القرن 19م، ثم تولى مكانه ابنه ميمون هذا؛ إذ نجد السلطان عبد الرحمان بن هشام يعينه بظهير قائدا على كل قبائل بني يزناسن سنة 1851م. وفي 1852 قاد عدة حملات ضد الفرنسيين

**والصلاح في تلك الناحية. فكن عند الظن بنا في ذلك ولا تقصر في موعظة أولئك الناس وتذكيرهم حتى يمتثلوا ما أمروا به، فإنه من المصالح الدينية التي نفعها عام لجميع أهل الإسلام، ويعرفه الخاص والعام، والقيام بها واجب على كل من له قدرة عليه من المسلمين، لا سيما من يقتدي به من أهل الخير والدين، وإن شملت هذه العدود التي أرادوا إحداثها المسجد المعروف هناك للمجاهدين [10]، فسدوا أبوابه، ويبقى هناك مزارة للمسلمين، ومن أراد الوصول**

---

على الحدود المغربية / الجزائرية، ثم صار مساعدا مقربا لعامل وجدة. وقد قاد عدة حملات على قبائل لمهاية بالمنطقة الشرقية، وعلى أولاد ستوت وقلعية بالريف الشرقي. ونجد في وثيقة بين أيدينا أنه قاد حملة على أولاد ستوت في خريف 1270هجرية / 1853 م، إلا أنه رجع إلى بني يزناسن مهزوما بسبب تحالف وقع بين هؤلاء وقلعية. كما تردد اسمه في كثير من وثائق المغرب الشرقي في شأن نزاعات عقارية بأحواز وجدة. وآخر حملة قادها إلى منطقة قلعية بأمر من السلطان كانت بشهر مارس من سنة 1859 م بغية تخليص مجموعة من الأسرى الإسبانيين كانوا محتجزين ببني شيكر، وقد تم له ذلك بتاريخ 2 مارس 1859 م، وتم تسليمهم للقنصل الإسباني بطنجة يوم 16 مارس من نفس السنة. **خالد الصغير**، *المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر*، ص.138.

وللإشارة فإن هذا القائد اغتالته جماعة من قبيلة لمهاية بتاريخ 4 شتنبر 1863 م على ضفة وادي إسلي قرب مدينة وجدة. للمزيد من المعلومات عن هذا الرجل وأسرته ينظر المراجع الآتية :

- **L. VOINOT**, *Oujda et Amalat*, ed. Oran, 1912, p.214.
- **محمد العسري**، " *قصبة أولاد البشير أمومسعود ودورها السياسي في تاريخ المنطقة الشرقية من المغرب* "، مجلة جمعية تاريخ المغرب الصادرة بوجدة سنة 1993، العدد الأول، ص.ص: 86 - 97.

[10] - المقصود بالمسجد المعروف هناك للمجاهدين هو رباط جنادة أو رباط الكرمة ( ونسبته إلى الكَرْمَة يعود إلى وجود هذه الشجرة وسط ساحته، أما اسمه بجنادة فهو من الأجناد، أي المجاهدين )، وتسمى بالتعبير المحلي جنادة لَلاّ ثُورْثُوتْ، وكان هذا المسجد معقل المجاهدين المرابطين قرب حدود مليلية، ( انظر تفصيل ذلك في كتاب المؤرخ الإسباني خ . بيكر *Historia de Marruecos* ,P. 289 )، وما زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ بكثير من الأخبار عن هذا المسجد الذي عبث به الإسبان حين صار بحوزتهم؛ ومن ذلك ما يتردد على ألسنة بعض أهالي المنطقة، رواية عن أسلافهم، من أن الإسبان لما استولوا عليه وشرعوا في قطع الكرمة التي كانت بساحته بدأت تسيل أغصانها بالدماء مما أرعب الإسبانيين. فمثل هذه الأخبار إن دلت على شيء فعلى مدى تأثر الأهالي وتألمهم إلى ما آل إليه أمر هذا المسجد الذي كان معقلا للمجاهدين في مواجهة الغزاة المستعمرين. ونظرا إلى مكانة هذا المسجد في قلوب أبناء المنطقة لم يترددوا من إطلاق اسمه على رباط بديل له؛ إذ أطلق المجاهدون الاسم نفسه على رباط أقامه الشريف محمد أمزيان بمنطقة أولاد بورمانة بقبيلة بني سعيد حين استولى الإسبان على قبيلة قلعية سنة 1909 م. وكان هذا الرباط مسجدا لأداء صلاة الجمعة، وفي نفس الوقت إدارة للمجاهدين ينطلقون منها لمواجهة الإسبان على حدود قبيلة قلعية. واستمر هذا الرباط لأداء مهمته الجهادية والدينية مدة طويلة حتى بعد استشهاد الشريف محمد أمزيان صبيحة يوم 12 ماي 1912 م. وما يزال هذا المسجد يؤدي دوره الديني إلى اليوم، ويسمى مسجد أجنادة، بسوق أجنادة بأولاد بورمانة بجماعة أمجاو . ويعتبر هذا المسجد من التحف الدينية النادرة بمنطقة الريف الشرقي، إذ ما يزال المسجد الأصلي قائما بجوار المسجد الذي بني في السنوات الستين، وما تزال هيبته ووقاره ومكانته في قلوب الأهالي قائمة إلى الآن. ويكفي أن نعلم أنه كلما أعيد

**إليه بعد من المسلمين بقصد الزيارة والتبرك فيتركما معه من السلام في المحل الذي يجعل عنده الحدود، ويدخل إليه بنفسه حتى يقضي الغرض، ويرجع، والسلام. في 11 جمادى الثانية عام 1278 هـ»**

توضيح :

تاريخ هذه الوثيقة يوافق 14 دجنبر 1861 ، وتوجد صورة شمسية لها عند الأستاذ مصطفى الغديري، وأصلها عند السيد حسن أشّن. وقد نشر صورتها السيد عبد المجيد بن جلون في كتابه الصادر بالرباط 1995 بعنوان :
*Fragments D'Histoires Du Rif*, p. 388...

ترميمه أو إصلاحه اشترط الأهالي على كل العمال الذين سيشتغلون فيه أن يكونوا على وضوء وطهارة طوال اشتغالهم بهذا المسجد، لأن المجاهدين الذين بنوه سنّوا ذلك وفرضوه على كل من ولجه أو ساهم في بنائه.

## المجموعة الثالثة

النموذج الأول :

## بادِس

« بادس مدينة مبنية على ساحل البحر المتوسط يسميها الإسبانيون " فيليس دولاكوميرا " (Velez de la Gomara)، وتضم زهاء ستمائة كانون. يقول بعض مؤرخينا أن الأفارقة هم مؤسسوها، ويقول آخرون أن القوط هم بُناتها. ومهما يكن من أمر فإنها واقعة بين جبلين شاهقين. قرب واد سحيق يتكون فيه نهر عندما ينزل المطر [1]. وفي داخل المدينة سوق يضم العديد من الدكاكين وجامع متوسط الكبر، لكن لا وجود للماء الصالح للشرب، وفي خارج المدينة بئر قريب من ضريح أحد الأولياء [2]، إلا أن شرب مائه ليلا خطير لكثرة العلق به.

ينقسم السكان قسمين، صيادون، وقراصنة يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل النصرانية. والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية العربية. لا يعيش الجبليون إلا من هذا الخشب يحملونه إلى مختلف الجهات، ولا ينبت في بلادهم سوى القليل من القمح، ولذلك يأكلون خبز الشعير في هذه المدينة، ويقتاتون على الخصوص بالسردين وغيره من السمك لأن الصيادين يصطادون منه كميات وافرة بحيث يحتاجون دائما إلى بعض الناس يساعدونهم على جر شباكهم، ولذلك تعود بعض الفقراء أن يذهبوا تقريبا كل صباح إلى ساحل البحر لمساعدة الصيادين الذين يكافئونهم بإعطائهم كمية مهمة من السمك الذي يصطادونه، ويعطون منه لجميع الحاضرين هناك أما السردين فإنهم يملحونه ويرسلونه إلى الجبال. وما زال بالمدينة زقاق طويل يسكنه اليهود وتباع فيه الخمر التي يعدها جميع السكان شرابا رائعا جدا. ويذهب هؤلاء الناس تقريبا كل مساء [عندما] يكون الجو صحوا في زوارق صغيرة للتنزه على عرض البحر والتسلي بالشراب والغناء.

ولبادس قصبة جميلة، لكنها ليست متينة جدا، يسكنها الأمير الذي يملك أيضا خارج القصبة قصرا وحديقة بديعة. وفي خارج القصبة أيضا بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والمدنيون أن يسلحوا زوارق ويرسلونها إلى بلاد النصارى فيلحقوا بها الكثير من الأضرار. ولذلك قام " الدون فرناندو"

---

[1] – هو تلمبادس.

[2] – هو أبو يعقوب البادسي المغاولي المتوفى عام 734 هجرية / 1333 م.

ملك إسبانيا المذكور آنفا بإرسال أسطول بقيادة "بِدْرُو نافارو" فاحتل جزيرة قبالة بادس على بعد ميل من المدينة. وبنى فيها قلعة على صخرة [حجـــرة بـــادس] شحنها جنودا ومؤنا ومدفعية قوية، حتى كان رمي الإسبانيين يقتل الناس في أزقة المدينـــة وفـي الجامع، فاستغاث أمير بادس بملك فاس الذي أرسل عددا من الجنود المشاة لمهاجمة الجزيرة، لكنـهم أرهقوا كثيرا، فهلك بعضهم، وسقط آخرون في الأسر، ورجع البعض إلى فاس مصابين بجراح. وقد احتفظ النصارى بالجزيرة إلى أن أرسل ملك فاس من جديد جيشا بعد مرور أحد عشر عاما، فسقطت الجزيرة في أيدي المسلمين بسبب خيانة جندي إسباني قتل القـائد الـذي زنـى بزوجته، وقتلوا جميع من وجد فيها من النصارى ما عدا الجندي الخائن وزوجتـه، فأكرمهما أمير بادس وملك فاس وكافأهما. وكان ذلك عام 1520 للميلاد. وقد سمعت هذه القصة في نـابولي من أنـاس حضروا احتلال الجزيرة، لكنـي كنـت بفاس عندمـا اسـتولى عليـها المسـيحيون. ويحرس اليوم أمير بادس هذه الجزيرة بكل عناية، يساعده في ذلك ملك فاس، إذ يقـع هنـاك أقرب ميناء على البحر المتوسط إلى فاس، بـالرغم من مسافة نحو مائة وعشرين ميلا الفاصلة بين بادس وفاس.

ومن عادة سفن البندقية أن تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقدا، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس، وأحيانا إلى البندقية أو حتى الاسكندرية وبيروت.»

المصدر:

الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بجان ليون الإفريقي، *وصف إفريقيا*، ترجمـه عن الفرنسية د. محمد حجي و د. محمد الأخضر، الرباط، 1980، ج.1، ص.ص 253-254.

**النموذج الثاني :**

الوثيقة الأولى :

رسالة من السلطان الحسن الأول إلى المرابط السعيدي محمد أحضري بتاريخ 2 جمادى الثانية عام 1272 هجرية/9 فبراير 1856.

**« محبنا الأرضى وأعز ما لدينا المرابط الخير الدين السيد محمد الحضري أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله وبعد. اعلم أنا كنا أجبناك على كتابك الذي كنت وجهته إلينا يأتيك في البحر وخشينا من إبطائه بسبب آفات البحر وأردفنا لك هذا تذكرة والعمل على ما قدمناه لك في شأن ما تبرمونه أنت والشيخ محمد بن الحاج الولشكي والشيخ الحاج محمد بن المختار مع أهل مراسي قبائل الريف كلها من ان تعطوا ضمانا في غرم ما عسى أن يصدر منهم من نهب مراكب النصرى والتعارض إليهم في البحر وحتى لو عارض للمركب عارض يرمي به على شطي البحر فيبقى محفوظا مأمونا بما فيه مالا ورقابا ويجعلون عليه حراسا ليَلاّ ينهب شيء مما فيه حتى يرد أربابه ويمكنون به ويشهدون بذلك أهل المراسي على أنفسهم وتودى الرسوم ونحن نمكن خطيدنا الذي يطلبونه منا على ذلك النصارى ويتسرح حينئذ السفر في البحر في أمن وأمان. وأنتم إن رأيتم الصدق من أهل المراسي بحيث لا يعودوا لعارضتهم ويُوَفّوه بعهدهم فلا بأس تعاقدوا معهم على ذلك وإلا فإن ظهرت لكم مخايل عدم صدقهم فطالعوا علمنا بذلك ولا تُخفوا عنا شيئا فأنتم البصيرة وعوض النفس وعهدتنا عليكم في تلك النواحي والسلام في جمادى الثانية عام 1272.»**

المصدر :

**Abdelmajid BENGELLOUN**, *Fragments d'histoire du Rif Oriental et notamment des Beni Saïd, dans la deuxième moitié du XIX^e Siècle, d'après les documents de Mr. Hassan OUCHEN*, Rabat, 1995, p.406.

الوثيقة الثانية :

رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 18 ربيع الثاني عام 1313 هجرية/1895، موجودة بالخزان العامة بتطوان، مح. 65/14.

« خديمنا الأرضى الحاج محمد بن العربي الطريس أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد كثر التشكي على حضرتنا الشريفة من نواب الأجناس بما يقع من نهب مراكبهم بسواحل الريف ومن جملة من نهب قريب عهد بابور للنجليز يسمى برغين ذي لوس أنغليس حسبما أخبر به نائبهم وذكر أن أهل مدشر إزمورن من قبيلة بقيوة هجموا عليه بقواربهم في الخمس عشر من شتنبر وأخذوا جميع ما به من السلعة والآلة وحوائج الرايس والبحرية وألزموهم إعانتهم على نقل ذلك لقواربهم، وقد أجيب بوقوع ذلك منا موقعا، وبأننا أمرنا بالبحث عن حقيقة ذلك وترصّد الفعّال وأقاربهم بفاس وطنجة وتطوان وقبضهم وحيازة ما بأيديهم من الأمتعة سواء وردُوا برا أو بحرا، واقتضى نظرنا الشريف زيادة على ذلك واهتماما بهذا الأمر، أن نجعل البابور الحسني إن كان لا زال ثمة، أو التركي إن كان رجع من الطرفاية عسّة في البحر وَرْدَاكُوشْطَا يكون يطوف في الساحل بين طنجة ومليلية بقصد ترصد أهل الريف الذين يجدونهم في القوارب بالبحر وتفتيشهم ومعرفة ما هم حاملون له فإن كانوا على غير استقامة أو بصدد نهب مراكب الأجناس أو معهم كُطْرَبَانْضْ أو متوجهين لمراسي أجنبية فيجروا بهم القوارب بما فيها ويأتوا بهم إليك فالرجال يودعون بالسجن ثمة على يدك ويد العامل، والقوارب والأمتعة يحوزها أمناء المرسى ويتركونها تحت يدهم معونة واطلع علمنا الشريف بعددها تفصيلا لنأمرك بما يكون فيها بحول الله فنأمرك أن تجعل بالبابور الذي يُعين لذلك مَدفعين بإقامتهما من العمائر وأربعة من الطبجية وكبيرهم وخمسين من عسكر أهل طنجة المحروسة بعُدّتهم فقد امرنا العامل بتنفيذهم لذلك ثم تكلم مع رئيس البابور المذكور ببيان القصد بما ذكر وأوصه بمزيد التيقظ ورد البال. نعم من وجده من أهل القوارب المشار إليها واردا وبيده كتاب مختوم من عامله ببيان تاريخ سفره وما هو حامل له من السلعة وببيان المحل الذي يقصده إما طنجة أو تطوان فيخلي سبيله في وروده وفي رجوعه إن وجد عنده كتابا من عامل طنجة أو تطوان بمثل ما ذُكر فيخلي سبيله أيضا واما إن وجده خاليا من المكاتب المشار إليها فيُقبض ويُوتى به إليك بما معه من القوارب وما فيها لينفذ فيه أمرنا الشريف بما قُرر لكأعلاه. وقد أمرنا عُمّال أهل الريف بأن يكونوا يدفعون مكاتبهم بما ذُكر لاخوانهم أصحاب القوارب المشار إليها كما أمرنا عاملي تطوان وطنجة بأن يكونوا يدفعون لهم أيضا عند رجوعهم لاكن لا يتم ضبط ذلك وحسم مادة هذا الفساد إلا

**بتفتيش مراكب الأجناس التي يصادفها البابور المذكور حالة دورانه في السواحل فان وجد به شيئا من الكطربانض كالهُدّة الرومية وشبهها فيجره بما فيه ويأتي به إليك لتُجري عليه أحكام مَن يُوجد بيدهم الكطربانض، وإن كان خاليا منه فيُخلى سبيله. فاكتب للنواب بذلك ليأذنوا في التفتيش على نحو ما ذُكر وعرّفهم بأن هذا كله لأجل ما يقع بمراكبهم واهتماما بأمرها لتبقى محفوظة آمنة إن شاء الله فإن أصل كل علة من الكطربانض كما لا يخفى والسلام في 18 ربيع الثاني عام 1313.»**

الوثيقة الثالثة :

رسالة من الوزير أحمد بن موسى إلى النائب الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 25 رجب عام 1316 هجرية، الخزانة العامة بتطوان، مح. 17/25.

**« محبنا الأعز الأرضى النائب الأجل السيد الحاج محمد بن العربي الطريس أمنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن غير مولانا نصره الله وبعد.**

**وصلنا كتابك بشكاية الأجانب من كبراء المحلة السعيدة بالريف بتثقيفهم الفلائك العاملة للسلع المسرحة للمتشاكين من مرسى تطوان والسلع المسرحة أيضا الخارجة من مراسي الريف بقصد تطوان معتجين بأن محل التثقيف في السلع الممنوعة الغير المسرحة. كما اشتكوا بذلك على عامل تطوان حسبما بكتابه الذي وجهت، ذاكرا أنك بعدما كتبت لكبراء المحلة المذكورة بتبيينك لهم ضابط المسرح وضابط موضوع التثقيف لم يعملوا بمقتضاه، كما كتبت لعمال الريف بواسطة عامل الحدادة باعطائهم بطائق التسريح للفلائك التي تخرج من ناحيتهم فلم يعملوا به ولا زال التثقيف على حاله. فأنهينا ما ذُكِر لعِلم مولانا أيده الله وصار بباله الشريف، وأجاب أعزه الله بالاحالة على ما تضمنه الجواب الشريف الصادر لك قريبا بتاريخ الرابع والعشرين من الشهر القارط المحال فيه أيضا على الكتاب الشريف الصادر لك بتاريخ الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام أول، ووُجهت لك منه نسخة باللفظ طَيَّ الجواب المذكور لتعيد مراجعتها وإمعان النظر فيها بحيث إن كنت سلكت مع نواب الأجناس ما تضمنته من الإعلام لهم بما قُرر فيه ومُحَصله الاسترعاء عليهم فيما عسى أن يُعثر عليه بعد ذلك التاريخ من القوارب وما فيها فإنه لا يسوغ لهم الآن في ذلك كلام، وإن كنت لا زلت لم تُعْلمهم فهو سبب تجديد الكلام معهم الآن وتكليفك الأمين السيد بناصر غنام لمباشرة الكلام في ذلك مع النائبين المتكلمين إلى آخر ما تقدم لك شرحه. ولا يكون ذلك كله إلا واصلك**

وها نسخة من كل الكتابين الشريفين المحال والمحال عليه أعيدتا لكطيه وبه تعلم أن المكلفين بالمحلة المذكورة لم يرتكبا أمرا مخالفا لما صدر لهما على مقتضى ما تقدم تأسيسه على يدك بأن تأمر رئيس البابور التريكي (*) بجر جميع الفلائك التي يعثر عليها بمياه الكوشطة الريفية، وكذلك مراكب الأجانب التي يعثر عليها واسقة أو واضعة بالمياه المذكورة. ولو نفذ رئيس البابور المذكور ما أمر به لما أحوج (كذا) المحلة للقبض على الفلوكتين اللتين نشأ عنهما هذا الكلام. وأما ما أشرت إليه من تسريح السلع من طنجة وتطوان لمراسي الريف أو حملها من الريف بحرا إليهما فلم يُفهم هل له مستند بتقدم صدور إذن شريف فيه أولا. وعلى كل حال فغير خفي عنكم أنه منذ ظهر روجان فلائك أهل الريف في فتح أبواب الضرر العظيمة على جانب المخزن والرعية، وشكايات الأجانب تترادف على جانب المخزن بوقائع الهجوم على مراكبهم والمطالبة بالمغارم التي لم تُعهد ولم يُسمع بمثلها. وكل ذلك قاض بأن المخزن له الحق التام في منع روجان جميع الفلائك والمراكب الآن بتلك المياه، وانه لا يمكنه إبقاء تلك الفلائك متمادية على تهورها الذي جرّ إلى توريط جانب المخزن في وقائع لا ينساها عاقل. وقد كتب نائب الصنيول أيضا فيما ثقف لليهودي بنطوا بتطوان وأجب صحبته بالاحالة على ما تقدم له فيه على يدكم وعلى ما يزيده الأمين السيد بناصر غنام من البيان في مباشرة الكلام معه. كما كتب نائب البرطقيز بما كتب بعض رعيتهم في شأن سلعة أجنبية ثقفت أيضا طالبنا التأمل في ذلك وأجيب بأن يتأمل هل لجانب المخزن مرسى مفتوحة بالريف، وثُقف على أحد من التجار حملُ سلعته منها وإليها، وهل أذن لأحد بتوجيه السلعة بحرا لغير المراسي المفتوحة وانه ما بالعهد من قِدَم ما جرّته فلائك تلك المياه من المضار العظيمة لجانب المخزن كما هو غير خفي عن أحد. وها ما كُتِب به للأمين غنام في ذلك يصلك طيه لتدفعه له وتَمُدّه بالمفاوضة التي يستعين بها على تتميم مباشرة الكلام في هذا الموضوع على مقتضى ما تقدم لكم به الأمر الشريف وتعلموا بالمثال وعلى المحبة والسلام في 25 رجب عام 1316. »

(*) – إلى جانب الباخرة المسماة " السيد التركي" المجهزة بمدفعين، وذات وزن يبلغ 460 طنا، وطاقم مكون من 20 بحريا مغربيا و7 مدفعيا و6 ألمانيين يسهرون على قيادتها وتسييرها التقني، عيّن المخزن سفينة جر صغيرة بالساحل المتوسطي تدعى " التريكي "، وقد تم شراؤها عام 1892. وكان وزنها يبلغ 18 طنا. أما طاقمها فكان مكونا من 8 أفراد، بالإضافة إلى الربان. انظر :

**Leonard KAROW**, *Neuf années au service du Maroc*. Traduction et notes Monique MIEGE et Jean-Louis MIEGE, Edition La Porte, Rabat, 1998, pp. 8-9.

## المجموعة الرابعة

توجد نسخها الأصلية عند الأستاذ عبد الحميد الرايس، زميلنا في هيئة تحرير المجلة.

الوثيقة الأولى :

### شهادة أعمار أبركان

الحسيمة في 20 رمضان 1401 / 22 يوليوز 1981

عمره آنذاك نيفا وتسعون سنة – مدشر تيغانمين – قبيلة بقيوة.

**« أثناء محادثة حبية مع شيبة الحمد المسن اعمار البقيوي، انجر بنا الكلام إلى تاريخ ميلاده. فقال لي أنه ولد حوالي سنة ستة وثلاثمائة وألف هجرية. واستدل بذلك بحادثة أواخر سنة ست عشرة حينما نزلت قوات المخزن وعسكرت بسهل أجدير وضواحي المقبرة العمومية قبالة جزيرة الحسيمة التي تبعد عن اليابسة من قرية أجدير بنصف كيلومتر حيث كان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة. وفي أوائل السنة الثامنة عشرة هجمت قوات المخزن على قبيلة بقيوة بعد أن ألقت القبض على رجالها البارزين حيلة وتآمرا، واعتقلت آخرين نقلوا على الباخرة إلى الصويرة والتي كانت راسية بجانب الجزيرة، كما قتلت عددا منهم.**

**ويقول أنه قد انتقل مع عائلته والمشردين الآخرين إلى مرسى بادس. وبعد بضعة أيام تقرب من شهر، شحنت باخرة فرنسية إلى بادس، بجانب الجزيرة المعروفة بادس، والتي لا تبعد عن اليابسة بأكثر من مائتي متر. لقد ركبوا الباخرة إلى وادي مرتين، ورست بهم هناك، وحاول قبطان الباخرة أن يحمل باشا تطوان على مد يد المساعدة وإنزالهم إلى البر، فامتنع تحربا من المسؤولية. فما وسعه إلا أن يذهب بهم بالباخرة إلى طنجة، ولقي مع باشاوا نفس الموقف. وقد غضب القبطان ورجاله غضبا بالغ التذمر، وتوجهوا بهم إلى وهران، حيث خرج عصرا ووصل إلى وهران ضحوة.**

**وبمجرد ما وصلوا، تنفسوا الصعداء. وجدوا العربات مهيأة على الرصيف حيث ركبوها إلى حيث نصبوا لهم الخيام الكبار لإيواء أربع عائلات بأن جعلوا في كل زاوية من الخيمة عائلة. كما قدموا لهم على عجل كمية من الخبز الأبيض والجبن. ويقول أن الجبن لم تستسغه أذواقنا، فصرنا نلفظه، ونعافه بسبب نكهته. وهكذا بقينا في الضيافة على أحسن ما يكون. وكان اشتراطهم علينا لحملنا من بادس إلى وهران هو أن نفسح لهم من رجالنا أربعين للانخراط في الجندية الفرنسية، وكذلك كان. وبعد ذلك قالوا لنا نريد أن نعرف منكم من ألف السكنى قريبا من البحر، ومن ألف منكم الابتعاد. فافترقنا فرقتين، وأحسن منهما من**

حيث العيش الذين ظلوا يعيشون قريبا من البحر. وباختصار كنا عندهم محل الرعاية والتقدير.

ومن عجيب الاتفاق أنه ذات مرة سقط صندوق عظيم مملوءا بأسلحة أثناء إفراغ الشحنة من الباخرة، فحاروا في كيفية استخراجه، وراحوا يبحثون عن وسائل لذلك فقال لهم رجالنا الذين كانوا يعملون عمالا في المرسى : نحن نستخرجه. فخاصوا بدون واسطة حتى تمكنوا منه وعملوا على إخراجه.

بمناسبة كلامية سألته عن المدعو الرايس مسعود سيبيرا من حيث الاسم والنسب. فقال لي :

هو مسعود بن علال، قدم جده الثاني من قبيلة آيث توزين سائما وباحثا عن عمل فلاحي. وفعلا أخذ يشتغل كمزارع مع أسرة من مدشر إزمورن من قبيلة إبقوين، وكما تزوج هناك أيضا. واستمر المقام والتعايش والاندماج مع تلك الأسرة بالمصاهرة، رزق بأبناء من بينهم علال، والد الرايس مسعود وأخويه حدو واعمار وبنات.

لم ينتبه مسعود وجهة سلفه الفلاحية ذات المردود الضئيل. فقد كان يهوى المغامرات والمضاربات منذ شبابه، فقد أخذ يعمل بنشاط مع بعض المغامرين المهربين من القبيلة، يسافر معهم ويرافقهم إلى مالقة، وجبل طارق، وسبتة، وطنجة ومليلية. وكان رفاقه لا يبخسونه حقه، يأخذ ما يستحق وزيادة، لأنه جدي وعملي ونشيط ويعرف من أين تؤكل الكتف، كما يقول المثل العربي. ولكثرة تردده على جزيرة النكور، ألفه قائد الجزيرة ومن في ركابه، فتعلم لغتهم مادة ورطانة، فيقدمونه كمغامر لشخصيات إسبانية ترد على الجزيرة قادمة من إسبانيا، وغالبها إما سياسية، وإما مغامرة في التهريب. وبين عشية وضحاها، كون لنفسه شخصية ذات مال، يستدره باليمين والشمال من صفقاته، انفرادا أو شركة، وأصبح بمغامراته وماله ومصاهرته ونشاطه البارز من أعيان البلد المرموقين.

وفي سنة 1921 كان من بين الذين حضروا في استقبال المقيم العام الفنرال Berenguer قادما في سفينة حربية من تطوان، وبمعيته حضوريا بالجزيرة الجنرال سلفستري القادم من مليلية في سفينة حربية. وحينما كان يخاطب المقيم العام والفنرال سلفستري، الجمهور الملبي للدعوة والمحتفل، كان من بين المترجمين الرايس مسعود سيبيرا بن علال.

وقد انتهزها فرصة ليتصل بالمقيم العام وسلفستري فيما بعد، وكلا الطرفين كانا في حاجة إلى الآخر. ولم يلبث أن تفتحت له أبواب المعارف، لا مع الإسبان والمغاربة فحسب،

ولكن مع الأوربيين الآخرين، من تجار وفنيين ومنقبين على المعادن، ألمان وفرنسيين وبلجيكيين وإيطاليين، وشخصيات إسرائيلية في النطاق التجاري. وأثناء الحرب الريفية مع الإسبان، أخذ يتصل بالسيد امَحمد عبد الكريم الخطابي، ويتدارس معه وسائل استيراد الأسلحة من مصانع أوربا كبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وإنجلترا خصوصا المدافع البعيدة المدى، وكذلك لجلب أشياء أخرى عن طرق طنجة ووجدة. ومن بين الذين ربط معهم محاولات ومجازفات الإنجليزي كاردينر، والصحفي هاريس المقيم بطنجة، ومن الذين كانوا يقدمون له مساعدات للإبحار بجوازات سفر مختلفة الإسرائيلي زانكوت من سكان طنجة، ومن الذين ظلوا يقدمون مساعدات استعلامية وإسعافات طبية، وكثيرا وكثيرا مما كان يتوقع إنجازه الوشيك لولا أن الوقت كان ضيقا لا يتسع لتحقيق الرغبات من جهة، ولولا ما حدث مفاجأة من مقتل الرجل حقدا وحسدا، مما عطل المسعى وجمده، وصفق له الإسبان من جهة، لترجحت كفة الحرب الريفية على كل من إسبانيا وفرنسا».

الوثيقة الثانية :

شهادة العربي أبَرْكَان وعيسى أحِذَارْ

« يتوجهان إلى مالقة بالأندلس يبحثان عن سلام للتجارة به بالريف. ومن المعروف أن بعض المقاهي يرتادها جل المهربين، ففيها يتم التعارف، ويتفق على الصفقات.

وذات مرة أشارا على النادل أن يتقدم لاستلام ثمن المشروب، فقال لهما : قد تسلمت ما وجب عليكما من سيد دون أن يقول لهما من هو الشخص الكريم !!! فالتفتا يمنة ويسرة لعلهما يعرفان شيئا عنه بإشارة منه. وإثر ذلك خرجا يطربان في الشوارع، ويتنسمان ما قد يلقيان من نفحات !! وبعد بضع ساعات لم يهتديا للتعرف على شيء عنّ لهم أن يستريحوا في المقهى المعهود، وراحوا يجوبان بأبصارهم باختزال لعلهم يلاحظون عن الجلساء من يكن بينهم، فلم يتوفقا. فراحا يتحدثان لاهيان إلى أن عزما على مغادرة المقهى حيث أشارا على النادل أن ينفضل لاستلام ما وجب عليهم أداؤه. ولكن هذه المرة لم يكلف نفسه الحضور أمامهم، بل أشار عليهم من بعيد بالانصراف. وفعلا خرجا وأخذا يسيران الهوينا في شارع مدريد ينتظران مفاجأة. وكذلك كان. فقد ناداهما شخص من درب ينفذ إلى الشارع الذي يذرعانه بـ : نَشْ، نَشْ.

فالتفتنا إلى مصدر الصوت. وكان صاحبنا ينتظرهما ليحدثهما. وبعد التحية قال لهم: أنا صاحبكما بالمقهى، فتعاليا معي لداري.

وقد استجابا لرغبته عن توجس، خصوصا عندما دلف من باب خارجي إلى باحة لا أثر لإنسان فيه، وقال لهما: انتظراني قليلا. واستدبرنا، ثم سار صُعُدا في درج إلى ذروته لينطلق توا إلى مكان ما. ولم يلبث أن عاد إلينا بلباس مغربي من قدميه إلى قمة رأسه. وقال لنا بالإسبانية: مرحبا بكما. تفضلا لنصعد معه بدورنا ذلك الدرج لنأخذ مكاننا في صالون نظيف نخدت فيه أرائك مغربية الصنع والترتيب، وكأننا في منزل نطواني.

وبعد تبادل عبارات اللياقة، سمعنا طرقا من جهة كعلامة استئذان، وقال: ادخل. وكان الداخل آنسة، هي بنته شكلا ولونا، وبين يديها ماعون الشاي لتحطه قريبا منا. وعلى الفور ذهبت وعادت بمجمر معروف بالبابور، ثم توارت بالحجاب. فقام وقدم لنا الماعون، وقال لنا: هل تحسنان تحضير الشاي؟ أجبنا: نعم. إذن، توليا بأنفسكما معالجته، وهو يلاحظ من طرف خفي، ونحن كذلك وحتى النعناع كان موجودا بين الماعون على القاعدة المغربية. وبعد تناول الشاي، دلف إلى حيث أسرته ليعود إلينا بعباءتين وقال لنا: انزعا عنكما جلابتكما واستريحا كما لو أنكما بين أهليكما، فشكرناه.

وبعد التعرف الشخصي قال لنا: وأنا بدوري عربي مسلم عربق، ودرجتي العسكرية كولونيل، وقد احتفظت بدوري بشعائري الإسلامية منذ قرون وإلى الآن، ولست أخاف الآن على حياتي كما كان أجدادي، فذاك عهد مضى، ولكني تماشيا للقيل والقال، فضلت أن أبقى على وضعي المألوف.

قضينا الليلة بمنزله. وفي الغد كان يوم عيد الأضحية حيث فوجئنا بسوقه كبشا ضخما لأداء شعيرة الإسلام، فتقدمنا إليه وساعدناه على إضجاعه، وتوليا نحن ذبحه بتفويض منه. وبعد تسويته قطع منه الكبد والشحم، وسار به إلى أسرته ليعود إلينا بشوائه تحمله بنته في صحن بعد الاستئذان بالدخول كعادتها. تناولنا منه ما أشبعنا، وتبادلنا معه التهانئ، وكما فاتني أن أقول بالأمس إثر تناول العشاء، حملت بنته صحنا كبيرا من الكسكس مغلوطا بلحم الدجاج على الطريقة المغربية، وذلك بعد الاستئذان بالدخول كعادتها، إلا أنه لم يتناول معنا أكلا سوى الشاي. كما أننا لم نقع عيننا على إنسان سوى بنته، وإن كنا نسمع كلاما يدور بداخل المنزل. ومما قاله لنا: كيف جئتما والعيد مقترب؟ لماذا لم توفرا سفركما؟ فقلنا له: حقا ما تقول، ولكننا لم نتوقع أن يطول بنا المقام هنا بمالقة أكثر من أسبوع. ثم قال لنا: والآن ما الغرض الذي جئتم من أجله؟ فقلنا له شراء جملة

من الأسلحة للتجارة. وكم عندكما من مال؟ قلنا له ستة آلاف بسيطة لكل واحد. فقال لنا : ادفعاها لي وأنا سأتولى كل شيء حتى أجهزها لكما في السفينة الذاهبة قريبا إلى جزيرة النكور، وأوصيكما بأن لا تُعيِّباني أو تتحدثاني إلي وأنا خارج المنزل إلا إذا أشرت إليكما بالاتصال لأدفع لكما الأوراق اللازمة عند الإبحار والدخول إلى الجزيرة عند الجمرك.

وحقا، ورغم ما أبداه معنا منذ البداية من عواطف وكرم، فقد ساورنا الشك حينما دفعنا له المال بطلب منه، وحينما قال لا تبديا أي علاقة وتعرف بي إلى أن ....، وكذلك حينما دخلنا معه إلى منزله. وبسبب هذه الظنون من الحذر لم نقل له الحقيقة حينما استفسرنا عن مبلغ المال الذي عندنا، فقد أخفينا عنه ضعف ما صرحنا به، بينما كان هو الغرض الذي من أجله سألنا ما يكون ثمنا مساويا للكمية المشتراة، لأنه هو الذي قام بكل شيء حتى ندمنا على ما فعلناه. فحصة الربح كانت سمينة لو دفعنا له ما عندنا رغم أنه قدم لنا مصحفا بمنزله لنقرأه، ولكننا أميان. ومما زاد في ظنوننا وخوفنا حينما ظللنا ننتظر قراره طيلة خمسة عشر يوما. وأخيرا مكننا من جميع الأوراق الضرورية للإبحار والرسو.

وهكذا ركبنا السفينة مع شحناتنا المستوعبة لاثنتي عشر صندوقا، كل صندوق يحتوي على تسع وحدات مفككة، والمجموع هو : 108 وحدة من النوع الخماسي. والبيان المثبت في الأوراق التجارية لصنف البضاعة هو الزبيب الإسباني المشهور بجودته والرائج الصفقة.

وإليك كيفية التنضيد والترتيب : يفترش قاع الصندوق الخشبي بورقة كثيفة كما تبطن الجوانب بنفس الكثافة بطبقة مناسبة من التين الإسباني الجيد لتوضع في جوفه بإحكام ثلاث وحدات مفككة لتغطي بطبقة مناسبة من الزبيب المضغوط ثم عملية ثانية، ثم ثالثة بنفس النمط إلا أن الطبقة الثالثة أكثف جدا من الثانية والأولى. ونفس العملية المحكمة بمهارة تجرى على الصناديق الأخرى.

وفي جمرك جزيرة النكور عمد المفتش الجمركي لإزالة الغطاء للتحقق من صنف البضاعة، ثم غاص أصابعه، فلم يجد إلا الزبيب الذي لم يتورع على أخذ كمية منه ويقول : جيد للغاية، وهو يتذوقه. وكذلك فعل من كان بجانبه من مساعديه والحاضرين، تبودلت أثناء ذلك ضحكات ولباقات. وفورا شحنت الصفقة المزورة في قارب لتفرغ في شاطئ الرملة الصغرى».

الوثيقة الثالثة :

« ... سألت شعيب أحموش على المستفاد اليومي من عملية النقل عبورا بين الجزيرة [ حجرة نكور ] والبر. فقال لي : يصل أحيانا بمعدل ثلاثة ريال، والريال خمس بسيطات، والبسيطة مائة سنتيم، نوزعها بيننا، أعمار المدعو نسيدي عيسى بن موحاند، وأحمد والمدعو لقبا بونتو الذي يسميه الإسبان باخاريتو، وأنا شعيب سي حموش. جميعنا من أهالي أجدير. والواجب الذي يؤديه الغادرون والرائحون يختلف حسبما يحملون معهم من أثقال.

ويأخذ مباشر التجديف والنوتي المكلف باستخلاص الأجور حسب الاتفاق على ذلك، وقد يكون أحد المشتركين في ملكية القارب يتولى بنفسه التجديف وترتيب السلع، ومسك الدفة، فيأخذ نصيبا زائدا على ذلك بينما الإفراغ والشحن، يتولاها عمال آخرون يتقاضون واجباتهم من أصحاب السلع. وقد تتعطل الحركة التجارية والسفرية بسبب الأعاصير الهوجاء، وتعاظم الموج، خصوصا في فصل الشتاء.

وقد يكون سبب هذه الأزمة هو المقاطعة بين الجزيرة لأسباب حربية مؤقتة، أو احتياطية من المباغتات الاستعمارية لاحتلال البلاد، ثم لا تلبث أن تعود الأحوال عادية بين الجانبين فور تحسن العلاقات. وللقبيلة حق التدخل في مثل هذه المواقف دون القرى والجماعات المجاورة، ويكون قطع العلاقات وربطها بإعلان عام، باسم القبيلة، في الأسواق أو في التجمعات العامة الكبرى.

هناك زوارق تبلغ حمولتها ما يقرب خمسة أطنان، تستعمل بين ساحل الريف وإسبانيا وجبل طارق ومليلية وسبتة وتطوان وطنجة، تسير بالشراع والمجداف، حسب هبوب الرياح وسكونها واتجاهاتها، ولكل منها قيادة ماهرة، تحدد الأهداف، وتهتدي بالأنواء، وتقلبات الجو للسير قدما أو إحجاما في انعطاف إلى مواطن السلامة.

للبحّار المحترف أجر مناسب للمسافة التي سيقطعها. فمن الحسيمة إلى مالقة، يتراوح المبلغ بين أربعين أو خمسين بسيطة، علاوة على القوت الذي يكون الرئيس قد أعده. وثلاثين أو أربعين بسيطة من الحسيمة إلى سبتة أو مليلية، وحسب الاتفاقات والأشخاص من حيث الكفاءة والمرونة والقوة والاستعداد لمواجهة الأخطار القرصنية.

وكل مركب ينطلق من الحسيمة إلى بلاد الإسبان، عليه أن يتزود بمأذونية يتسلمها من حاكم الجزيرة، وإلا كان معرضا لمنعه من الإفراغ أو الشحن في الموانئ الإسبانية ».

يقول :

« أعمار سينتو بن موح بن الرايس موحاند بن امحاند الخطابي، من سكان وأهالي أجدير. كان بزاول، كجده الرايس، مهنة الملاحة. واشتهر بمهارته وجرأته في الأوساط الساحلية، من مليلية إلى طنجة. وكان إلى جانب هذا يبحر في مغامرات تهريبية من شواطئ الريف الممتدة إلى طنجة غربا، ومليلية شرقا، وإلى الشواطئ المواجهة من بلاد الإسبان، وجبل طارق التابعة للإنجليز. وكان يتردد كثيرا على طنجة. ولم تعرف رحلاته في عرض البحر أي فشل أو نكسة، حتى أن المسافرين كانوا يؤخرون أسفارهم إلى الجهات التي يتردد عليها تفاؤلا بحسن طلعته.

وكان يطلق العنان لشهواته، وارتياده على مظائر التسلية والرقص، ويجيد التحدث بالإسبانية أسلوبا ورطانة. وتزوج بمدينة تطوان بسيدة من قبيلة آيث عمارث بالريف، وأنجب معها ولديه محمد وأحميدو، وتوفي أثناء تواجده بمدينة طنجة بسكتة قلبية. وكان له أم ماهر في فن الملاحة يدعى الحاج أنهناه.

وكانت امرأته الأرملة تقيم، مع ولديها، مع أخيه في الدار المشتركة بينهما بقرية أجدير. وبسبب المضايقة ... قررت أن تعود إلى تطوان، حيث الكسب المتيسر، والأمان. وكانت حرفتها هي التوليد، مما جعلها محبوبة بين السكان.

ولكن، كيف الانتقال من الريف إلى تطوان ولم تكن تلقى أي مساعدة لتحقيق رغبتها؟

ولما أصبحت لا تطيق المقام بين الأسرة، انتقلت إلى دار تجاورها، وأصبحت في سكنها الجديد المؤقت تنعم بالطمأنينة والتفاؤل. وكانت منسجمة مع ربة الدار الجديدة، وهي فطوش بنت موح نعلي بن عبد الله، من أهالي أجدير. وبعد سنة من مقامها بين الأسرة، ومع هذه السيدة الفاضلة، وبمعيتها ولداها الشابين، توسلت إليها بأن تكلم ولدها شعيب بن السي حموش أن يعمل على تيسير سفرها إلى سبتة، ومنها إلى تطوان بحرا، كما كانت متعودة على ذلك أيام حياة زوجها رفقته في مركبه. فاستجاب لرغبتها. وكانت الظروف متوترة بين إسبان جزيرة النكور والوريا غليين بموجب القطيعة السياسية، وأصبح ممنوعا على أي كان أن يعبر إلى الجزيرة، والذي هو المركز الهام للانطلاق إلى مختلف الجهات، لأن السفن ترسو بجانبها للإفراغ والشحن. وبذا فقد كان من الضروري أن تعبر أولا من البر إلى الجزيرة، ومنها بموجب تذكرة الأداء إلى سبتة.

ولكنه أراد أن يغامر بتعريض نفسه لعقاب القبيلة. فقال للسيدة :

- انهضي أيتها العمة على بركة الله، لنأخذ قاربا من جون إسلي.

وقبل أن يستقلا الزورق، تداركهما أخوان عبد الكريم وعلي، ابنا السي شعيب قوبع، فعادا دون تحقيق الرغبة، معتجبين على محاولة خرق حكم القبيلة. فلم يسعهما إلا الرضوخ، فعادا إلى المنزل. ولكن صاحبنا حاول مرة أخرى ذلك ليلا، فتحقق العبور للجزيرة. وهناك حجزت ورقة السفر لسبتة في سفينة بريدية. وكذلك كان.

وما كاد الخبر يشيع في الأوساط حتى نودي على الضحية. وانعقد مؤتمر مصغر بسوق الأربعاء، وإلزامه بغرامة فوق طاقته. ولما سئل عن سبب خرقه للقانون، أجاب بأنه ما كان يظن أن تمنع امرأة أرملة وحيدة لا تستطيع إعاشة ولديها الصغيرين ونفسها، وقد قضت معظم حياتها بتطوان، بين أقاربها، ووالديها. وإني لا أرى فيما ارتكبت إلا خيرا وواجبا إسلاميا، وكل ما أقوله لكم هو أن تعصوني بالتجاوز وقبول الاعتذار.

وبين أخذ ورد، عوفيت من العقاب. فقد أشار علي العام موحند شدي الخطابي، من أهالي أجدير، ومن الأعيان البارزين، أن أقبّل رأس الشريف سيدي أحمد بورجيلة المرابطي، والثم يديه مما ليتم العفو. ففعلت، ونجوت من الغرامة الفادحة، إذ تشفع لي لدى رفاقه الشيوخ، وكان محترما من طرف الجميع. وقد حاول البعض، وبدون نتيجة، أن يعكر الجو قائلا :

- بالأمس قام زوجها بخرق فظيع لحرمات الوطن والقبيلة والدين، واليوم تأتي زوجته فتسلك نفس المسلك بواسطة هذا الصعلوك فيعفى من الإدانة.

وقد سبق فعلا أن جاء أعمار سينتو بألماني في زورقه، وأنزله ليلا إلى البر، وذهب به متنكرا إلى جبل حمام، ليدرس ما عسى أن يكون هناك من معدن، ثم عاد به. وقد فطن القوم للعبة، فأدانوه غيابيا، واجتمعوا بموقع المجاهدين يقررون تغريمه. وبالصدفة وصل إلى الجزيرة في نفس اليوم على ظهر سفينة، وهناك عرف القصة، فنزل إلى البر وبيده بندقية، فاتصل بأخيه، وقال له :

- ماذا في الأمر؟

فقص عليه الحكاية.

- فقاطعه : يريدون الغرامة، ألف ريال، ها هي، أعطها لهم ثم ها هي أربعمائة ريال، ادفعها رشوة للبعض حتى لا يطلبوا أكثر.

وفعلا انتهى المشكل.

وبعد سنتين، توجهت إلى تطوان، وسألت عن المرأة، فدلني غلام على منزلها، فلم أجدها هناك فقالت لي امرأة :

- من أنت؟

- فقلت لها : أنا من عائلتها.

فاستغربت أن أكون كذلك وأردفت قائلة :

- منذ متى كان لها أهل من جبالة؟

- قلت لها : أنا ربيبي.

فسكتت، وبعثت معي بنتا إلى الدار حيث تقوم بعملية التوليد، وفرحت. يا لها من مفاجأة. صاحت :

مرحبا أيها الأخ الكريم.

أخذتني إلى منزلها وأكرمتني، وأخذت تقص حكايتها لهم، وما قدمت لها من عمل إنقاذ. وذهبت إلى السوق، واشترت لي كسوة كاملة من بدعية وقميص وشال وعمامة.

وحقيقة، دهشت من معاملتها لي، وطيبوبتها، فودعتها على أن أعود مرة مناسبة لأزورها، لأني لا أستطيع أن أستمر أكثر من يوم بتطوان، لأن أصحابي بانتظاري بمرتيل، لنبحر إلى الريف. كما أعطتني عشرة ريال. ورغم أنها تعرف حالتي المكفية، أبت إلا أن تكافئني، وما كنت أنتظر ذلك منها، وإنما سألت عنها لما لها من عاطفة بليغة مع والدتي التي ترثي لحالها وقد فقدت زوجها، وابتعدت عن وسطها حينما كانت هنا محل احترام وإكرام ».

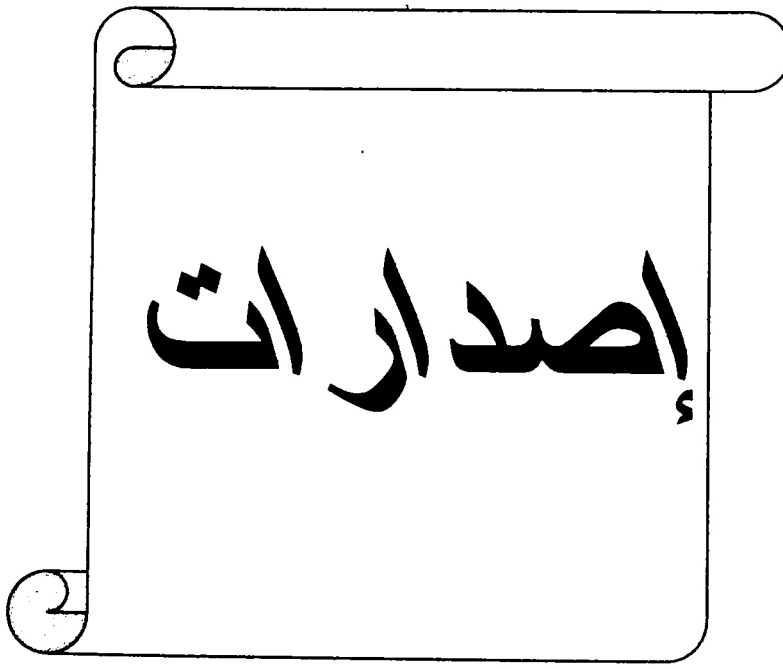
إصدارات

ضمن سلسلة " المكتبة الأمازيغية " Biblioteca Amazige ، أصدرت مصلحة المنشورات التابعة لمجلـــس الثقافة، التربيـــة، الشـــباب، الرياضة والسياحة، بمدينـــة مليلية، دراسة عـــن اللغـــة الأمازيغية تحمل عنـــوان : « اللغـــــة الريفيـــــة La lengua Rifeña »، عـــن مطبعـــة SAYER، مالقـــة، الطبعـــة الأولـــى، أكتوبر 1998.

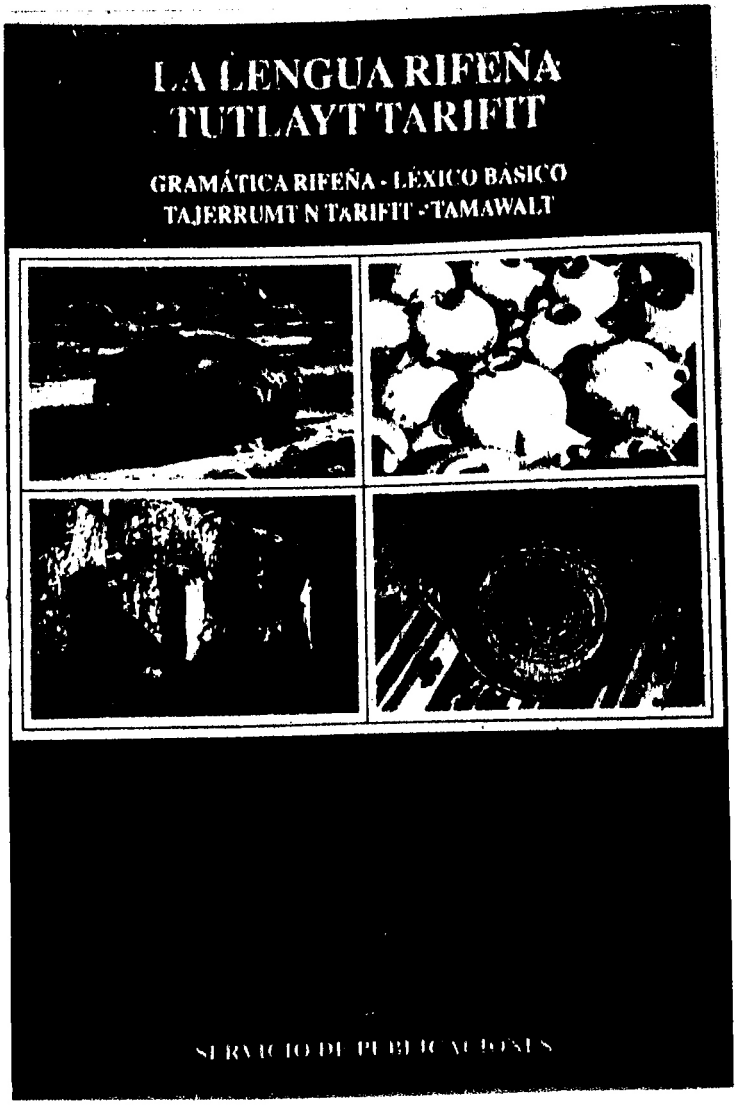


والكتاب، أصـــلا، صـــدر باللغـــة الكطلانيـــة بمدينة برشلونة سنة 1995، ثم في طبعة ثانية مصححـــة ومنقحة سنة 1998. وقـــد ترجمه إلى اللغة الإســـبانية Perre CASTELLANOS. أما مؤلفوه، فهم بـــاحثون فـــي الدراســـات اللغويـــة، وبالأخص الأمازيغية، وهـــم :

- مـــن المغـــرب : D. Hassan BANHAKIA و Abdelghani EL MOLGHY
- من إسـبانيا : Carles CASTELLANOS
- من الجزائر : Mohamed TILMATINE

يتضمن هذا المُؤلَّف الذي يقع في 231 صفحة من القطـــع الكبـــير، بالإضافـــة إلـــى توطئـــة للناشـــر الســـيد Vicente Moga ROMERO، ومقدمة ولائحة ببيليوغرافية، يضم ثلاثة أبواب رئيسية:

- الباب الأول : قواعد اللغة الريفية.
- الباب الثاني : معجم أولي أمازيغي - إسباني (القسم الأول).
- الباب الثالث : معجم أولي أمازيغي - إسباني (القسم الثاني).

بعد كتابهما «Al Hucemas en mi recuerdo» (الحســـيمة فـــي ذاكرتـــي)، صـــدر للمؤلفيـــن الإســـبانيين : Placido Rubio AL FARO و Miguel Lacalle AL FARO كتاب جديد تحت عنوان :

**« AL Hucemas, 1925, Desembarco, Asentamiento, Evolución »**

**(الحسيمـــة، الإنـــزال، الاستقـــرار، التطـــور)**

الطبعة الأولى، مالقة، 1999.

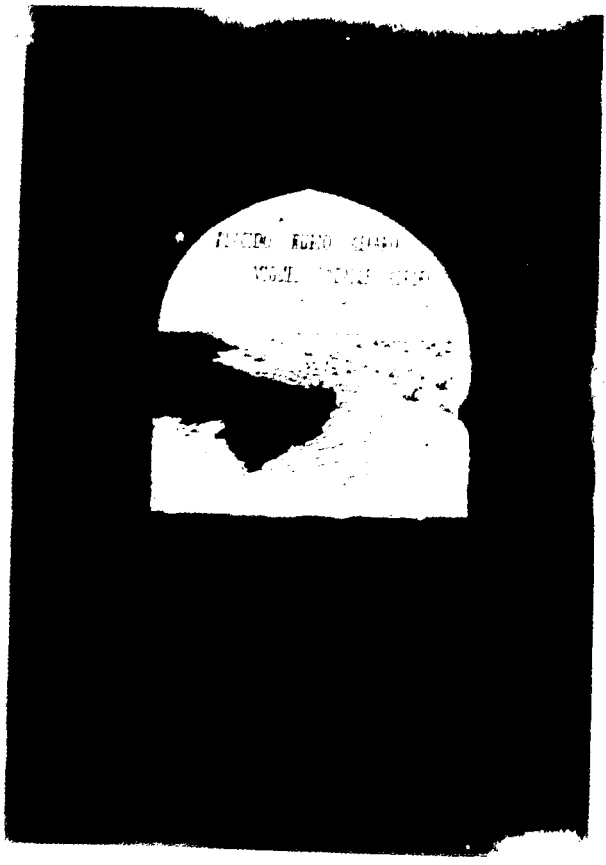

ليكون بذلك ثالث الثلاثـــة الإســـبانية المؤرخـــة لذاكرة مدينة الحسيمة بعـــد الاســـتقلال، إذا مـــا تذكرنـــا كتـــاب :" Fragmentos de una conversación continua sobre Al Hucemas, " لمؤلفه Juan RAMON.

يقع الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه في 343 صفحة من الحجم المتوســـط (17 x 24 cm)، معزز ب 216 صورة. ويتوزع، بالإضافة إلـــى التقديم، على أربعة فصول :

الفصل الأول : **مذكرات رجل الحسيمة.**

الفصل الثاني : **الإنزال.**

الفصل الثالث : **الاستقرار والتطور.**

الفصل الرابع : **يوميات.**

لعل ما يلفت الانتباه في هـــذا المؤلـــف أكـــثر، احتواءه على الصور التاريخية النادرة، بدءا مـــن أولى لقطات الإنزال بســـاحل بقويـــة المســـمى " صبادیا " يوم 8 – 9 – 1925 ، إلى زيـــارة ملك المغرب، المغفور له، محمد الخامس عقـــب الاستقلال لمدينة الحسيمة في أكتوبر 1957، بـــل إلى خروج أخر فيلق عسكري إسباني من المدينة سنة 1959.

أما الفصول المكونة لهذا الكتاب، فتبقى في نهاية المطاف، عبارة عن خطاب تاريخي ينبغي قراءته بعين ناقدة، ليـــس لأن صاحبيه اعتمدا بشكل كلي على مصادر ومراجع جلها إسبانية، إلى جانب فقدانهما لمهنة " المؤرخ "، وإنمـــا أيضـــا باعتبارهما عضوان بارزان في " الجمعية الثقافية لقدماء قاطني الحسيمة "، التي يوجد مقرها بمدينة مالقا. وهي جمعيـــة إسبانية تستحضر ذكريات الماضي، بداية من تنصيب أول خيمة للإنزال العسكري في أرض الحسيمة التي كانت خـــلاء، إلى تأسيس جريدة " Heraldo de Al Hucemas " في عهد الحماية، والتي اتخذتها الجمعية المذكـــورة شـــعارا لـــها، وتعمل على تدوين ذاكرة « **فردوسها** » المفقود. لكن حذار من أن تتحول الرومانسية المفرطة إلـــى استفزاز شـــعور المغاربة الذين ما يزالون يتوقون إلى استرجاع ما تبقى من الجيوب المحتلة.

من الكتب التي عززت المكتبة الإسبانية مؤخرا، والتي تناولت جزءا من تاريخ المغرب عمومـــا، والريـف علـى الخصوص، كتاب : " **التاريخ السري لأنوال** ".

**Juan PANDO**, ***Historia secreta de ANNUAL***, Ediciones Temas de Hoy, S.A. (T.H.), Madrid,1999.

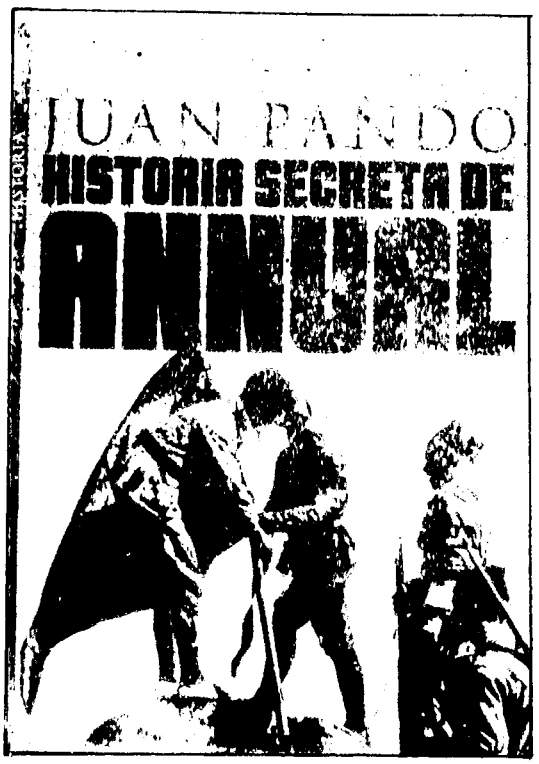


أهمية هذا المؤلَّف الذي يروم إعادة قراءة لهزيمـــة الجيش الإسباني في معركة أنوال الخالدة، تكمن في نفـاذ طبعاته الثلاث المتتالية ما بين يناير ومارس 1999، وفي تعزيزه بوثائق مختلفة جديدة، وفي تعدد الأرشيفات العامة والخاصة التي اعتمد عليها الكاتب **خوان بـاندو Juan PANDO** .

وفي هذا الصدد يقول الناشر : « **إن هذا الكتـاب، والذي يستقي مادته من وثائق عديـدة وجديـدة غـير منشورة، لهُوَ ثمرة ثماني سنوات من البحث لواحد مـن أحسن باحثينا الأفريكانيين. ومن خلال صفحاته التـي لا تخلو من الوصف الحماسـي لمشـاهد مـن البطولـة والتضامن، أو الجبن والتخاذل، تبرز، وبوضوح، جوانب أخرى جانبية لشـخصية : Silvestre, Berenguer, Eza، وكثير من الأبطال الآخرين، إلى جانب الطيـف المدين لآلاف الجنود المدفونين في بحر جبال الريـف، جيش من المفقودين الذين ضاعت حياتهم في كـابوس إفريقيا.**»

يقع متن هذا الكتاب من الحجم المتوسط في 423 صفحة، ويتضمن :

**مقدمة.**

الفصل الأول : **في بلاد الحرب.**

الفصل الثاني : **عيون ملك المغرب.**

الفصل الثالث : **طريق أنوال.**

الفصل الرابع : **ذاك الربيع المقتول في أبران.**

الفصل الخامس : **جنرال القمم الثلاث.**

الفصل السادس : **الآلاف الثلاثة لأعروي وآخرون.**

الفصل السابـع : **إسبانيا بيكاسو.**

**خاتمة : ما مصير هؤلاء الرجال.**

هذا إلى جانب مجموعة من الملاحق الوثائقية والكارتوغرافية، وفهارس متعددة.

عن سلسلة " مكتبة مليلية "، صدر للباحثة الإسبانية **Maria Rosa de MADARIAGA** كتاب :

# ESPAÑA y EL RIF
# Crónica de una Historia casi olvidada

## إسبانيا والريف : فصل من تاريخ شبه منسي

الطبعة الأولى، مالقا، أبريل 1999

ويتضمن هذا الكتاب الذي يقع في 535 صفحة العناوين التالية:

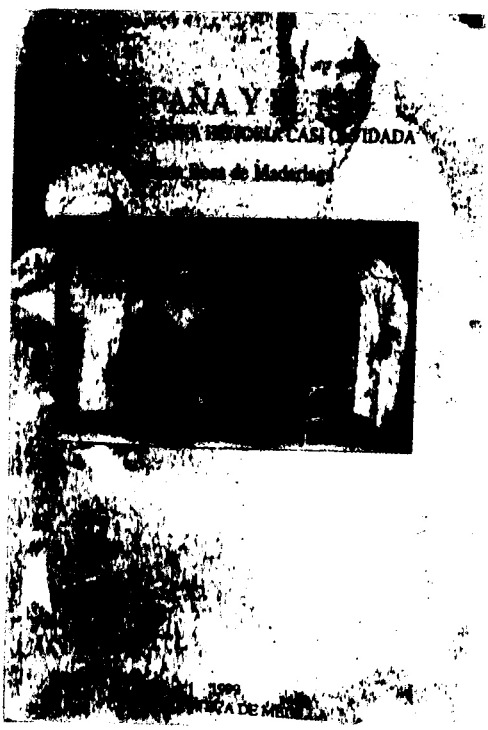

**مقدمة.**

الفصل الأول : **إسبانيا والموروس (المغاربة).**

الفصل الثاني : **مقدمات المسألة الريفية.**

الفصل الثالث : **الحمى المعدنية.**

الفصل الرابع : **أصحاب الامتيازات والمقاولات المعدنية.**

الفصل الخامس : **الريف : الأوساط الطبيعية والبشرية.**

الفصل السادس : **الأراضي والاستعمار الزراعي.**

الفصل السابع : **مقاومة الاحتلال العسكري.**

الفصل الثامن : **تمردات ومقاومات.**

الفصل التاسع : **" الموروس الأصدقاء" و " الموروس الأعداء".**

الفصل العاشر : **مواجهة سنة 1921.**

الفصل الحادي عشر : **من الترقب إلى المواجهة.**

الفصل الثاني عشر : **إسبانيا ومحمد بن عبد الكريم من خلال حرب الريف.**

**خاتمة .**

**ببليوغرافيا** تحتوي على 170 مرجعا، وأرشيفات دولية مختلفة.

# ملفات مفتوحة أمام الكتاب والمثقفين

- التصوف ، الجهاد والزوايا في شمال المغرب.
- البنيات العقارية والنشاط الفلاحي في الريف.
- البيئة، الهجرة والتنمية في الأقاليم الشمالية.
- اللغة والثقافة الأمازيغيتين بين التراث والحداثة.
- محمد بن عبد الكريم الخطابي وحركة التحرير المغربية.
- الحسيمة من خلال النصوص ، الصور والذكريات.

(عدد ممتاز).